شبهات مسيحية حول القرآن

يتصدى للرد على عدد من دعاوى التناقض بين آيات من القرآن المجيد

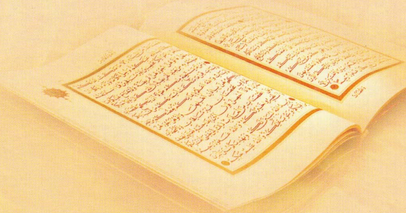

تأليف
الشيخ محمد صنقور علي البحراني

الجزء الأول

شبهات مسيحية حول القرآن

يتصدى للرد على عدد من دعاوى التناقض بين آيات من القرآن المجيد

تأليف
الشيخ محمد صنقور علي البحراني

شبكة الفكر
alfeker.net

الجزء الأول

هوية الكتاب

اسم الكتاب:......................شبهاتٌ مسيحيّةٌ حول القرآن (الجزء الأول)

المؤلف:..........................الشيخ محمّد صنقور علي البحراني

الطبعة:..الأولى

مكان الطبع:..قم المقدّسة- ايران

سنة الطبع:.......................................١٤٣٤هـ-٢٠١٣م

الكميّة:... ٢٠٠٠ نسخة

الناشر:...........................حوزة الهدى للدراسات الإسلامية

هاتف: ١٧٥٥٥٤٨٧ - ٠٠٩٧٣ ، فاكس: ١٧٥٥٢١٩٦- ٠٠٩٧٣

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وخاتم النبيين والمبعوثِ رحمةً للعالمين محمدٍ وآله الطيبين الطاهرين.

وبعد:

فهذه مجموعة من المقالات كتبتها جواباً على شبهاتٍ تمحور موضوعها في دعوى انَّ في القرآن المجيد آياتٍ يُناقض بعضُها بعضاً، وقد أورد هذه الشبهات رجلٌ مسيحي، وبعثَ بها اليَّ أحدُ الإخوة الأعزاء فأجبتُ عن أكثرها وأعرضتُ عن بعضها إما لأنَّها من الوهن بحيثُ لم أجد ما يقتضي التصدّي للجواب عنها، وإما لأنَّ الشبهة قد أُجيب عنها من قِبَل العديد من العلماء والكتّاب بحيثُ لم أجد حاجةً ملحَّة تسترعي التجشُّم لعناء الجواب عنها.

وقد حرصتُ على أنْ لا أتصرَّف في مضمون أيٍّ شبهة أجبتُ عنها بل وحرصتُ على عدم التصرف في صياغتها إلا أنْ أجد فيها إساءةً بيِّنةً

للأدب أو أجدُ في صياغتها رِكَّةً مستهجنة، وقد استبدلتُ من ألفاظها ما كان دارجاً أو موهماً.

وسيجد القارئُ الكريم مستوى الحرص على تحرِّي الموضوعيَّة في مقام الجواب عن كلِّ شبهة، فلم أعمد إلى التمويه أو التعمية كما فعل ذلك مُورِد الشبهات في الكثير مما أورده، هذا مضافاً إلى انَّه لم يكن مؤدَّباً في العديد مما أورده من إشكالات بل لا تكاد تخلو شبهةٌ من الشبهات التي أوردها من غمزٍ ولمز، فإذا فاض به الغيظ جنح إلى ما هو مُستقبَحٌ من المعاني والألفاظ متجاوزاً بذلك كلَّ حدود اللياقة والأدب، وهذا ما قمتُ بتهذيبه حين نَقل كلِّ شبهةٍ في صدر كلِّ مقال.

هذا وقد أَوليتُ كلَّ شبهةٍ العنايةَ التي تقتضيها الصناعةُ العلميَّة، فحين أجدُ في الشبهة وهناً بيِّناً أجهدُ في تعميقها وأَلتمسُ لها من المحتملات ما يرقى بها إلى مستوى الإشكال، وذلك رعايةً لصاحب الشبهة، إذ لعلَّ التعبير قد خانه أو لم يُحسن الإفصاح عمَّا اختلج في ذهنه ثم أتصدَّى للجواب بناءً على ما يقتضيه الإنصافُ من مدلول شبهته.

وقد التزمتُ -ما وسعني- التبسيطَ وعدمَ الإستخدام للمصطلحات الخاصَّة بعلم الأصول خشيةَ أن لا تكون واضحة لدى القارئ الكريم أو لدى صاحب الشبهة، كما انِّي قد تعمَّدتُ التمثيل والتنظير في مقام

المعالجة لكلٍّ شبهة، وذلك لغـرض التيـسير لفهـم المـراد وحتـى يحـصل الأُنس بما أُورده من أجوبة.

هذا وقد قام الأخ العزيز سـماحة الـشيخ سـعيد المـادح -حفظـه الله- بوضع العناوين الجانبيَّة لكلٍّ مقالات الكتاب حتى يـسهل التنـاول لمـا ورد فيه من إجابات، فشكر الله تعالى سعيه وأفاض عليه من وابل آلائه ونعمه.

ختاماً: أسأله تعالى أن يتقبَّل منِّي هذا الجهد اليسير، وأن يحـشرني فـي المجادلين عن دينه وكتابه المجيد الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْـهِ وَلَـا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[1] وأسأله جلَّ وعلا أنّ لا يسلبني صالح ما أنعمَ به عليَّ، وأن يُؤهِّلني للحظوة بشفاعةِ نبيِّه الكريم وأهل بيته الطيبين الطاهرين الأخيار صلَّى اللهُ وسلمَ عليهم أجمعين إلى قيام يوم الدين.

والحمد لله رب العالمين

محمد صنقور علي

الخميس ٨ من جمادى الأولى ١٤٣٤هـ

١- سورة فصلت الآية/٤٢.

الشبهة الأولى

العموم في آية
﴿ ما فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾

الشبهة الأولى

العموم في آية: ﴿ما فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾

يقول القرآن: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾[1] ويقول كذلك في موردٍ آخر: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[2] علماً بإنَّ القرآن لم يشتمل على أكثر العلوم الأصوليَّة والطبيعيَّة والرياضيَّة والطبيَّة، ولا على الحوادث اليومية!

١- سورة الأنعام الآية/٣٨.

٢- سورة الأنعام الآية/٥.

الجواب

الكلام في محورين:

المحور الأول: في قوله تعالى: ﴿ما فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾

يبدو أن المُستشكل لا يدري عن أيٍّ كتاب يتحدث!

ليس في الآيتين ولا فيما هو قريبٌ من مفادهما من الآيات ما يظهر منها دعوى انَّ القرآن الكريم قد تصدَّى لتبيان العلوم الأصولية والطبيعية والرياضية وغيرها من العلوم أو انَّه كان بصدد الضبط والتدوين للحوادث اليومية، فلا مساغ لإيراد مثل هذه الشبهة لو كان مُورِدُها يحترم عقله أو يخشى الفضيحةَ على نفسه.

فإنَّ القرآن كان في عصر الرسالة ومازال في متناول الجميع يتلوه الرسول ﷺ والمسلمون بعده ليلَ نهار في صلواتهم ومحافلهم، فلو كان مفاد الآيتين هو ما فهمه هذا المُثير للشبهة لكان على الرسول ﷺ أنْ يُبيِّن للناس أين هي الآيات التي اشتملت على التعريف بكلٍّ العلوم الطبيعية والرياضية وغيرها، وأين هي الآيات التي أرَّخت للحوادث اليوميَّة، فهو لم

يُبيِّن ذلك رغم أنَّه أكَّد انَّ القرآن هو هذا الذي بين أيديهم ولا شيء غيره، ثم إنَّ المسلمين الذين وقفوا على آيات القرآن لم يتساءلوا عن مواضع تلك الآيات التي اشتملت على العلوم البشرية، ولا تلك التي أرَّخت للحوادث اليومية، ولم يقع في وهمهم انَّ القرآن كان قد تصدَّى لذلك رغم قراءتهم للآيتين اللتين أوردهما هذا المُثير للشبهة انتصاراً لدعواه.

ثم إنَّ النبيَّ محمدﷺ لو لم يكن -جدلاً- نبيًّا فإنَّ مما لا ريب فيه أنَّه كان من أكمل الناس عقلاً، وكان له مناوئون كُثر، وكان في أتباعه العقلاء المتميِّزون، أَلم يكن يخشى على نفسه ودعوته أن يدَّعي أمراً يسهل على أضعف العقلاء التفطُّن لمنافاته للواقع الخارجي؟! وهل يُجازف عاقلٌ بغرضٍ هو بحجم الغرض النبوي وخطورته فيدَّعي أمراً يسهل التفطُّن لخطئه فينسفُ بذلك كلَّ جهوده وما أسَّس له وشيَّده من أجل دعوى لا تُضيف المزيد إلى غرضه، فليس من شأن الرسل على امتداد تاريخ الرسالات التعريف بالعلوم الطبيعيَّة أو الرياضيَّة أو غيرها حتى يحتاج النبيﷺ أنَّ يدَّعي ذلك لنفسه.

أَلا يكفي ذلك كله لإحراز انَّ مفاد الآيتين وما هو قريبٌ من مضمونهما ليس هو المعنى الذي توهَّمه أو أراد إيهامه هذا المُثير للشبهة؟!

هذا الكتاب كتابُ هدايةٍ وليس رياضيات وطب..!

وكيف كان فمعنى قوله تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ هو انَّه ما أهملنا و لا أغفلنا شيئاً مما فيه هداية للإنسان إلى دين الله تعالى إلا وبيَّناه في القرآن إما بنحوٍ خاص أو في إطار العمومات.

والقرينة الواضحة والقطعيَّة على عدم إرادة أكثر من هذا المعنى من الآية الشريفة هي أنَّ القرآن عرَّف نفسه في آياتٍ كثيرة بأنَّه كتاب هداية، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾[1].

وقال تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ * هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى﴾[3].

١- سورة الإسراء الآية/٩.

٢- سورة النمل الآيتان/١-٢.

٣- سورة البقرة الآية/١٨٥.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[١].

القرآنُ فيه كلُّ شيء ممَّا يرتبط بالهداية:

فإذا كان القرآن كتابَ هدايةٍ كما عرَّف نفسه فإنَّه حين يُخبر عن أنَّه لم يترك شيئاً إلا وبيَّنه فيه فإنَّ المتلقِّي لهذا الخطاب يفهم بنحوِ الجزم أنَّ مقصود القرآن من ذلك هو انَّه لم يترك شيئاً فيه هداية إلى دين الله تعالى إلا وقد بيَّنه، عيناً كما لو جاء رئيس بلدٍ مثلاً حاملاً كتاباً، وقال هذا هو قانون البلد ثم قال في هذا المورد أو في موردٍ آخر: إنِّي لم أترك شيئاً إلا وذكرتُه في هذا الكتاب أو قال: إنَّ في هذا الكتاب تبيانٌ لكلِّ شيء فإنَّ أحداً لا يفهم من خطابه أنَّه يدَّعي انَّ في كتابه هذا كلَّ علوم الأرض بل الواضح من خطابه انَّ مراده من دعواه هو انَّه لم يترك شأناً من شئون الحياة إلا ووضع له قانوناً في هذا الكتاب، ولذلك لو نقض عليه أحدٌ بأنَّ كتابه لا يشتمل -مثلاً- على نظريته في علاج الأورام أو نظريته في الذرّة أو في نشأة الأرض فإنَّ مثل هذا النقض لا يكون ناقضاً بل يكون هذا النقض أشبه شيء بالطُّرفة المُستهجنة، نعم يصحُّ لمتلقِّي خطاب هذا الرئيس انّ ينقض عليه بأنَّه لم يُبيِّن في كتابه قانون بعض الجنايات أو

١- سورة النمل الآيتان/٧٦-٧٧.

قانون الأحوال الشخصيَّة مثلاً، ويكون نقضه عندئذٍ ناقصاً لو كان الكتاب غير مشتملٍ فعلاً على ذلك.

وهكذا لو انَّ عالماً من علماء الفيزياء كتب كتاباً ثم ادَّعى في مقدمته أنَّه لم يترك شيئاً إلا وذكره فيه فإنَّ أحداً لا يسعه النقض على هذا العالم بأنَّه لم يُؤرخ لحقبةٍ من الحقب أو لم يُترجم لهذه الشخصية أو تلك أو انَّه لم يصف لنا في كتابه كيفيَّة الخلاص من القوارض أو بعض الأوبئة، فإنَّ مثل هذه النقوض لو صدرت من أحدٍ فإنَّها لا تكون مستحقة للجواب من هذا العالم بعد اتَّضاح انَّ مقصوده من دعواه هو انَّه لم يترك شيئاً في علم الفيزياء دون غيره من العلوم إلا وذكره في كتابه، فالنقض على هذه الدعوى لا يتَّجه إلا فيما إذا أورد الناقض مسألةً من مسائل الفيزياء أغفلها الكاتب.

ومما ذكرناه يتبيَّن المراد أيضاً من مثل قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾[1] فهو تبيانٌ لكلٍّ ما فيه هداية للإنسان إلى دين الله القويم وليس تبياناً لمختلف العلوم والحوادث اليومية فإنَّ ذلك أجنبيٌّ تماماً عن غرض القرآن الكريم.

١- سورة النحل الآية/٨٩.

وبتعبيرٍ آخر: إنَّ حدود مرادات المتكلِّم تُعرف بالقرائن المكتنفة بخطابه، لذلك فإنَّ أهل الكلام والمحاورة لا يتمسَّكون في مقام التفهيم والتفهُّم وكذلك في مقام الإحتجاج بحرفيَّة خطاب المتكلِّم ويقطعون النظر عن القرائن المكتنفة بخطابه.

وحيثُ انَّ دعوى القرآن انَّه تبيانٌ لكلِّ شيء وانَّه ما فرَّط في الكتاب من شيء جاء في سياق ما ادَّعاه من انَّه بصدد الهداية للإنسان إلى دين الله تعالى فإنَّ ذلك يقتضي حمل دعواه التبيان لكلِّ شيء على إرادة التبيان لكلِّ ما فيه هداية للإنسان ولا شيء أكثر من ذلك، فإنْ كان ثمة نقضٌ فليكنْ في إطار هذه الدائرة وإلا كان نقضاً فاضحاً لمُورِده.

هذا وقد استعمل القرآن التعبير بكلِّ شيء في موارد عديدة كان المقصود منها واضحاً في إرادة العموم والإستيعاب في إطار دائرة محدَّدة منفهمة بمقتضى سياق الكلام وطبيعة المعنى الذي كان بصدد التعريف به.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾(١).

فإنَّ أحداً لم يفهم من هذه الآية المباركة انَّ الحرم المكي كانت تُجبى إليه كلُّ ثمرات الأرض، فذلك لم يكن مقصوداً قطعاً، إذ انَّ ثمرات الأرض

١- سورة القصص الآية/٥٧.

يأكل منها كلٌ مَن في أرجاء الأرض، فكيف يتَّفق ذلك مع جلبها جميعاً إلى الحرم المكي، فتعذُّر ذلك واستحالته مع افتراض انَّ المتكلم كان عاقلاً والمُتلقِّي لهذا الخطاب من الأتباع والمناوئين من أهل مكة والحجاز كانوا كذلك عقلاء، فلم يُنكر أحدٌ منهم هذه الدعوى بل كانوا مذعنين بصدقها، إذ انَّ الخطاب في الآية كان مسوقاً بنحو التقرير للتعبير عن الإمتنان والتفضُّل ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾ فالإستفهام الذي وقع في صدر الآية يُؤتى به في المقام للتعبير عن المفروغيَّة والتسالم على مدخوله أعني المُستفهَم عنه والذي هو في الآية أمن الحرم وأنَّه كانت تُجبى إليه ثمرات كلِّ شيء.

فهذه القرينة الواضحة تُنتج الإطمئنان بعدم إرادة كلِّ ثمرات الأرض من قوله: ﴿يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ كما انَّ من الواضح عدم إرادة كلِّ أنواع ثمرات الأرض، فإنَّ الثمرات التي كانت تُجبى إلى الحرم المكي إنَّما تُجبى له بواسطة الوافدين على مكة الشريفة، وهؤلاء لم يكونوا من كلِّ أرجاء الأرض وإنَّما كانوا من كلِّ أرجاء البلاد التي يقطنها العرب، وليس في بلاد العرب كلُّ أنواع الأشجار، لذلك فالمتعيَّن من معنى:﴿ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ هو أنواع الثمرات التي كانت تُجنى من الأشجار المتداولة والمعروفة في بلاد العرب، فلأنَّ العرب في أيام الجاهلية كانت تُقدِّس الحرم المكي لذلك كانت تشدُّ الرحال إليه فتحمل معها للتقوُّت والتجارة

ممَّا تجنيه من الأشجار التي تنبت في بلاد العرب، فالقرآن عندما عبَّر بثمرات كل شيء يتَّكل في فهم الحدود لدائرة العموم في خطابه على القرائن الحالية المكتنفة لخطابه كما هو الشأن عند عموم المتكلِّمين، فحينما يقول المتكلِّم ذهبتُ لحديقة الحيوان فرأيتُ كلَّ الحيوانات فإنَّ كلَّ سامعٍ لهذا الخطاب يدرك انَّ مقصود المتكلِّم انَّه رأى كلَّ حيوانات تلك الحديقة لا انَّه قد رأى كلَّ أنواع الحيوانات الموجودة على وجه الأرض، وحيثُ انَّ المتكلم يعلم انَّ السامع لن يفهم من كلامه أكثر مما قصد لذلك لم يجد لازماً لإيضاح انَّ مقصوده هو حيوانات الحديقة وليس حيوانات العالم.

ومن الآيات التي استعمل فيها القرآن التعبير بكلِّ شيء وكان مقصوده واضحاً في إرادة المحدوديَّة لدائرة العموم في خطابه قوله تعالى في وصف ما منحه الله تعالى لذي القرنين من أسباب القوة: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾[1].

فإنَّ أحداً لا يفهم من هذه الآية انَّه كان لذي القرنين بوارج عملاقة أو طائرات نفاثة فإنَّ مفاد الآية واضح في إرادة انَّ الله تعالى كان قد أعطى لذي القرنين كلَّ أسباب و أدوات القوة التي كانت متاحة في عصره.

١- سورة الكهف الآية/٨٤.

وهكذا هو معنى قوله تعالى في وصف مملكة بلقيس: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾(١).

والمتحصَّل مما ذكرناه انَّ المراد من قوله تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ هو انَّ الله تعالى لم يُغفل شيئاً مما فيه هدايةٌ لدين الله تعالى إلا وذكره في كتابه وبيَّنه، فلا عذر بعده لمُضِل.

المحور الثاني: في قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾

المقصود من الكتاب هنا ليس هو القرآن:

وأما قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾(٢) فليس المقصود من الكتاب في الآية الشريفة هو القرآن الكريم أو غيره من الكتب المنزَّلة على الأنبياء بل المقصود من الكتاب في الآية هو ما يُعبَّر عنه باللوح المحفوظ عند الله

١- سورة النمل الآية/٢٣.

٢- سورة الانعام الآية/٥٩.

تعالى، والذي هو تعبيرٌ آخر عن علمه الشامل، قال تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾[١].

ففي هذا الكتاب علمُ ما كان وما يكون من خطيرِ الأمور وحقيرها حتى الورق اليابس منها والرطب الذي يسقط من الشجر، وحبة التراب التي تتحرك في باطن الأرض أو التي تنحدر عن صخرةٍ في ظلمات الأرض فإنّ الله تعالى يعلم بها قبل أنّ تكون وبعده وإلى أين سيكون مآلها.

فسياق الآية واضحٌ لكلٍّ ذي فهمٍ بالكلام العربي في انّ كلٍّ شئونات الغيب وما في البرِّ والبحر من خطيرِ الخلق وحقيره فإنّه مدوّنٌ في هذا الكتاب الذي أفادت الآية انّه عند الله تعالى دون سواه، فهو إذن غير القرآن الذي هو في متناول الناس.

حقيقة الكتاب المبين:

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الكتاب في آياتٍ عديدة كلُّها ظاهرة في انّ المراد من الكتاب المذكور هو غير القرآن، وانّه كتاب اشتمل على دقائق المغيَّبات والمقدَّرات من الآجال والأرزاق والحوادث ما مضى منها وما سيأتي، العامة منها والشخصية المرتبطة بآحاد الناس وبمطلق شئونات الكون من السماء والأرض.

١- سورة ق الآية/٤.

فمن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[1].

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[2].

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[3].

ومنها: قوله تعالى: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[4].

فكلُّ غائبةٍ في السماء والأرض مهما حقُرت وصغُرت فهي مدوَّنةٌ في هذا الكتاب كما أفادت الآيةُ الأولى، وكلُّ دابةٍ من دوابِّ الأرض من إنسانٍ وحيوانٍ وطيورٍ وحشرات بمختلف أصنافها وأعدادها الهائلة على امتداد تاريخ الوجود فإنَّها مشخَّصةٌ في هذا الكتاب ومدوَّنٌ فيه مقدار رزقها، وموضع استقرارها، وإلى ما سيئول إليه مصيرها، كلُّ ذلك مدوَّنٌ في هذا

١- سورة النمل الآية/٧٥.

٢- سورة هود الآية/٦.

٣- سورة يونس الآية/٦١.

٤- سورة سبأ الآية/٣.

الكتاب كما هو مفاد الآية الثانية، وكلُّ شيء في السموات والأرض وإنْ كان بحجم الذرّة أو أصغر من ذلك أو أكبر فإنّه مسطورٌ في هذا الكتاب كما أفادت الآية الثالثة وكذلك الرابعة.

الحوادث اليوميّة وأحوال الأمم موجودة في الكتاب وليس القرآن:

هذا وقد أشار النبيُّ موسى عليه السلام قبل القرآن إلى هذا الكتاب عندما سأله فرعون عن الشأن في أحوال القرون الأُولى: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى * قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾[1].

ومن ذلك يتّضح انّ الكتاب المبين المُشار إليه في هذه الآيات ليس هو القرآن الكريم، فالقرآن كما وصف نفسه قد قصَّ على النبيِّ صلى الله عليه وآله ما وقع لبعض الرسل، ولم يقصُص عليه ما وقع لآخرين: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾[2].

وأفاد القرآن أنّه بيّن من شأن بني إسرائيل أكثر الذي يختلفون فيه، ولم يُبيِّن كلَّ الذي كانوا يختلفون فيه قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[3].

١- سورة طه الآيتان/٥١-٥٢.

٢- سورة النساء الآية/١٦٤.

٣- سورة النمل الآية/٧٦.

وأفاد القرآن انَّ النبيﷺ غيرُ محيطٍ بالغيب وإلا لاستكثر من الخير وما مسَّه السوء: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(١) فلو كان الكتاب المبين المُشار إليه في الآيات هو القرآن الكريم لكان النبيُّﷺ محيطاً بالغيب لأنَّ النبيﷺ محيطٌ بالقران كلِّه فهو إنَّما بُعث ليعلِّم الناس الكتاب والحكمة ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾(٢) فتصريحُ القرآن بأنَّ النبيَّﷺ ليس محيطاً بكلِّ الغيب دليلٌ واضحٌ على انَّ القرآن ليس هو المراد من عنوان الكتاب المبين المُشار إليه في الآيات المذكورة لأنَّه ما من غائبةٍ في السماوات والأرض إلا وهو مدوَّنٌ في الكتاب المبين كما أفاد القران في مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾(٣) وقوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾(٤).

١- سورة الأعراف الآية/١٨٨.

٢- سورة الجمعة الآية/٢.

٣- سورة النمل الآية ٧٥.

٤- سورة الحديد الآية ٢٢.

والمتحصَّل انَّ المراد من الكتاب المبين في مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ليس هو القرآن الكريم كما اتَّضح مما تقدَّم، ويُؤيد ذلك انَّه لم يتوهَّم أحدٌ من المفسِّرين وعلماء الإسلام على اختلاف مشاربهم وطبقاتهم إرادة القرآن الكريم من عنوان الكتاب المبين في هذه الآيات.

والحمد لله رب العالمين

الشبهة الثانية

الوحيُ للنبيِّ صلى الله عليه وآله كان مشافهةً أم بواسطة مَن؟

الشبهة الثانية

الوحيُ للنبيِّ ﷺ كان مشافهةً أم بواسطة مَن؟

آيات القرآن متضاربة فيمن ينزل على محمدٍ بالوحي والنبوة، فقد ورد في الآية الثامنة من سورة الحجر أنَّ العديد من الملائكة نزلوا على محمد بالوحي والنبوَّة، بينما في سورتي النحل والشعراء أنَّ الذي نزل بالوحي على محمد هو روح القدس، وأما سورة النجم فذكرت أنَّ الله نفسه أوحى إليه، ولكن في سورة البقرة أنَّ المَلاك جبريل هو وحده الذي نزل بالوحي والنبوَّة على محمد، علماً بأنَّه لم يُذكر لا في القرآن ولا في الإنجيل أنَّ جبريل هو ذاته الروح القدس ...!!

الجواب

الدعوى لا تتمُّ إلّا بأحد أمرين:

إنَّ دعوى التضارب بين الآيات المتصدِّية للإخبار عمَّن ينزل بالوحي على النبي محمدﷺ لا تتمُّ إلا مع إثبات أحد أمرين:

الأمر الأول:

إثبات امتناع ان يكون المرسَل من عند الله بالوحي إلى نبيِّه متعدِّداً، بمعنى إثبات انَّ المرسَل بالوحي لا يُمكن إلا ان يكون ملَكاً واحداً، وكذلك لابدَّ من إثبات امتناع انْ يتمَّ الوحي للنبيِّ بطريقين في عرضٍ واحد، بواسطة الملَك تارةً وبدون واسطةٍ تارةً أخرى، فإذا ثبت امتناع تعدُّد الوسائط وامتناع أنْ يجتمع لنبيٍّ واحد الوحيُ له بواسطة ودون واسطة، وثبت بعد ذلك انَّ آيات القرآن ظاهرة في انَّ مَن أُرسل للنبيِّﷺ كانوا ملائكةً متعددين أو ثبت أنَّ آيات القرآن ظاهرةٌ في انَّ الوحي للنبيِّﷺ وقع تارةً دون واسطة وأخرى بواسطة الملَك.

فإذا أمكن إثبات كلا المقدِّمتين فحينئذ تكون دعوى التضارب بين آيات القرآن في هذا الشأن تامَّة.

الأمر الثاني:

لو لم يثبت امتناع الإيحاء بواسطة أكثر من ملَك، ولم يثبت امتناع أنْ يجتمع لنبيٍّ الوحي دون واسطة تارةً وبواسطة تارةً أخرى، لو لم يثبت ذلك ولكن ثبت انَّ بعض آيات القرآن التي تصدَّت للإخبار عمَّن أُرسل للنبي بالوحي ظاهرةٌ في الحصر، بمعنى أنَّه لو ثبت مثلاً انَّ الآية التي أفادت انَّ جبرئيل أُرسل بالوحي إلى النبيﷺ ظاهرةٌ في انَّه وحده الذي أُرسل بالوحي إلى النبيﷺ وانَّ غيره لم يُرسل بهذا الشأن، وكذلك ثبت من آياتٍ أخرى انَّ غيره من الملائكة أُرسل إليه بالوحي فحينئذ يقع التضارب بين الآيتين، وكذلك يقع التضارب لو انَّ إحدى الآيات أفادتْ انَّ الوحي للنبيﷺ لم يتم إلا بواسطة ملَك، ودلَّت آيةٌ أخرى انَّ الوحي قد تمَّ له دون واسطة، ففي مثل هذين الفرضين يصحُّ الحكم بالتضارب بين الآيات في هذا الشأن، فإذا لم يثبت كلا الأمرين أو أحدهما فحينئذ تكون دعوى التضارب ساقطة.

الكلام في الأمر الأول: (التضارب بناءً على فرضيّة امتناع تعـدُّد طـرق الوحي):

١- هل يُوجد مانعٌ من تعدُّد ملائكة الوحي؟!

فلنتحدث أولاً حول الأمر الأول: فليس ثمة من دليلٍ عقليٍّ أو نقليٍّ يقتضي امتناع أنْ يُكلِّف اللهُ تعالى أكثر من ملَكٍ بالإيحاء إلى أحد أنبيائه، فإنَّ لله تعالى أنْ يُكلِّف مَن يشاء بما يشاء، فلو اقتضت مشيئتُه أنْ يُرسل إلى مَن اختاره لمقام النبوَّة ملائكةً متعدِّدين في دفعةٍ واحدة أو أن يُرسل إليه في كلٍّ مرةٍ ملَكاً غير الذي أرسله في المرة السابقة، فما الضيرُ في ذلك وما هو المحذور المانع من ذلك؟! وهل البناء على الإمتناع في مثل المقام إلا من التقييد لقدرة الله المطلقة ولمشيئتِه التي لا يحول دونها شيء؟!

وهل يتعذَّر على أحدٍ أهَّله اللهُ تعالى لمقام النبوَّة أن يتلقَّى وحيَ ربِّه من ملائكةٍ متعدِّدين بعثَهم ربُّهم الذي يعلم من عبده ما يطيق وما لا يطيق؟! وهل ثمة خشيةٌ من تباين ما يُلقونه في رَوع ذلك النبيِّ وهم اللذين عصمهم ربُّهم وأيَّدهم بتسديده؟! وهل سيبعثهم إلا بعد أنْ يعصمهم من الزلل والخطأ؟!

ثم أيُّ محذورٍ يمنع من أنْ يُمايز بين مضامين آياته ورسالاته فيبعث لكلٍّ مَن يختاره من ملائكته وهو الذي لا يُسأل عمَّا يفعل؟!

أدلُّ دليل على الإمكان هو الوقوع!

وأيُّ محذورٍ في أنْ تقتضي إرادته جلَّ وعلا بأنْ يبعث عدداً من ملائكته يُكلِّفهم مجتمعين بأداء رسالته إلى أحد من عباده، كما بعث لزكريا عليه السلام ملائكةً متعدِّدين يُبشِّرونه بيحيى وهو قائمٌ يُصلِّي في المحراب، قال تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾(١).

وكما بعث إلى مريم عليها السلام عدداً من ملائكته يُنبئونها باصطفاء الله تعالى لها وتطهيره إيَّاها واصطفائها على نساء العالمين، وبلَّغوها رسالةَ ربِّها بأنْ تقنُتَ إليه وتسجدَ لجلاله وتركعَ لعظمته مع الراكعين، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ * يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾(٢).

وكذلك بعث إليها ملائكته يُبشِّرونها بكلمةٍ منه غلامٍ اسمه عيسى تحبَلُ به وتضعه وأنبئوها أنَّه سيكون وجيهاً في الدنيا ومن المقرَّبين قال تعالى:

١- سورة آل عمران الآية/٣٩.

٢- سورة آل عمران الآيتان/٤٢-٤٣.

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾[١].

هذا وقد بعثَ اللهُ تعالى من قبلُ إلى نبيِّه إبراهيم عليه السلام عدداً من ملائكته فبشّروه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، وأنبئوه أنّهم قد أُرسلوا لإنزال العذاب على قوم لوط، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ * فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ * وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾[٢] وقال تعالى في موضع آخر: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ * فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ * قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ * قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ * قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ

١- سورة آل عمران الآية/٤٥.

٢- سورة هود الآيات/٦٩-٧٣.

مُجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ * مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾(١).

وهؤلاء الملائكة دخلوا مجتمعين على نبيٍّ الله لوط عليه السلام وأنبئوه بما قضاهُ الله تعالى في شأن قومه، وبلّغوه رسالةَ ربِّه بأنْ يخرج وأهله ليلاً إلا امرأته فإنَّه مصيبها ما أصابهم، وبشَّروه بالنجاة من العذاب الذي سوف يقع على قومه، وانَّ موعدهم الصبح، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ * قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ * قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ * وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ * وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾(٢) وقال تعالى في موضع آخر: ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾(٣).

١- سورة الذاريات الآيات/٢٨-٣٤.

٢- سورة الحجر الآيات/٦١-٦٦.

٣- سورة هود الآية/٨١.

٢- هل يُوجد مانعٌ من اجتماع الوحي مباشرةً مع الوحي بواسطة؟!

وكذلك لا محذور في أن يجتمع لنبيٍّ الوحيُ له بواسطةِ ملَكٍ من ملائكة الله تعالى والوحيُ له من قِبل الله تعالى دون واسطة، وكذلك لا محذور في أنْ يتمحَّض الوحيُ له دون واسطة، فهو تعالى إذا كان قد أهَّل بعض ملائكته للقدرة على ان يتلقَّوا الوحيَ عنه دون واسطة ليتولَّوا بعد تلقِّي الوحي عنه شأنَ الإيحاء لأنبيائه فما المحذورُ في انْ يُؤهِّل بعضَ أنبيائه للقدرة على تلقِّي الوحيَ عنه مباشرةً ودون واسطة؟!

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾:

هذا وقد ثبت ذلك لبعض أنبيائه كما هو صريحُ قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾[١] وقوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾[٢] وكذلك قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾[٣] فإنَّ الآيات

١- سورة البقرة الآية/٢٥٣.

٢- سورة النساء الآية/١٦٤.

٣- سورة البقرة الآيات/٣١-٣٣.

صريحةٌ في انَّ آدم عليه السلام كان قد تلقَّى العِلم بالأسماء من الله تعالى دون توسيط ملائكته، وذلك بقرينة انَّه تعالى بعد أنْ أفاد انَّه قد علَّم آدم عليه السلام الأسماء كلَّها عرضهم على ملائكته ممتحناً لهم فأقرَّوا له بعدم العلم، فلو كانوا هم مَن علَّم آدم عليه السلام أو بعضُهم لعلِموا أو عِلِم من تصدَّى لتعليمه، فإنَّ ظاهر الآية هو انَّ المُقرَّ بعدم العلم هم عموم الملائكة كما هو مقتضى مفاد الجمع المحلَّى باللام: ﴿عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾، والأصرحُ من ذلك انَّه تعالى أمر آدم عليه السلام بعد امتحانهم بأنْ يُعلِّمهم ما كان قد تلقَّاه من العلم بالأسماء، فإنَّ ذلك يُؤكِّد انَّ العلم بالأسماء كان قد تلقَّاه عن الله تعالى دون واسطة.

وبما ذكرناه يتبيَّن أنَّه لو ثبت من القرآن الكريم انَّ النبيَّ محمد ﷺ كان قد تلقَّى الوحي من عند الله تعالى بتوسُّط ملائكةٍ ينزلون عليه مجتمعين أو كان ينزل عليه بالوحي في كلٍّ مرةٍ ملَكٌ غير الذي نزل عليه في المرة التى سبقتها فإنَّ ذلك لا محذور فيه بعد انْ اتَّضح انَّه لا دليل على الإمتناع بل الدليل قائمٌ على الإمكان.

وكذلك فإنَّه لو ثبت من القران انَّ النبيَّ محمداً ﷺ كان قد تلقَّى الوحي تارةً دون توسيط ملَكٍ وأُخرى بواسطة ملَكٍ من ملائكة الله تعالى، وثالثة بواسطة ملكٍ غيره، ورابعة بواسطة ملائكةٍ نزلوا عليه مجتمعين فإنَّ

ذلك كلّه ممّا لا محذور فيه بعد أنْ تبيَّن عدم الإمتناع وقيام الدليل على الإمكان.

النتيجة:

وبذلك يتّضح انَّ دعوى التضارب في هذا الشأن بين الآيات لو كان منشؤها توهُّم الإمتناع فإنَّ الدعوى تكون في غاية السقوط، إذ لا ضير في أنْ يتلقّى النبيُّ صلى الله عليه وآله الوحيَ تارةً بواسطة الأمين جبرئيل وأخرى بواسطة ملكٍ آخر، وثالثة يتلقّاه بواسطة ملائكةٍ مجتمعين، ورابعة يتلقّاه من عند الله تعالى دون واسطةِ أحدٍ من ملائكته.

الكلام في الأمر الثاني: (التضارب بناءً على فرضيّة انحصار مَن نزل بالوحي و النبوة)

أولاً: هل الذي نزل بالوحي والنبوّة هو عديد من الملائكة؟

وأما الأمر الثاني: فالآية التي أدُّعي دلالتها على انَّ مَن ينزل على النبيٍّ محمدصلى الله عليه وآله بالوحي والنبوة كانوا ملائكةً متعدِّدين هي الآية الثامنة من سورة الحجر، وهي قوله تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ﴾[1] وبالنظر إلى مفاد الآية وسياقها يتبيَّن انَّ صاحب الشبهة لم يفهم معنى الآية رغم وضوح عدم صلتها بمورد الشبهة، فالآيةُ كانت بصدد

١- سورة الحجر الآية/٨.

الردّ على ما اقترحه المشركون على النبيّ عَلَيْهِ وَآلِهِ تعنُّتاً أو استهزاءً، حيث طلبوا منه أنْ يأتيهم بالملائكة ليشهدوا له عندهم بصدقه، قال تعالى قبل هذه الآية من سورة الحجر دون فصل: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ * لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[1] فمبتغاهم منه أنْ يأتيهم بملائكةٍ من السماء حتى يشاهدوهم ويتثبّتوا من أنّهم ملائكة ثم يشهد هؤلاء الملائكة على مرأىً ومسمعٍ منهم انّ محمداً عَلَيْهِ وَآلِهِ نبيٌّ من عند الله تعالى، فكان ردُّ القرآن على اقتراحهم هو قوله تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ﴾ ومعنى الآية انّ الله تعالى لو أنزل ملائكةً بالنحو الذي اقترحوه فكانوا على هيئةٍ يتمكّن المشركون من مشاهدتهم لكان ذلك هو الحجّةُ الفاصلةُ عليهم القاطعةُ لكلِّ عذر، وحينئذٍ لن يُمهلوا بل سيُعاجلهم اللهُ بالعذاب، وهذا هو معنى: ﴿وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ﴾.

فالآية تُنبئ عن سنَّةٍ إلهيَّةٍ قد قطَعها اللهُ تعالى على نفسه أنّه لا يُنزِّل ملائكةً يُعرَفون على أمةٍ كذَّبت بآياته إلا وتعقَّب نزولهم عند عدم الإذعان نزولُ العذاب على تلك الأمة دون إمهال، فمفاد هذه الآية هو مفاد قوله

١- سورة الحجر الآية/٦.

تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾[١].

الآيةُ لا صلةَ لها بالموضوع!

فالآية لم تكن بصدد الإخبار عن انَّ ملائكةً ينزلون على محمدﷺ بالوحي والنبوة كما توهَّم صاحب الشبهة بل هي بصدد الردِّ على اقتراح المشركين حيثُ كان اقتراحهم -كما هو صريح الآية التي سبقت الآية الثامنة- أنْ تنزلَ ملائكةً لهم وليس لمحمدﷺ فإذا نزلوا فعاينوهم وشهدوا انَّ محمداً نبيٌّ فحينئذٍ سيقبلون بحسب زعمهم برسالته ودعوته، فكان ردُّ القرآن عليهم إنَّ الله تعالى لا يُنزِّل ملائكة فيشاهدهم الناس إلا ويكون نزولهم حجَّةً لا إمهال بعدها، فالآية إذن أجنبيةٌ تماماً عن دعوى نزول الملائكة على محمدﷺ بالوحي والنبوّة.

ولو كان المراد من الآية -كما قيل- ما نُنزِّل الملائكة إلا بالوحي والرسالة فإنَّ ذلك وإنْ كان خلاف الظاهر من الآية لكنَّه لو كان هو المراد من الآية لكانت أجنبيةً أيضاً عن مورد البحث، لأنَّها -حتى بناء على هذا المعنى- لا تُخبر عن انَّ ملائكةً متعددين نزلوا أو ينزلون على محمدﷺ للإيحاء إليه بالرسالة -كما هي دعوى صاحب الشبهة- وإنَّما هي بصدد

١- سورة الانعام الآية/٨.

الإخبار عن أنَّه لو شاء الله إنزال ملائكةٍ على أحد فهو إنَّما يُنزلهم لهذه الغاية، فهي لا تُخبر عن فعليَّة نزولهم مجتمعين على محمدﷺ وإنَّما تُخبر عن انَّهم لو أُنزلوا لكانت تلك هي مهمَّتهم.

فمفاد هذه الآية التي هي بصدد الردّ على ما اقترحه المشركون انَّ مقترحكم غيرُ قابلٍ للتحقُّق، لأنَّ إرادة الله قد اقتضت انّ لا يُنزِّل ملائكة ليشاهدهم الناس، وحينما يشاء إنزال ملائكة فهو إنَّما يُنزلهم للإيحاء إلى أنبيائه برسالاته وليس من أجل أن يشهدوا بصدق الأنبياء عند أممهم.

فالآية على كلا التقديرين أجنبيةٌ عن مورد الشبهة فهي لا تُخبر عن انَّ مَن ينزل على محمدﷺ بالوحي والرسالة كانوا ملائكةً متعدِّدين كما توهَّم صاحبُ الشبهة.

ثانياً: هل الذي نزل بالوحي هو روح القدس أم جبريل؟

وأما الآية من سورة النحل المشار إليها في الشبهة فهي قوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾[١] ومفادها انَّ مَن نزل بالقرآن من عند الله تعالى على قلب النبي الكريمﷺ هو روح القدس، وكذلك هو مفاد قوله تعالى من سورة الشعراء: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ

١- سورة النحل الآية/١٠٢.

لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾[1] فإنَّ كلاً من روح القدس والروح الأمين يُشيران إلى مسمَّىً واحد وذاتٍ واحدة عُبِّر عنها في الآية من سورة النحل بروح القدس وعُبِّر عنها في الآية من سورة الشعراء بالروح الأمين، وهذا المقدار أقرَّ به صاحبُ الشبهة، والذي أنكره صاحب الشبهة هو اتِّحاد روح القدس والروح الأمين مع الملَك المسمَّى بجبرئيل والذي أفاد القرآن في سورة البقرة أنَّه مَن نزل بالقرآن على قلب النبيِّ محمدٍ صلى الله عليه وآله قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

فلأنَّه أنكر انَّ جبرئيل هو ذاتُه روح القدس وهو ذاتُه الروح الأمين لذلك زعم انَّ القرآن قد تضاربت آياته فيمَن نزل بالوحي والنبوَّة على محمدٍ صلى الله عليه وآله، ذلك لأنَّه تارةً يُسند النزول بالوحي إلى روح القدس كما في سورة النحل وأخرى يُسنده إلى جبرئيل عليه السلام كما في سورة البقرة، لكنَّ دعوى انَّ روح القدس في الآية من سورة النحل ليس هو جبرئيل دعوى فاسدة، ومع فسادها ينتفي توهُّم التضارب بين الآيات الثلاث، لأنَّ مفادها جميعاً هو انَّ مَن ينزل بالقرآن على النبيِّ محمدٍ صلى الله عليه وآله هو جبرئيل عليه السلام غايته انَّ الآية من سورة النحل وصفته بروح القدس، والآية من سورة

١- سورة الشعراء الآيات/١٩٢-١٩٤.

٢- سورة البقرة الآية/٩٧.

الشعراء وصفته بالروح الأمين، وقد وصفه القرآن في موضعٍ آخر بالرسول الكريم وبذي القوة، ووصفه كذلك بالمَكِينِ عند ذي العرش كما في سورة التكوير: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾(١).

كلُّها صفاتٌ لجبريل بتسالم المسلمين:

فكلٌ هذه الصفات تُشير إلى ذاتٍ واحدة هي ذاتُ جبرئيل عليه السلام، وهذا المقدار ممَّا تسالم المسلمون على تلقِّيه عن النبيٍّ الكريم صلى الله عليه وآله فهو الأعرف بمرادات القرآن، لأنَّه مَن خُوطب به. والتوثُّق من ذلك ليس عسيراً، فالنصوص المرويَّة عن الرسول صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام الصريحة في انَّ مَن نزل بالقرآن على قلب رسول الله صلى الله عليه وآله هو جبرئيل تفوق حدَّ التواتر بمراتبَ كثيرة، وتسالمُ المسلمين جيلاً بعد جيل على تلقِّي هذه القضيَّة عن الرسول صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام وصحابته بلغ من الإستحكام حداً صارت معه هذه القضيَّة من الواضحات التي لا يشوبها شك ولا يجهلها حتى سوقَةُ الناس، ولذلك فإنَّ كلَّ آيةٍ أسندت إنزال القرآن على قلب رسول الله صلى الله عليه وآله إلى موصوف فإنَّه لا يرتاب أحدٌ في انَّ المراد من هذا الموصوف هو جبرئيل عليه السلام.

١- سورة التكوير الآيات/١٩-٢١.

إحتمال الإتِّحاد يكفي لنفي التضارب:

على انَّه كيف يصحُّ لأحدٍ نسبة التضارب إلى القرآن لمجرَّد انَّه أفاد في آيةٍ انَّ القرآن نزلَ به روحُ القدس وأفاد في آيةٍ انَّ القرآن نزلَ به جبرئيل، إنَّ الحكم بالتضارب والتناقض لا يتمُّ بنظر العقلاء في مثل هذا المورد إلا مع إحراز انَّ المراد من جبرئيل هو ذاتٌ مباينة ومختلفة لما هو المراد من روح القدس، أما مع احتمال الإتِّحاد بين العنوانين فإنَّ الحكم بالتضارب يكون مجافياً لمقتضى الإنصاف والموضوعيَّة.

مثالٌ توضيحي:

فلو انَّ أحداً قال في مجلس: لم يزرني في هذا اليوم إلا زيد، وقال بعد ذلك في ذات المجلس وذات اليوم أو في مجلسٍ آخر: لم يزرني في هذا اليوم إلا رجلٌ فقير، فهل يصحُّ في هذا الفرض الحكم بالتضارب بين الكلامين رغم احتمال انَّ مراده من الرجل الفقير هو زيدٌ نفسه الذي أخبر عن زيارته له في هذا اليوم.

إنَّ الحكم بالتضارب في هذا الفرض بين القضيتين يكون مجافياً للإنصاف بنظر العقلاء بل إنَّ العقلاء في مثل هذا الفرض يُحرزون بأنَّ مراده من الرجل الفقير هو زيدٌ نفسه، فيجعلون من اتِّحاد القضيتين في السياق والمفاد قرينةً على إتِّحاد المسمى فيهما.

فحيثُ انَّ المتكلِّم قد نفى الزيارة له عن كلٍّ أحدٍ في في كلا القضيتين وأثبتها في كلا القضيتين لواحد، والمفترض في حقِّه الإلتفات لذلك فإنَّ العقلاء يجعلون من اتَّحاد المفاد في القضيتين قرينةً على انَّ المراد من الرجل الفقير في القضيَّة الثانية هو ذاته زيدٌ المذكور في القضيَّة الأولى، نعم لوكان الوصف المذكور في القضيَّة الثانية مما يُعلم عدم انطباقه على الإسم في القضيَّة الأولى فحينئذ لا يصحُّ البناء على الإتَّحاد بين القضيتين في المسمَّى المُسند له الفعل في القضيتين.

فلو قال في القضيَّة الثانية: لم يزرني في هذا اليوم إلا طفل ونحن نعلم انَّ زيداً ليس طفلاً أو انَّه لو قال: لم يزرني في هذا اليوم إلا امرأة شابَّة ففي مثل هذا الفرض لا يسع العقلاء البناء على الإتَّحاد بين القضيتين في المسمَّى، وهذا بخلاف ما لو كان الوصف المذكور في القضيَّة الثانية قابلاً للإنطباق على الإسم المذكور في القضيَّة الأولى فإنَّ العقلاء وأهل المحاورة يجعلون من الإتَّحاد بين القضيتين في الموضوع والمفاد قرينةً على الإتَّحاد بين الموصوف في القضية الثانيَّة وصاحب الإسم في القضية الأولى، فيبنون على انَّ مراد المتكلِّم من الرجل الفقير هو زيدٌ نفسه المذكور في القضية الأولى.

الأوصاف قابلةٌ للإنطباق على ذات واحدة.. فأين التضارب؟!

وهكذا الحال بالنسبة لمفاد الآيات الثلاث، فهي جميعاً قد أفادت أنَّ ثمة ذاتاً قد نزلت بالقرآن على محمدﷺ إلا انَّه في الآية من سورة البقرة سمَّت تلك الذات بجبرئيل، وأما الآية من سورة النحل فلم تسمٍّ الذي نزل بالقرآن على محمدﷺ وإنَّما نوَّهت بوصفه فأفادت انَّه روح القدس، وكذلك فإنَّ الآية من سورة الشعراء نوَّهت بوصف مَن نزل بالقران على محمدﷺ ولم تسمِّه فأفادت انَّه الروح الأمين، فحيثُ انَّ من المحتمل على أقلٍّ تقدير انَّ المراد من روح القدس ومن الروح الأمين هو جبرئيل نفسه لذلك لا يصحُّ الحكم على الآيات الثلاث بالتضارب وإلا كان ذلك من الحكم بغير علم بعد افتراض احتمال الإتِّحاد وانَّ المتكلم أراد من الوصفين والإسم الإشارة إلى ذاتٍ واحدة، فمحضُ الإحتمال كافٍ لعدم صحة البناء على تناقض المتكلم، بل إنَّ العقلاء في مثل هذا الفرض لإحرازهم بأنَّ المتكلِّم ملتفتٌ ومُدرِكٌ لما يقول يبنون على انَّ مراده من الوصفين والإسم هو الإشارة إلى ذاتٍ واحدة، ويتمسَّكون لإحراز ذلك بقرينة أنَّ مفاد الآيات متَّحد وانَّها صدرت من متكلِّمٍ واحد عاقلٍ وملتفت وانَّ العاقل لا يُناقض نفسه فلابدَّ وانَّ يكون مراده من روح القدس هو الروح الأمين وانَّ مراده من الوصفين هو جبرئيل، خصوصاً وانَّ الوصفين قابلان للإنطباق على الإسم، فجبرئيل ملَكٌ من الملائكة فهو إذن روح،

وكونُ جبرئيل ملَكٌ معصوم فهو إذن أمين لا يكذب ولا يخون، ولأنَّه معصوم فهو مقدَّس أي مطهرٌ من المعاصي والذنوب، ولأنَّه روحٌ فهو مقدَّس ومطهَّر من القذارات التي تقتضيها المادة الكثيفة.

فالوصفان قابلان للإنطباق على جبرئيل، ومفاد الآيات متَّحدٌ من حيث أنَّها جميعاً تُخبر عن انَّ ذاتاً هي مَن نزلت على محمدﷺ بالقرآن من عند الله تعالى، والمتكلِّم عاقلٌ ملتفتٌ حريصٌ كلَّ الحرص على انْ لا يظهر في مظهر المناقِض لنفسه، ففي مثل هذا الفرض ألا يُشرف المتلقِّي لهذه الآيات على القطع بأنَّ مراد المتكلِّم من الوصفين وجبرئيل ذاتٌ واحدة؟! فأين هو التضارب إذن؟!

لو استعمل روح القدس في غير جبريل فلا يضرّ

وأما دعوى انَّ روح القدس استعمل في القرآن وأُريد منه غير جبرئيل عليه السلام فجوابه انَّ ذلك لو ثبت فإنَّه لا يمنع من إرادة جبرئيل من كلمة روح القدس في الآية من سورة النحل، فإنَّ روح القدس وصفٌ يقبل الإنطباق على أكثر من ذات، فلو قامت القرينة على انَّ المراد من روح القدس في آيةٍ من الآيات هو ذاتٌ أخرى غير جبرئيل فلا مانع من البناء على إرادتها لكنَّ ذلك لا يمنع من إطلاق وصف روح القدس على جبرئيل أيضاً وعلى ذات أخرى ثالثة ورابعة، والمعيِّن للذات التي وصفت بروح القدس هو القرائن المكتنفة لكلٍّ خطاب.

عيناً كما هو الحال فيما لو وصفنا زيداً بالحكيم فقلنا: جاء الرجل الحكيم فإنَّ ذلك لا يمنع من وصف غيره بذات الوصف، ويكون المعيِّن لمَن هو المراد من الوصف في كلٍّ خطاب هو القرائن المكتنفة بكلٍّ خطاب.

شواهد على استعمال الوصف لأكثر من ذات:

وقد اشتمل القرآن على ذلك كثيراً، فهو مثلا قد وصف نوحاً عليه السلام بالرسول الأمين في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾[1] ووصف هوداً عليه السلام بالرسول الأمين في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾[2] ووصف صالحاً عليه السلام بالرسول الأمين في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾[3] ووصف لوطاً عليه السلام بالرسول الأمين في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾[4] ووصف شعيباً عليه السلام بالرسول الأمين في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ

١- سورة الشعراء الآيتان/١٠٦-١٠٧.

٢- سورة الشعراء الآيتان/١٢٤-١٢٥.

٣- سورة الشعراء الآيتان/١٤٢-١٤٣.

٤- سورة الشعراء الآيتان/١٦١-١٦٢.

شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾[١]، فكلٌ هؤلاء الأنبياء تمَّ وصفُ كلٍ منهم بالرسول الأمين، وعرفنا مَن هو المراد في كلٍّ خطاب بواسطة القرائن المكتنفة لكلٍ خطاب.

وكذلك فإنَّ الله تعالى وصف موسى عليه السلام بالرسول الكريم في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾[٢] ووصف جبرئيل عليه السلام بالرسول الكريم في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾.

فإطلاق روح القدس على غير جبرئيل في بعض الموارد لا يمنع من إطلاق ذات الوصف على جبرئيل في مواردَ أخرى.

خلاصةٌ ومزيدُ بيان:

والمتحصَّل مما ذكرناه انَّه يكفي لنفي التضارب بين الآيات الثلاث احتمال اتَّحاد المراد من روح القدس والروح الأمين وجبرئيل وانَّ هذه العناوين الثلاثة تُشير إلى ذاتٍ واحدة، فاحتمال الإتَّحاد كافٍ للمنع من الحكم على الآيات بالتضارب كيف والأمر يتعدّى مستوى الإحتمال وينتهي إلى مستوى القطع باتَّحاد المراد بمقتضى ما هو المتسالم عليه من انَّ الذي

١- سورة الشعراء الآيتان/١٧٧-١٧٨.

٢- سورة الدخان الآية/١٧.

نزل على قلب محمدﷺ بالقرآن هو جبرئيل عليه السلام الذي عبَّرت عنه الكثير من النصوص الواردة عن الرسولﷺ وأهل بيته عليهم السلام بالروح الأمين وبروح القدس.

هذا مضافاً إلى ما ذكرناه من انَّ العقلاء إذا تلقَّوا خطابين متَّحدين في السياق والمفاد من متكلِّمٍ واحدٍ ملتفت، وكان أحد الخطابين قد أَسند الفعل إلى اسم وأَسنده الخطابُ الثاني إلى موصوفٍ دون ذكر الإسم فإنَّهم يستظهرون من مجموع الخطابين انَّ مراد المتكلِّم من الموصوف هو نفسُه المراد من الإسم في الخطاب الأول.

وهذا منطبِقٌ تماماً على الآيات الثلاث، فالآية من سورة البقرة أسندت الإنزال إلى جبرئيل: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾[١]، والآيةُ من سورة النحل أسندت الإنزال إلى روح القدس: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾[٢]، والآيةُ من سورة الشعراء أسندت الإنزال إلى الروح الأمين: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾[٣]. وفي الآيات الثلاث كان المنزَّل إليه هو النبيُّ محمدﷺ، ففي الآية من سورة البقرة: ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ وفي الآية

١- سورة البقرة الآية/٩٧.

٢- سورة النحل الآية/١٠٢.

٣- سورة الشعراء الآية/١٩٣.

من سورة النحل: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ﴾[١] وفي الآية من سورة الشعراء: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ﴾[٢] فالمنزَّل عليه في الآيات الثلاث هو النبيُّ محمد عَلَيْهِ وَآلِهِ كما هو مقتضى كاف الخطاب في الآيات الثلاث.

وفي الآيات الثلاث كان النزول بأمر الله ومن عنده، ففي الآية من سورة البقرة: ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[٣] وفي الآية من سورة النحل: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ﴾ وفي الآية من سورة الشعراء: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٤].

وفي الآيات الثلاث كان المنزَّل هو القرآن، فهو المراد من ضمير الغائب في قوله: ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ﴾ وفي قوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ﴾ وفي قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فالمُشار إليه بضمير الغائب في الآيات الثلاث هو القرآن كما يُقرُّ بذلك صاحب الشبهة، ولو قيل انَّ المُشار إليه بضمير الغائب في كلِّ آيةٍ غيرُ المُشار إليه في الآية الأخرى لما كان لدعوى التضارب من قيمةٍ أصلاً، وذلك لأنَّه سيُقال حينئذٍ انَّه لو سلَّمنا انَّ المراد من روح القدس ذاتٌ أخرى

١- سورة النحل الآية/١٠٢.

٢- سورة الشعراء الآيتان/١٩٣-١٩٤.

٣- سورة البقرة الآية/٩٧.

٤- سورة الشعراء الآية/١٩٢.

غير جبرئيل فإنَّ ذلك غيرُ ضائر، إذ لا مانع في أنَّ ينزل روح القدس على محمدٍ صلى الله عليه وآله بشيء من عند الله تعالى وينزل جبرئيل على محمدٍ صلى الله عليه وآله بشيء آخر. فصاحب الشبهة لا يسعه إلا التمسك بأنَّ المراد من المنزَّل في الآيات الثلاث هو القرآن.

وعليه فإنَّ الآيات الثلاث صادرةٌ من متكلِّمٍ واحدٍ ملتفت، وهي متَّحدة في المفاد حيثُ انَّ المقصود فيها من المنزَّل واحدٌ، وهو القرآن، وهي متَّحدةٌ في إفادة انَّ المُنزِّل منه هو الله تعالى، ومتَّحدةٌ في إفادة انَّ المُنزَّل إليه هو النبيُّ محمدٌ صلى الله عليه وآله، فلم يبقَ إلا مَن كُلِّف بالتنزيل، فإحدى الآيات ذكرته بإسمه، والآية الثانية ذكرته بوصفه وكذلك الثالثة، فحين يقع الشك في انَّ الموصوف في الآيتين هل هو ذاتُه المسمَّى في الآية الأولى أو غيره فإنَّ العرف وأهل المحاورة والعقلاء يستظهرون الإتِّحاد بين ذات المُشار إليه بالوصفين وذات المُشار إليه بالإسم.

زعمٌ لا يعنينا:

وأما ما زعمه صاحب الشبهة من انَّ الإنجيل لم يذكر انَّ جبرئيل هو ذاته روح القدس فذلك أمرٌ لايعنينا، فلهم أنْ يُطلقوا وصف روح القدس على مَن شاءوا، على انَّه قد اتَّضح مما تقدَّم انَّ إطلاق وصفٍ على ذات لا يمنع من إطلاق نفس الوصف على ذاتٍ أُخرى إذا كانت تلك الذات قابلة

للإتّصاف بذلك الوصف، فأيُّ محذورٍ في انّ يُطلق وصف روح القدس على جبرئيل وفي ذات الوقت يتمُّ إطلاق نفس الوصف على ذاتٍ أخرى؟!

ثالثاً: هل الوحي كان بالمباشرة أم بواسطة؟

بقي الكلام حول ما أورده صاحب الشبهة من انّ القرآن ذكر في سورة النجم انّ الذي أوحى للنبيّ ﷺ هو الله تعالى دون توسيط ملَكٍ من الملائكة، قال: ﴿فَأَوْحَى إلى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾(١) وهذا يتنافى بحسب زعمه مع ما ورد في القرآن من انّ النبيّ ﷺ كان يتلقّى الوحي بواسطة ملَكٍ من الملائكة.

الآيةُ لا تدلُّ على الانحصار:

والجواب انّ الآية من سورة النجم لو سلّمنا بظهورها في انّ الله تعالى قد أَوحى للنبي الكريم ﷺ دون توسيط ملَكٍ من ملائكته إلا انّها ليست ظاهرةً في الحصر وانّه لم يتمَّ الوحيُ للنبي ﷺ إلا بنحو المشافهة، فالآيةُ من سورة النجم أفادت انّ الله تعالى أوحى إلى عبده ما أوحى، أي وقع منه الإيحاء إلى عبده، فهي تُثبت صدور الإيحاء من الله إليه دون توسيط ولكنّها لا تنفي صدور الإيحاء إليه بتوسيط ملكٍ في حالاتٍ وأوقاتٍ أُخرى.

١- سورة النجم الآية/١٠.

أمثلةٌ توضيحيّة:

فسياق الآية هو سياق قولنا: إنَّ زيداً وهبَ خالداً درهماً، فإنَّ مفاد هذه الجملة هو الإخبار عن صدور الهبة للدرهم من زيدٍ إلى خالد، فهي تُثبت ذلك ولكنَّها لا تنفي أن غيره وهبه درهماً أيضاً.

فلو ورد خبران أحدُهما: انَّ زيداً وهب خالداً درهماً، والثاني: انَّ عمراً وهب خالداً درهماً، فإنَّه لا يتوهَّم أحدٌ وجود تنافٍ بين الخبرين، وذلك لأنَّ الخبر الأول لا ينفي صدور الهبة عن غير زيد وانَّ غايته إثبات صدور الهبة من زيد، وهكذا فإنَّ الخبر الثاني لا ينفي صدور الهبة عن غير عمرو وانَّ غايته هو إثبات صدور الهبة من عمرو أما نفي صدورها عن غيره فهو مالم يتصدَّ الخبر لنفيه كما لم يتصدَّ لإثباته.

وكذلك لو قيل: إنَّ السلطان بنفسه خاطب وزيره في شأنٍ من شئون الدولة، فإنَّ ذلك لا ينفي انْ يكون السلطان قد أرسل لوزيره مَن يُبلِّغه ببعض ما يتَّصل بشأنٍ من شئون الدولة في ظرفٍ آخر.

فلو ورد خبران مفاد أحدهما انَّ السلطان خاطب وزيره بنفسه في شأن من شئون الدولة، ومفاد الخبر الآخر انَّ السلطان بعث إلى وزيره مَن يُبلِّغه بأمره في شأنٍ من شئون الدولة، فإنَّ أحداً لا يجد تناقضاً بين الخبرين، وذلك لأنَّ كلَّ واحدٍ من الخبرين يُثبت أمراً لا ينفيه الآخر.

وهكذا هو الحال في العلاقة بين الآية من سورة النجم والآيات الثلاث، فإنّ الآية من سورة النجم متصدِّية لإثبات انّ الله تعالى قد أوحى بنفسه لنبيِّه محمدٍﷺ لكنّها ليست متصدِّية لنفي الإيحاء إليه بتوسيط ملَكٍ من الملائكة، فهي ليست ظاهرةً بل ولا مشعرةً بأنّ الوحي للنبيِّ محمدٍﷺ لم يكن إلا من هذا الطريق.

وبتعبير آخر: إنّ الآية من سورة النجم ليست مسوقة بلسان الحصر، لذلك فهي لا تنفي تحقُّق الإيحاء للنبيﷺ من طريقٍ آخر غير المشافهة وانّ غاية ما تقتضيه هو إثبات تحقُّق الوحي المباشر للنبيﷺ فيبقى الإيحاء له بواسطة ملَكٍ من الملائكة أمراً مسكوتاً عنه في الآية من سورة النجم، فليس فيها ما يقتضي نفيه ولا إثباته، وعليه لا تكون الآية من سورة النجم نافية لما أفادته الآيات الثلاث من تحقُّق الإيحاء للنبيِّﷺ بواسطة ملَكٍ من الملائكة.

وجهٌ آخر للشبهة: القرآن والإنحصار بالملَك:

وما قد يُقال إنّ منشأ دعوى التنافي بين الآية من سورة النجم والآيات الثلاث هو انّ الآيات الثلاث أفادت بأنّ القرآن نزل على النبيِّﷺ بواسطة الملَك، وهذا معناه انّه لم ينزل على النبيِّ من طريقِ الوحي المباشر، فالآية من سورة النجم وإنْ لم تكن ظاهرةً في الحصر ولكنّ الآيات الثلاث ظاهرةً في انّ طريق نزول القرآن منحصراً في الإيحاء بواسطة الملَك، فيكون مفاد

الآيات الثلاث نافياً لنزول القرآن من طريق آخر، ولذلك تكون الآية من سورة النجم مناقضة لمفاد الآيات الثلاث.

الردّ: ليس كلُّ الوحي قرآناً:

والجواب عن ذلك انّ الآيات الثلاث بعد التسليم بظهورها في انّ نزول القرآن كان طريقه متمحّضاً في الإيحاء بواسطة الملَك، فهي بذلك وإنْ كانت تنفي نزول القرآن عن طريق الإيحاء المباشر لكنّها لا تنفي الوحي المباشر بغير القرآن، فالوحي الذي تلقّاه النبيُّ صلى الله عليه وآله لم يكن قرآنًا وحسب، فالقرآن كان بعضَ ما أُوحي للنبيِّ محمد صلى الله عليه وآله ولم يكن هو تمام ما أُوحي إليه، لذلك قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾[1] فكلُّ ما صدر عن النبيِّ صلى الله عليه وآله من شرائعَ ومعارفَ كان وحياً من عند الله تعالى ولم يكن كلُّه قرآناً.

ولهذا ليس ثمة من محذورٍ في الإلتزام بأنّ القرآن كلّه نزل بواسطة الملَك وفي ذات الوقت نلتزم بأنّ بعض الوحي من غير القرآن كان قد تلقّاه النبيُّ صلى الله عليه وآله عن الله تعالى مشافهةً ودون توسُّط ملَك، فالآية من سورة النجم لم تقل إنّ الله قد أوحى القرآن لنبيِّه دون واسطة وإنّما أفادت أنّه تعالى قد أوحى إليه ما أوحى، فلم تتصدَ لبيان ماهيَّة ما كان قد أوحاه إليه.

١- سورة النجم الآيتان/٣-٤.

الآيةُ أساساً لا تتحدث عن القرآن!

على انَّ الآية وردت في سياق ما كان قد وقع للنبيِّصلى الله عليه وآله في المعراج، فمفادها انَّه حين عُرج به إلى السماء كان من الله تعالى أنْ أوحى إليه ما أوحى، قال تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إلى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾[1].

فالآية وردت في سياق هذه الآيات المتصدِّية لبيان ما وقع للنبيِّصلى الله عليه وآله في المعراج، فهي لم تكن بصدد الحديث عن إيحاء القرآن للنبيصلى الله عليه وآله ولم تُبيِّن ما الذي كان قد أوحاه إليه هناك، ولم تقل إنَّ ما أوحاه إليه هناك هو كلُّ ما كان قد أُوحي إليه طوال مبعثه الشريف بل إنَّ غاية ما يظهر من الآية المباركة انَّ وحياً قد تلقَّاه النبيُّ من عند الله مشافهةً حينما كان في المعراج، وأما انَّه لم يتلقَ وحياً غيره مشافهةً أو بواسطة فذلك ما لا يُمكن استفادته

١- سورة النجم الآيات/٥-١٨.

من الآية المباركة، ولهذا لا تكون هذه الآية منافية لما ورد من انَّ إيحاء القرآن للنبيِّ صلى الله عليه وآله كان بتوسُّط ملكٍ من ملائكة الله تعالى وهو جبرئيل عليه السلام.

والحمد لله رب العالمين

الشبهة الثالثة

المتشابهات لا تنفي عن القرآن وصف المُبين

الشبهة الثالثة

المتشابهات لا تنفي عن القرآن وصف المُبين

يصف القرآن نفسه في سورة النحل بقوله: ﴿وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾[١] والمبين هو الذي لا يحتاج إلى تأويل..!

لكنّه يقول في سورة آل عمران: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾[٢] ويقول: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾[٣] طيب مبين أو غير مبين، وكيف يكون مبيناً وقابلاً للتفسير وفيه آيات متشابهات؟

وإنْ لم يكن مبيناً فما الجدوى من نزوله ومَن العارف بالتأويل، ومن يقول أنَّ هذا التأويل هو السليم، وماذا لو اختلفت التآويل ...؟؟؟

١- سورة النحل الآية/١٠٣.

٢- سورة آل عمران الآية/٧.

٣- سورة آل عمران الآية/ ٧.

الجواب

المحور الأول: المتشابهات لا تنفي صفة المبين

هذه الشبهة إنَّما ترد لو كان المراد من المتشابَه في الآية المباركة هو المجمل من الكلام الذي لا يُمكن الوقوف على مراد المتكلِّم منه، فحينئذٍ يمكن القول بأنَّه إذا كان في القرآن آياتٌ مجملة ولا يمكن الوقوف على ما هو المراد منها فذلك يقتضي انْ لا يكون القرآن مُبيناً كما وصف نفسه.

إلا انَّ هذا الفهم لمعنى المُتشابَه الوارد في الآية من سورة آل عمران خاطئٌ جداً وإنْ توهَّمه البعض، فليس في القرآن آيةٌ واحدة لا يمكن الوقوف على مفادها وما هو المراد الجدِّي منها، غايته انَّ في القرآن آياتٍ كثيرة لا يُمكن الوصول إلى ما هو المراد منها بالنظر إليها مستقلَّةً عن الآيات الأخرى أو عن القرائن التي يعتمدها العقلاء للتفهيم والتفهُّم، فهي لا تستقلُّ في الدلالة على ما هو المراد منها لكنَّ هذا المراد من هذه الآيات يُصبح ظاهراً بيِّناً عند ملاحظتها منضمَّةً إلى الآيات الأخرى البيِّنة في

نفسها، أو عند ملاحظتها في سياق القرائن التي يعتمدها العقلاء في مقام التفهيم والتفهُّم.

فهذه الآيات التي لا يتبيَّن المراد منها عند ملاحظتها مستقلَّةً هي الآيات المُتشابهة، والآيات التي تكون بيِّنةَ المعنى في نفسها حتى مع قطع النظر عن الآيات الأخرى مثلاً هي الآيات المعبَّر عنها بالمُحكَمات أو بالآيات المُحكَمة.

فالآيةُ من سورة آل عمران تُرشد بعد تصنيف الآيات إلى محكمات ومتشابهات، تُرشد إلى أهمٍّ وسيلةٍ من وسائل الوقوف على ما هو المراد الجدِّي من الآيات المتشابهة، وتُشنِّع على مَن يأخذ بما يظهر بدواً من الآيات المتشابهة دون الرجوع إلى الآيات المحكمة للتثبُّت مما هو المراد الجدِّي منها، ولذلك وصفت المحكمات من الآيات بأُمٍّ الكتاب لأنَّها المرجع الأول للتعرُّف على ما هو المراد الجدِّي من الآيات المتشابهة.

فمعنى قوله تعالى: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ هو انَّ الآيات المحكمات هي الأصل والمركز الذي يلزم الرجوع إليه للتثبُّت مما هو المراد من الآيات المتشابهة التي يكون مدلولها محتمِلاً لأكثر من معنى لو قُطع النظر عن الآيات المحكمة.

وعليه فاشتمال القرآن على المتشابه من الآيات لا ينفي عنه صفة المُبين، لأنَّ الكلام المتَّصف بالمُبين -بحسب اللغة والمتفاهم العرفي- هو الكلام الذي يكون معناه واضحاً والمرادُ منه ظاهراً بقطع النظر عن انَّ الوضوح والظهور نشأ عن ملاحظة الكلام مستقًّلاً أو نشأ عن ملاحظته منضمًّا إلى كلامٍ آخر للمتكلِّم نفسه كان قد اعتمده قرينةً على مراده من الكلام اللاحق أو نشأ عن ملاحظة قرائن أخرى يعتمدها العقلاء المتكلِّمون للتفهيم والتفهم.

مثالٌ للتوضيح:

فحين يقول البائع للمشتري: بعتُك داري بألف دينار، وكان للبائع أكثر من دار فإنَّ كلامه لو لُوحظ مستقلاً فإنَّه لا يكون واضحاً، لأنَّه يحتمل في نفسه أكثر من معنى، ولكنَّ المشتري لو سُئل عن كلام البائع هل هو واضح لكان جوابه: بنعم، وكذلك لو سُئل الحاضرون مجلس البيع هل كان كلام البائع واضحاً لكان جوابهم بالإيجاب أيضاً، وذلك لأنَّ المشتري قد تقاول مع البائع في يومٍ سابق على دارٍ معيَّنة، وكذلك فإنَّ الحاضرين مجلس البيع كانوا قد سمعوا البائع والمشتري يتقاولان على تلك الدار دون سائر دوره أو انَّه كان قد أخبرهم بأنَّ سائر دوره غير هذه الدار أوقفها على ذريته، لذلك استظهر الجميع من قول البائع للمشتري: بعتُك داري بألف دينار انَّه أراد تلك الدار المعيَّنة ووصفوا كلامه بالبيِّن والواضح رغم انَّه ليس كذلك

لو كان قد لُوحظ مستقلاً، وكذلك فإنَّ البائع إنَّما سكت عن توصيف الدار التي أنشأ عليها البيع، فلم يأتِ بما يُميِّزها عن سائر دوره اعتماداً على كلامٍ سابق له.

مثالٌ آخر

وهكذا لو انَّ قانوناً في الأحوال المدنيَّة لدولةٍ من الدول مشتملاً على المواد التالية:

١- لايحقُّ للطبقة الثانية والثالثة من أقرباء الميِّت أنْ يرثوا من تركته شيئاً مع وجود واحدٍ من الطبقة الأولى.

٢- يحقُّ لأولياء القتيل التنازل عن القصاص من الجاني والمطالبة بالدية.

٣- إذا ارتكب الصبيُّ جنايةً فإنَّ الدية يستحقُّها المجنيُّ عليه أو أولياؤه على العاقلة.

فإنَّ هذه المواد الثلاث ليست بيِّنة لو لُوحظت مستقلَّةً إلا انَّه ونظراً لإشتمال القانون على موادَّ أخرى تصدَّت لبيان معنى الطبقة الأولى والثانية والثالثة، وتحديد معنى أولياء القتيل، وتفسير معنى العاقلة وبيان حدودها فإنَّ أحداً لا يصحُّ له نفي وصف الوضوح عن القانون لمجرَّد اشتماله على مثل هذه المواد التي لا يُمكن استظهار المراد منها دون الرجوع إلى موادَّ

أخرى من نفس القانون بل لايصحُّ وصف هذه المواد بالمجملة بعد أنْ كان الوصول إلى ما هو المراد منها مُتاحاً وبعد أنْ كان المشرِّع للقانون قد اعتمد في بيان مراده من هذه المواد على ما بيَّنه في موادَّ أخرى، فهذه المواد رغم عدم استقلالها في الإفادة لما هو المراد منها لكنَّها تُوصف بالواضحةِ المعنى بعد ملاحظتها منضمَّة إلى ما اعتمده المتكلِّم في بيان مراده.

القرآن اعتمد وسائل التفهيم العقلائية

وبما ذكرناه يتَّضح انَّ اعتماد المتكلِّم في بيان مراده من كلامه الفعلي على كلامٍ له سابق أمرٌ متعارفٌ يعتمده العقلاء في تفهيم مراداتهم، فهم لا يُفصِّلون في كلِّ مرة مفردات كلامهم بل يعتمدون في ذلك على ما كانوا قد بيَّنوه في كلامٍ لهم سابق ويقتصرون في كلامهم اللاحق على مالم يتم إيراده في الكلام السابق، ولولا ذلك لاحتاج المتكلِّم في كل مرةٍ إلى شرح كلِّ مفردةٍ من كلامه وماذا يقصد منها، وكذلك يعتمد العقلاء في تفهيم مراداتهم على وسائل عديدة منها القرائن العقليَّة والقرائن العقلائيَّة والقرائن الحاليَّة، ومنها المتفاهم العرفي، ومنها الكلام الذي صدر من المتكلِّم في كلامٍ له سابق، ومنها ما سوف يأتي به من إيضاح في كلامٍ له لاحق له رأى من المناسب إرجاءه ثم ضمَّه بعد ذلك إلى كلامه السابق، فكلُّ هذه وسائل عقلائية يعتمدها المتكلِّمون والمشرِّعون والمعلِّمون في بيان مراداتهم،

والقرآن الكريم جرى في تفهيم مراداته وفق الوسائل المعتمدة لدى العقلاء، ولذلك فإنَّ آيات القرآن - كما هو كلام العقلاء - منها ما لا يحتاج الفهم لمدلولها والمراد منها لأكثر من النظر في ألفاظها وتراكيبها، ومنها الآيات المحتمِلة في نفسها لأكثر من معنى ولكنَّها بيِّنة المراد عند ضمها إلى آيات أخرى أو عند ملاحظتها في إطار الوسائل العقلائية المعتمَدة في التفهيم والتفهُّم، وهذه هي التي عبَّرت عنها الآية من سورة آل عمران بالمتشابهات.

خلاصة

والمتحصَّل إنَّ اشتمال القرآن على الآيات المتشابهة لا ينفي عن القرآن صفة المُبين بعد اتِّضاح انَّ المراد من المتشابهات ليس هو ما توهَّمه صاحب الشبهة من انَّها الآيات المجملة التي لا يمكن الوقوف على مفادها والمقصود منها بل المراد من الآيات المتشابهة هي الآيات التي لا تكون بيِّنة المعنى بنفسها، فهي في نفسها محتمِلة لأكثر من معنى ولكنَّها إذا لُوحظت منضمَّةً إلى الآيات الأخرى أو إلى القرائن التي يعتمدها العقلاء في مقام التفهيم والتفهُّم فإنَّها تُصبح بيِّنة المعنى، لذلك فإنَّه ليس في القرآن ما لا يُمكن الوصول إلى معناه.

المحور الثاني: فهم القرآن و تفسيره و تأويله

هل فهم القرآن متاح؟

الوصول إلى معاني آيات القرآن ليس متعسِّراً بل هو ميسورٌ كما أفاد ذلك قوله تعالى في أربعة مواضع من سورة القمر: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾[1] نعم لا يُتاح لأحدٍ فهم معاني آياتِ القرآن دون تدبُّر، ولذلك أوصى القرآن في مواضع كثيرة بالتدبُّر في آياته كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[2] وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[3] فلو لم يكن الوصول إلى معاني القرآن مُتاحاً فما جدوى الأمر بالتدبُّر في آياته؟ على انَّ الآية الثانية واضحة في انَّ الإختلاف البدْوي بين بعض الآيات الناشئ عن كون بعضها من المتشابهات أي التي تحتمل في نفسها أكثر من معنى، هذا الإختلاف يزول بالتدبُّر، وذلك لا يتم لولا انَّ التدبُّر يُنتج الوصول إلى المرادات الجدِّية لمطلق الآيات، فالآيات إمَّا محكمة فهي بيِّنة في نفسها فلا تكون منشأً لتوهُّم الإختلاف، وإمَّا متشابهة وهي التي تحتمل

١- سورة القمر الآية/١٧، سورة القمر الآيـة/٢٢، سـورة القمـر الآيـة/٣٢، سـورة القمـر الآية/٤٠.

٢- سورة محمد الآية/٢٤.

٣- سورة النساء الآية/٨٢.

في نفسها أكثر من معنى، فهذه هي التي تكون منشأً لتوهُّم الإختلاف، فهي إذن المعنيَّة في الدرجة الأولى بالتدبُّر الرافع لتوهُّم الإختلاف، فالآية واضحةٌ في انّ الآيات المتشابهة مما يُمكن الوصول إلى مراداتها الجدِّية ولكن بالتدبُّر، نعم لا يُتاح لأيٍّ أحدٍ أن يتدبَّر آيات القرآن ما لم يملك أسباب التدبُّر فغير العارف مثلاً بعلوم اللغة العربيَّة من النحو والصرف وعلم المعاني والبيان والبديع لا يُتاح له التدبُّر المُفضي لفهم آيات القرآن المحكمة فضلاً عن المتشابهة، وكذلك فإنّ غير العارف بأصول الكلام ووسائل الإستظهار والتفهيم المعتمدة لدى العقلاء وعند أهل المحاورة لا يسعه التدبُّر المُنتِج للوصول إلى فهم كلٍّ معاني آيات القرآن، فالقرآن نزل بلغةٍ لها ضوابطها وأُصولها واعتمد طريقة العقلاء في إيصال مراداته لذلك فمن البديهي انّ لا يصل أحدٌ إلى مرادات القرآن إذا لم يكن واجداً لأسباب الوصول فإذا توفَّر الإنسان على أسباب التدبُّر ثم استفرغ وسعه وأعطى التدبُّر حقَّه فإنّ معاني الآيات المتشابهة فضلاً عن المحكمة سوف تكون في متناول فهمه، فليس في القرآن ما هو عصيٌّ على الفهم.

والذي يُؤكِّد انَّه ليس في القرآن آيةٌ مجملة بنحو لا يُمكن الوصول إلى ما هو المراد منها انّ القرآن عرض نفسه على انَّه كتاب هداية وليس كتاب طلاسم وألغاز قال تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾[1] وقال تعالى:

١- سورة الحجر الآية/١.

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ * هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1] فكلُّ آيات الكتاب لها شأنيَّة الإيصال للهداية، وكذلك عرض نفسه على انَّه حجَّة على العباد فهو حجَّة على المشركين واليهود والنصارى ومطلق الكافرين والمنافقين والفساق كما هو حجَّةٌ على المؤمنين، وذلك يقتضي أن تكون آياته بيِّنة لمن أراد تبيُّنها وإلا لم يكن حجَّة، وذلك ما يُؤكِّد انَّه لم يقصد من توصيف بعض الآيات بالمتشابهة انَّها مجملة يتعذَّر أو يتعسَّر الوصول إلى مفادها ومرادها الجدي.

ومن ذلك لايبقى لِتساؤل صاحب الشبهة عن جدوى نزول الآيات المتشابهة محل فإنَّ الغرض من نزول الآيات المتشابهة هو عينُه الغرض من نزول الآيات المُحكمَة وهو الإيصال للهداية وبيان المعارف الإلهيَّة والشرائع الدينيَّة، ذلك لأنَّ الوصول إلى ما هو المراد من كلٍّ آيات القرآن أمرٌ ممكنٌ ومتاح، فهي جميعاً قابلة للتفسير، وليس كما توهَّمه صاحب الشبهة من انَّ الآيات المتشابهة عصيَّةٌ على الفهم والتفسير، فإنَّ ذلك ليس هو معنى الآيات المتشابهة كما اتَّضح مما تقدم.

١- سورة النمل الآيتان/١-٢.

ضابطةُ فهم القرآن

وأما ضابط الوصول للفهم السليم لآيات القرآن فهو اعتماد الوسائل التي اعتمدها القرآن في إيصال مراداته، فالقرآن كان يُخاطب العقلاء عموماً، وكان قد اتَّخذ اللغة العربية وسيلةً لإيصال مراداته، ولذلك فمَن أراد الفهم لمرادات القرآن فإنَّ عليه أنْ يكون محيطاً بعلوم اللغة العربية وأُصولها وقواعدها، وكذلك لابدَّ وأنْ يكون عارفاً بأصول الكلام وأساليب الخطاب وضوابط التفهيم والتفهُّم عند العقلاء، فحينذاك سوف يكون فهمه واستظهاراته لمعاني الآيات سليماً، ووقوع الخطأ منه أو من غيره المعتمِد للضابط المذكور سوف يكون محدوداً ومتعارفاً، وسوف يكون الخطأ حين يقع ناشئاً عن غفلةٍ أو جهلٍ بوجود قرينةٍ لم يلتفت لها أو لم يعلم بها أو ناشئاً عن نسيانٍ لقاعدةٍ أو أصلٍ من أصول اللغة أو الكلام أو ناشئاً عن تسامحٍ وقلةِ تدبُّرٍ في موردٍ من الموارد أو ناشئاً عن تسرُّب العنصر الذاتي -دون التفات- المانع غالباً عن الفهم الموضوعي المعتمِد على الضوابط اللغويَّة والعقلائيَّة، فكلُّ ذلك يتَّفق للباحث عن فهم آيات القرآن ولكنَّ ذلك كلَّه لايكون موجباً لكثرة الخطأ واتِّساع الإختلاف في الفهم.

الاختلاف في تفسير القرآن

نعم يكثر الخطأ عند المفسِّرين والباحثين ويتَّسع الخلاف بينهم إذا حكَّموا مذاهبهم وأهواءهم، فما نجده من الإختلاف الواسع بين المفسِّرين

ليس منشؤه إجمال الآيات أو صعوبة الوصول إلى مراداتها بل إنَّ منشأ ذلك هو تحكيم المتمذهبين وأصحاب الأهواء لآرائهم وأهوائهم وتجيير آياتِ القرآن لما يُناسب متبنياتهم، فهم لا يبتغون من البحث في آيات القرآن الوصول إلى ما هو المراد منها وإنّما يبتغون من ذلك الإنتصار لمذاهبهم، لهذا فهم يحملون آيات القرآن على أفهامهم التي قصدوا من البحث في الآيات تشييدَها والإنتصارَ لها، وتلك هي مصيبةُ المسلمين، ولذلك حذّر الرسول صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام من تفسير القرآن بالرأي، فهو منشأ الخلاف الواسع بين المفسِّرين، ولو انّهم تجردوا عن أهوائهم واعتمدوا الوسيلة التي اعتمدها القرآن لإيصال مراداته لما كثُرَ الخطأ ولما اتّسع الإختلاف.

المراد من نفي العلم بالتأويل

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾[1] فمعناه انَّ أحداً غير الله تعالى والراسخين في العلم لا يُدرك مآلات المعاني المستفادة من آيات القرآن الكريم، فمفادات القرآن ومعانيه ومراداته وإنْ كان متاحاً لكلٍّ من تدبَّر آياته فهمُها وإدراكُها ومنها تكون الهداية وبها يكون الإحتجاج ولكن هذه المعاني والمرادات المدرَكة بواسطة ألفاظ الآيات وسياقاتها ليست هي تمام الواقع بل إنَّ لهذه المعاني والمرادات

١- سورة آل عمران الآية/٧.

القرآنيَّة مناشئ ومغزىً وملاكات، ولها منطبقات وتجليات خارجية وعواقب وآثار، فهذه هي التي لا يُحيط بعلمها إلا الله ومَن أودعهم الله تعالى أسرار آياته وهم اللذين وصفتهم الآية بالراسخين في العلم كالرسول الكريم صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام.

فليس المراد من نفي العلم بتأويل القرآن أو تأويل ما تشابه منه هو نفي العلم بمفادات القرآن ومعاني آياته أو بعضها بل المراد من الآية هو نفي العلم بمآلات هذه المعاني وهذه المرادات، وهذا هو المدلول اللغوي والعرفي لمعنى التأويل، فالتأويل مشتقٌ من الأوْل وهو يعني الرجوع، فمآل الشيء مرجعه وأصله، فإذا قيل آلت الإبل إلى مرابضها فمعنى ذلك انَّها رجعت إلى مقارِّها، ومِن ذلك إطلاق كلمة الآل على قرابة الرجل لأنَّهم أصله وإليهم يعود نسبُه.

مثالٌ للتوضيح:

وهكذا حينما يصدر عن السلطان أمرٌ بقتل زيْد فيُقال: ماهو مآل هذا الأمر السلطاني، فإنَّ السؤال هنا ليس عن مدلول ومعنى الأمر ومتعلَّقه وموضوعه فإنَّ كلَّ ذلك واضح، فإنَّ معنى الأمر هو الطلب بنحو الإلزام ومعنى متعلَّقه وهو القتل واضح أيضاً وهو إزهاق الروح وكذلك فإنَّ موضوع الأمر وهو زيد واضح أيضاً، فالأمر ومتعلَّقه وموضوعه بيِّنُ المعنى إلا انَّ الذي ليس بيِّناً ولا يعلم عنه السائل هو المغزى من هذا الأمر

والمنشأ لصدوره من السلطان، وما هو الملاك الذي يرجع إليه هذا الأمر. ففرقٌ بين السؤال عن معنى الشيء والسؤال عن مآله وتأويله، فالأول سؤالٌ عن المفاد والمؤدَّى والمراد، والثاني سؤالٌ عن المِلاك والمغزى والسِرِّ الكامن وراء هذا الشيء.

وهكذا هو الحال بالنسبة لآيات القرآن، فتارةً يكون البحث والسؤال عن معانيها وأخرى يكون السؤال عن مآلاتها، فالسؤال عن معانيها سؤالٌ عن مفاداتها ومؤدَّيات ألفاظها وتراكيبها وما هو المراد منها، وذلك يُعرَف من ملاحظة الألفاظ وتراكيبها وسياقتها والقرائن المعتمَدة عقلائياً في التفهيم، وأما السؤال عن مآلاتها فهو سؤالٌ عن مغزاها والمِلاكات التي ترجع معاني هذه الآيات إليها والمنشأ الذي كان سبباً في إيراد هذه المعاني، وهذا لايمكن الوصول إليه بواسطة ذات الألفاظ والسياقات والقرائن الكاشفة عن المعاني، فالكاشف عن المعاني والمرادات ليس هو عينُه الكاشف عن مآلاتها، وكثيراً ما تكون المعاني بيِّنة واضحة ولكنَّ تأويلها يكون مبهماً للمخاطب والمشاهد.

نماذج قرآنية لبيان المراد من التأويل

أولاً: موسى عليه السلام وتأويل الخضر عليه السلام

ولذلك فإنَّ موسى عليه السلام في الواقعة الشهيرة التي وقعت له مع العبد الصالح "الخضر" كان واضحاً لديه تفصيلاً ما كان قد فعله الخضر عليه السلام، فهو

قد شاهده وهو يخرق السفينة التي كانت لمساكين، وشاهده وهو يقتل الغلام، وشاهده وهو يُقيم الجدار في قرية أبى أصحابها أنْ يُضيِّفوهما، فما فعله الخضر عليه السلام كان مشهوداً لموسى عليه السلام إلا انَّ الذي لم يكن يعلم به موسى عليه السلام هو المغزى من هذه الأفعال، فكان سؤاله عن تأويل هذه الأفعال، ولذلك فإنَّ الخضر بعدما أوضح لموسى عليه السلام المغزى والملاك الذي نشأ عنه خرق السفينة التي كانت لمساكين والمِلاك الذي نشأ عنه قتل الغلام وإقامة الجدار بعد ان أوضح له مِلاكات هذه الأفعال قال: ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾[1].

فالذي كان يسأل عنه موسى عليه السلام لم يكن هو طبيعة ما كان يفعله الخضر فإن ذلك كان واضحاً بيِّناً، والذي لم يكن واضحاً هو المنشأ والملاك الكامن وراء هذه الأفعال، وهذا ما فهمه الخضر عليه السلام من سؤال موسى المتكرر، ولذلك أجابه الخضر بقوله: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾[2] فالتأويل هو ما كان ينتظره موسى عليه السلام من الخضر فهو الذي لم يكن مفهوماً عنده، وحين بدأ الخضر بالتأويل وجدناه قد تصدَّى لبيان المِلاكات الكامنة والباعثة على ما كان قد فعله ثم وصف هذه المِلاكات بقوله: ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ وهذا ما يكشف عن انَّ المراد

١- سورة الكهف الآية/٨٢.

٢- سورة الكهف الآية/٧٨.

من التأويل ليس هو البيان لطبيعة الفعل الذي صدر عن الخضر وإنّما هو البيان للسرّ الكامن وراء ما ظهر من فعله.

ثانياً: يوسف عليه السلام و تأويل الأحاديث

وكذلك فإنّ القرآن أفاد بأنّ الله تعالى قد منح يوسف عليه السلام تأويل الأحاديث واعتبر ذلك ميزةً اختص بها يوسف عليه السلام عن سائر الناس وانّها ثمرة اجتياء الله تعالى له، فلو كان التأويل للأحاديث معناه القدرة على فهم الأحاديث ومداليلها لما كان ذلك ميزةً يمتاز بها يوسف عليه السلام عن سائر الناس ولما ناسب أنْ تكون ثمرةً لاجتباء الله تعالى له، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾[1] وقد امتنّ الله تعالى عليه بهذه الميزة التي منحها إياه وجعلها مساوقةً لتمكينه من مُلْك مصر قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾[2] وقد كان يوسف عليه السلام يشكر ربّه على أنْ منحه هذا الامتياز كما منحه ملْك مصر: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيث﴾[3] كلُّ ذلك يؤكّد انّ علم يوسف عليه السلام بتأويل الأحاديث ليس بمعنى فهمه لمداليل الأحاديث وإنّما هو بمعنى علمه بمآلات الأحاديث والتي منها العلم بتعبير

١- سورة يوسف الآية/٦.

٢- سورة يوسف الآية/٢١.

٣- سورة يوسف الآية/١٠١.

الرؤى، فإنَّ الرؤية تكون واضحة للرائي وإذا قصَّها على أحدٍ فإنَّه يتصورها وكأنَّه قد رآها بعينه إلا انَّ الذي لا يفهمه الرائي ولا من حدَّثه برؤيته هو المغزى من تلك الرؤية والحقائق الكامنة وراء تلك الصور التي شاهدها في المنام.

فرؤية الملك البقراتِ العِجاف يأكلن بقراتٍ سِمان واضحةٌ لدى الرائي وواضحة لمَن قصَّ عليهم رؤيته إلا انَّ الذي لم يكن واضحاً هو السِرُّ الكامن وراء هذه الصورة المشاهدَة من المَلِك، وحين عبَّر يوسف عليه السلام هذه الرؤية لم يكن لتعبيره اتصال بدلالات هذه الصورة المشاهدة من المَلِك، فليس بين البقرات العجاف وسنين القحط ربطٌ ظاهر يفهمه العقلاء ويعتمدونه، كما أنّه ليس للبقرات السِمان وسنين الرخاء ربطٌ ظاهر وإلا لما تحيَّر الملك والملأُ اللذين استفتاهم في تأويلها فما وجد عند أحدٍ منهم جواباً، وكذلك ليس بين حمل الخبز على الرأس وبين قتل الرجل وصلبه وأكل الطير من رأسه ربطٌ ظاهر، ولو كان ثمة إشعار فهو خفيٌّ جداً لا يفهمه العقلاء، وذلك ما يُؤكِّد انَّ التأويل لا ربط له بمداليل الألفاظ والسياقات والقرائن العقلائيَّة، فهو لا يُعرف إلا ممَّن أورد هذه المعاني أو أحدث صورها في الذهن.

الجهل بالتأويل لا يُساوق الجهل بالقرآن

وهكذا هو التأويل لآيات القرآن فهو غير مرتبطٍ بمداليل ألفاظ الآيات والوصول إليه لا يتمُّ بملاحظتها وملاحظة السياقات والقرائن العقلائيَّة المكتنفة للألفاظ، ولذلك لا يكون الجهل بالتأويل مساوقاً للجهل بمعاني الآيات ومراداتها، فالتأويل كما أوضحنا ليس بياناً لمعاني الآيات ومراداتها حتى يكون الجهل به جهلاً بالمعاني وإنَّما هو بيانٌ للحقائق الكامنة وراء هذه المعاني أو التي هي منشأ لإيراد هذه المعاني أو التي ستتنهي إليها هذه المعاني، فعدم العلم بذلك لايعني عدم العلم بمعاني الآيات وما هو المراد منها، فحين أفادت الآية من سورة آل عمران انَّ القرآن أو ما تشابه منه لا يعلم تأويله إلا الله فإنَّ العلم المنفي عن غير الله هو العلم بأسرار الآيات وهي الملاكات التي ترجع إليها معاني الآيات وكانت منشأً لإيرادها، وأما المعاني للآيات وما هو المراد منها فذلك ما لم تتصدَّ الآيةُ من سورة آل عمران لنفيه عن غير الله والراسخين في العلم وتصدَّت الآيات الكثيرة لإفادة انَّ فهمها وإدراكها مُتاحٌ لكلِّ أحدٍ تدبَّر آيات القرآن.

خلاصة

وبما ذكرناه من معنى التأويل يتَّضح انَّ إدراكه والإحاطة به مما لا يُتاح لغير مَن أفاد هذه المعاني فهو الذي أورد هذه المعاني فهو إذن وحده الذي يعلم بمِلاكاتها ومناشئ إيرادها والحقائق الكامنة وراءها، ولا سبيل للإطلاع

على ذلك، إذ الألفاظ التي تصدَّت للكشف عن المعاني لا تصلح للكشف عن الملاكات، وليس في البين قاعدة منضبطة يمكن التوصُّل بها إلى ما وراء المعاني، فمآلات المعاني القرآنية هي من مكنون الغيب التي لايعلم بها إلا مَن أوحاها ومن أطلعهم عليها، لذلك فمن تأوَّل آيات القرآن من حدسِه فهو ممَّن يرجم في الغيب ويقول على الله تعالى ما لا يعلم.

والحمد لله رب العالمين

الشبهة الرابعة

﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾
ونوح تزوج من خبيثة؟

الشبهة الرابعة

﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ ونوح تزوج من خبيثة؟

في سورة النور يقول القرآن: : ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّأُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[1] ومعنى ذلك انَّ المرأة الخبيثة للرجل الخبيث والطيبة للطيبين.. ولكنَّ القرآن يقول في سورة التحريم: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شيئاً وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾[2] وهنا نرى انَّ الطيبَين نوحاً و لوطاً -وطيبهم وصل إلى درجة انَّهما نبيَّان- تزوَّجا من خبيثتين، ثم إنَّ المسلمين يقولون إنَّ زوجة فرعون آسية بنت مزاحم كانت مؤمنة.. ولانجد للآية الاولى أيَّ معنىً بعد ذلك.

١- سورة النور الآية/٢٦.

٢- سورة التحريم الآية/١٠.

الجواب

منشأ التوهُّم:

إنَّ توهُّم التنافي بين الآية من سورة النور والآيات من سورة التحريم نشأ عن استظهار انَّ الخبيثات والطيِّبات في قوله تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّأُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ وصفٌ للنساء وانَّ المراد من الآية هو انَّ السيئات من النساء يتزوَّجن السيئين من الرجال، والسيئون من الرجال يتزوَّجون السيئات من النساء، والخيِّرات من النساء يتزوَّجن الخيِّرين من الرجال، والخيِّرون من الرجال يتزوجون الخيِّرات من النساء.

فاستظهار هذا المعنى من الآية المباركة هو ما أوهم صاحب الشبهة وأمثاله بوجود التنافي بين هذه الآية وبين ما ورد في سورة التحريم إلا انَّ هذا المعنى غيرُ مرادٍ للآية كما سيتضح، ولو تنزَّلنا فهو لا يعدو في

أحسن حالاته الإحتمال وفي مقابلِه معانٍ أخرى محتمَلة يمكن ان يكون أحدُها هو المعنى المراد من الآية المباركة.

المعاني المحتملة:

المعنى الأول:

هو انَّ المراد من الخبيثات هو خصوص الفاجرات الزانيات وليس مطلق السيئات، والمراد من الخبيثين هم الزناة من الرجال، والمراد من الطيِّبات هو خصوص العفيفات عن الزنا من النساء، والمراد من الطيِّبين هم ذوو العفَّةِ عن الزنا من الرجال.

مناقشة الشبهة بناءً على الإحتمال الأول:

وهذا المعنى لو كان هو المراد من الآية المباركة فإنَّ الإشكال المذكور يسقط من أساسه، إذ انَّ زوجتي نوحٍ ولوطٍ صلى الله عليه وآله وإنْ كانتا من أهل الضلال إلا انَّ مما لا ريب فيه أنَّهما منزَّهتان عن الزنا كما هو شأنُ كلٍّ زوجات الأنبياء، والآيات من سورة التحريم لم تنسب إليهما الزنا وإنَّما نسبت لهما الخيانة، ومعنى الخيانة نقض العهود وتجاوز الحق.

ثم إنَّ البناء على انَّ معنى الخبيثات والطيبات هو الفاجرات والعفيفات أقربُ لسياق الآية إذا ما قيس ذلك إلى المعنى الذي ذكره صاحب الشبهة وبنى عليه شبهته، فالآية من سورة النور وقعت في سياق

آيات متصدِّية أولاً للتشنيع على مَن اتَّهم إحدى نساء النبيﷺ بالزنا، وبعد أنْ برَّأها الله تعالى في هذه الآيات من هذه الفِرية ووعظَ وأنذر عادَ فحذَّر مِن رمي المُحصنَات الغافلات بالزنا وتوعَّدهم بالعذاب العظيم يوم القيامة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾[1] وبعد هذه الآيات مباشرة قال تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ فإرادة الزانيات من لفظ الخبيثات، وإرادة العفيفات من لفظ الطيِّبات أقرب للسياق من إرادة مطلق السيئات والخيِّرات من النساء، وإرادة الزناة وذوي العفَّة من لفظي الخبيثين والطيِّبين أقربُ للسياق من إرادة مطلق السيئين والخيِّرين من الرجال.

المعنى الثاني: وهذا المعنى له تقريبان:

١- التقريب الأول:

إنَّ الخبيثات وصفٌ للكلمات والأقوال الخبيثة وليس وصفاً للنساء، والطيِّبات وصفٌ للكلمات والأقوال الطيبِّة كما وصف القرآن الكلمة

١- سورة النور الآية/٢٣-٢٥.

بالطيِّبة والخبيثة في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾[١] وقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾[٢] ووصف القول بالطيِّب في قوله تعالى: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾[٣].

وعليه فمعنى قوله تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ هو انَّ الكلمات الخبيثات والأقوال الخبيثة كالقذف والإفتراء والشتم والسباب تصدر من الخبيثين من النّاس رجالاً ونساءً، وانَّ الأقوال والكلمات الطيِّبة تصدر من النّاس الطيِّبين، ومعنى: ﴿وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ﴾ انَّ الرجال والنساء الواجدون لصفة الخبث تليق بهم الكلمات الخبيثة، وانَّ الطيِّبين من الرجال والنساء تليق بهم الكلمات الطيِّبة، وهم مبرؤون من الكلمات الخبيثة، فهم لا يتفوَّهون بالخبيثات من الكلام والأقوال.

ومنشأ البناء على إرادة الآية لهذا المعنى هو ملاحظة سياقها، فبعد أنْ حذَّر الله تعالى من رمي المحصنات وقذفهنَّ بالزنا أفاد انَّ الكلمات الخبيثات كالقذف تصدر من الخبيثين، وانَّ الخبيثين هم مَن يليقُ بهم أنْ يتفوَّهوا بالكلمات الخبيثة، فاحذروا أنْ تكونوا منهم، وانَّ الكلمات الطيِّبات تصدر من الطيِّبين، وانَّ الطيِّبين من الناس تليقُ بهم الكلمات

١- سورة إبراهيم الآية/٢٤.

٢- سورة إبراهيم الآية/٢٦.

٣- سورة الحج الآية/٢٤.

الطيِّبات فإحرصوا أنْ تكونوا منهم، فلا يصدر عنكم إلا الكلام الطيِّب، فالآية بناءً على هذا المعنى بصدد الزجر عن خُلُقٍ سيئ والحثٍّ على خُلُقٍ حسن.

٢- التقريب الثاني:

وهنا تقريبٌ آخر لهذا المعنى، وهو انَّ الأقوال والكلمات الخبيثات تُناسب وتصدق على الخبيثين من الناس رجالاً ونساءً، فهم مَن يستحقُّ الذم والوصف بالكلمات الخبيثات. ومعنى الطيِّبات للطيِّبين هو انَّ الكلمات الطيِّبات يستحقُّها الطيِّبون من الناس أي يستحقون الإطراء وانْ تُقال فيهم الطيِّبات من الأقوال.

ومنشأ البناء على هذا التقريب هو انَّ الآية واقعةٌ في سياق الآيات المتصدِّية لتبرءة إحدى نساء النبيﷺ من فِرية الزنا التي قذفها به عددٌ من المنافقين، فمفاد الآية لذلك هو التأكيد على نفي الفِرية، لأنَّها إنَّما تليق بالخبيثين من الناس، فالخبيثون هم مَن تليق بهم الخبيثات من الأقوال وتصدق عليهم، وأما الطيِّبون كنساء النبيﷺ فلهم الإطراء والطيِّبات من الأقوال والكلمات أو انَّ مفاد الآية هو التشنيع على مَن نسب الفاحشة لإحدى نساء النبيﷺ حيثُ وصفتهم الآية بالخبيثين وانَّ ما نسبوه من خبيث الكلام يليق بشأنهم، وأما الطيِّبون فيليق بهم الطيِّبات من الأقوال.

والقرينة عند القائلين بإرادة هذا المعنى بتقريبيه هو ذيل الآية المباركة، فبعد انّ قالت: ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ ذيَّلت ذلك بقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّأُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي مبرؤون من خبيثات الأقوال، فقوله: ﴿مِمَّا يَقُولُونَ﴾ قرينة على انَّ الموصوف بالخبيثات هي الأقوال والكلمات.

المعنى الثالث:

إنَّ الخبيثات وصفٌ لمطلق الأفعال والأقوال الخبيثة، وليس وصفاً لخصوص الأقوال والكلمات، والطيِّبات وصفٌ لمطلق الأفعال والأقوال الطيِّبة.

والمراد من الخبيثين والطيِّبين هم المتَّصفون من الناس رجالاً ونساءً بالخبث والمتَّصفون من الناس رجالاً ونساءً بالطيب.

وهذا المعنى وإن كان يختلف مع المعنى الثاني من جهة دعواه شمول وصفي الخبيثات والطيبات للأفعال مضافاً للأقوال إلا انَّه يتفق مع المعنى الثاني في انَّ لفظي الخبيثات والطيبات ليسا وصفا للنساء.

مناقشة الشبهة بناءً على المعنيين (الثاني و الثالث):

وعليه فبناءً على إرادة الآية لأحد هذين المعنيين فإنَّها تكون أجنبية تماماً عن موضوع الإشكال المذكور، فهي متصدِّية لبيان طبيعة ما

يستحقُّه أو يصدر أو يليق بالخبيثين من أقوال أو من أقوال وأفعال، وطبيعة ما يستحقُّه أو يصدر أويليق بالطيِّبين من أقوالٍ أو من أقوالٍ وأفعال، فالخبيثون يصدر عنهم أو يليق بهم الخبيثات من الأقوال والأفعال، والطيِّبون يصدر عنهم أو يليق بهم الطيِّبات من الأقوال والأفعال. وأما انَّ الطيِّبين هل يتزوَّجون بغير الطيِّبين، والخبيثون هل يتزوَّجون بغير الخبيثين فذلك أجنبيٌّ عمَّا سِيقت الآية لبيانه بناءً على المعنيين الثاني والثالث.

مناقشة عامة للشبهة:

أولاً: المعاني المحتمَلة تمنع من الأخذ بالمعنى المناقض:

فهذه معانٍ ثلاثة محتمَلة مضافاً للمعنى الذي بنى عليه صاحب الشبهة إشكاله، وبه يكون ما ذكرناه من المعاني المحتمَلة لمفاد الآية أربعة، وحينئذ كيف يصحُّ الحكم بمناقضة الآية من سورة النور للآيات من سورة التحريم؟ والحال انَّ الحكم بالتناقض بين كلامين فرعُ الجزم بما هو المراد منهما، وأما في فرض احتمال الكلامين أو أحدهما لأكثر من معنى فإنَّ الإصرار على انَّ المتكلِّم أراد المعنىِ الذي يلزم منه التناقض بين كلاميه يكون من التعسُّف الذي يتنزَّه عنه العقلاء من ذوي الإنصاف والموضوعيَّة.

فإنَّ طريقة العقلاء في حال التلقِّي لكلامين يَحتمِل أحدُهما أو كلاهما أكثر من معنى هو الإستيضاح من المتكلِّم إنْ أُتيح لهم ذلك وإلا فإنَّهم يستبعدون الإحتمال الذي يلزم من إرادته التناقض بين الكلامين، فيجعلون من استلزام إرادة ذلك المعنى للتناقض قرينةً على عدم إرادة المتكلِّم له.

أمثلةٌ توضيحيَّة:

١- مثالٌ عرفي:

فلو انَّ أحدهم قال: إنَّه لا يشرب المسكر مطلقاً ولو بمقدارٍ يسير، ثم قال للمخاطَبين أنفسهم في مجلسٍ آخر: إنَّه يتناول الشراب مع رفاقه، فإنَّ العقلاء يحتملون بدْواً انَّ مراده من الشراب هو المسكر ويحتملون أيضاً انَّه قصد من الشراب غير المسكر من سائر الأشربة لكنَّهم يستظهرون عدم إرادته للمسكر، لأنَّ حمل كلامه على إرادة المسكر من لفظ الشراب يستلزم البناء على وقوع التناقض بين كلاميه، لذلك فهم يطرحون هذا الإحتمال وينفون إرادة المتكلِّم له.

٢- مثالٌ علمي:

وهذه الطريقة في التعاطي مع الخطابات الصادرة من متكلِّمٍ واحد والمحتمِل بعضها لأكثر من معنى هي المعتمَدة عند شرَّاح النصوص العلميَّة والنصوص المرويَّة عن الشخصيات التاريخيَّة، فلا يحملون

كلامهم على التناقض إذا كان محتمِلاً لأكثر من معنى وكان أحد المعاني المحتمَلة لا يستلزم التناقض.

٣- مثال قانوني:

وكذلك يعتمد هذه الطريقة فقهاءُ القانون حين يكونون بصدد التفسير لمواد قانونٍ معيَّن، فإذا وردت مادّتان من قانونٍ واحد، وكانت إحدى المادّتين محتمِلة لأكثر من معنى، وكان أحد هذه المعاني المحتمَلة مستلزماً للتناقض مع صريح أو ظاهر المادّة الثانية فإنَّهم يستبعدون الإحتمال المُستلزِم لتناقض تلك المادّة مع المادّة الثانية، ويبنون على عدم إرادة مشرِّعي القانون لذلك الإحتمال، ثم إنْ كان الباقي بعد استبعاد الإحتمال المستلزِم للتناقض احتمالاً واحداً فإنَّهم يستظهرون تعيُّن إرادة المتكلِّم له، وإنْ كان الباقي أكثر من احتمال فإنَّهم حينئذٍ يبحثون عمّا هو المُستظهَر من خلال ملاحظة القرائن اللفظيَّة والمقاميَّة والعقلائيَّة، فإنْ وجدوا ما يُوجب استظهار أحد المعاني كان هو المتعيَّن وإلا حكموا بإجمال النص وتوقَّفوا عن تفسيره.

٤- مثال قضائي:

وكذلك فإنَّ هذه الطريقة هي المعتمَدة عند القضاة المتصدِّين للنظر في الوثائق والوصايا والخصومات الماليَّة والجنائيَّة، فمثلاً إذا وردت وصيَّتان لميِّتٍ في وثيقة واحدة، فكان المدوَّن في الوصيَّة الأولى انَّ ثلث

ماله لأعمال البِر والإحسان، وكان المدوّن في الوصيَّة الثانية انَّ ثلث مايملكه من أعيان لبناته دون البنين، وحيث انَّ الوصية لا تنفذ إلا في الثلث من التَرِكة كما هو معلوم، لذلك لو كان مراد الميِّت من المال في الوصيَّة الأولى هو مطلق المال من النقود والأعيان الثابتة والمنقولة لكان بين الوصيتين تناقض، لأنَّه أوصى بناءً على هذا الإحتمال بثلث جميع المال الشامل للنقود والأعيان لأعمال البِر والإحسان، فجميع الثلث مستوعبٌ لهذه الجهة وإنفاذ الوصية بناءً على هذا الإحتمال يقتضي حرمان البنات من ثلث الأعيان الموصَى بها لهن في الوصيَّة الثانية، ولو أُعطي البنات ثلث الأعيان لكان مقتضى ذلك عدم إنفاذ الوصيَّة الأولى، لأنَّ مفادها بناءً على الإحتمال المذكور هو صرف ثلث جميع المال من النقود والأعيان على أعمال البِر والإحسان، وإعطاء ثلث الأعيان لبنات الميِّت معناه عدم صرف الثلث من جميع مال الميِّت على أعمال البِر والإحسان وإنَّما هو صرف جزءٍ من مال الميِّت، وهو خلاف الوصية الأولى بناء على الإحتمال المذكور.

فهنا هل يقال إنَّ الميِّت قد ناقض نفسه رغم انَّ الوصية الأولى تحتمل أكثر من معنى؟! أو انَّ القضاة في مثل هذا الفرض يطرحون الإحتمال المستلزِم للتناقض ويبنون على انَّ مراد الميِّت من المال في الوصيَّة الأولى هي النقود بإعتبار انَّ ذلك هو الإحتمال الذي لا يستلزم التناقض بين الوصيتين.

ثانيا: المعنى الوارد في الشبهة لا يستلزم التنافي بين الآيات!

لو سلَّمنا انَّ المتعيَّن من مفاد الآية هو انَّ الخبيثات وصفٌ للنساء الواجدات لصفة الخبث بمعناه الواسع الشامل لمثل الكفر والفسوق وانَّه لايختصُّ بالفاجرات الزانيات من النساء، وسلَّمنا بانَّ الطيِّبات وصفٌ للنساء الطاهرات النقيّات من الفسوق والكفر فإنَّ دعوى التنافي بين الآية من سورة النور والآيات من سورة التحريم إنَّما تتجه لو كانت الآية من سورة النور بصدد نهي الطيِّبين عن الزواج من غير الطيِّبات، ونهي الطيِّبات عن الزواج من غير الطيبين، ففي مثل هذا الفرض يرد الإشكال بأنَّه إذا كان الزواج من غير الطيِّبات منهيًّا عنه فلماذا تزوَّج نوحٌ ولوطٌ عليهما السلام وهما نبيّان من امرأتين كانتا من أهل الضلال.

وكذلك يرد الإشكال لو كانت الآية من سورة النور بصدد الإخبار عن واقعٍ خارجي مفاده انَّ الخبيثات لا يتزوَّجن إلا من الخبيثين وكذلك العكس، والطيِّبات لا يتزوَّجن إلا من الطيبين وكذلك العكس، فلو كانت الآية بصدد البيان لذلك لأمكن النقض عليها بزواج نبيٍّ الله نوح من إمرأةٍ خبيثة وزواج آسية بنت مزاحم من رجلٍ خبيث وهو فرعون.

فلو كانت الآية بصدد البيان لأحد هذين المفادين لكان الإشكال بالتنافي بينها وبين ما ورد في سورة التحريم متَّجهاً إلا انَّ الواضح أنَّها ليست بصدد النهي ولا هي بصدد الإخبار عن واقعٍ خارجي.

الآية ليست بصدد النهي عن الزواج:

أمَّا انَّها ليست بصدد النهي فلأنَّها لو كانت كذلك لكانت الفقرة الأولى وهي قوله تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ﴾ بلا موجب وبلا مبرر، إذ يكفي لإفادة النهي عن تزوُّج الطيِّبات بغير الطيبين والعكس أن يقول: ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ ويقصد انَّ الطيبات لا يتزوَّجن بغير الطيبين أي يحرم على الطيبات التزوُّج من غير الطيبين، ويحرم على الطيِّبين التزوُّج بغير الطيبات، فالفقرة الأولى بناءً على ذلك تكون لاغية وبلا موجب إلا أنْ يُقال إنَّ القرآن قصد منها نهي الخبيثات عن التزوُّج بغير الخبيثين وأمرهنَّ بالزواج من الخبيثين، وكذلك العكس.

خطابٌ لا يتفوّه به عاقل!

ولا أظن انَّ أحداً يقبل على عاقلٍ أنْ يخاطب امرأةً وينتظر امتثالها بقوله: ياخبيثة لا تقبلي زواجاً إلا من خبيثٍ مثلك وإيَّاك والزواج من غير خبيثٍ أو يخاطب رجلاً بقوله: ياخبيث ابحث لك عن خبيثةٍ وتزوَّج منها وإيَّاك والتزوُّج من غير خبيثة. إنَّ خطاباً من هذا القبيل لا يليق صدوره من عاقل، فهو خطاب ليس قابلاً للإمتثال، لذلك فهو من نقض الغرض، والعاقل لا ينقض غرضه، فإذا كان مريداً لامتثال أمره ونهيه كما هو الفرض فإنَّه لا يُورد خطابه بهذا اللسان.

الآية ليست بصدد الإخبار عن واقعٍ خارجي:

ولهذا فالآية ليست بصدد إنشاء النهي أو الأمر، وكذلك هي ليست بصدد الإخبار عن واقعٍ خارجي مفاده انّ الخبيثات من النساء لا يتزوَّجن مطلقاً إلا من الخبيثين من الرجال وهكذا العكس، والطيِّبات من النساء لا يتزوَّجن مطلقاً إلا من الطيبِّين من الرجال، فإنّ ذلك مخالفٌ بالبداهة للواقع الخارجي المشهود وجداناً لكلٍّ عاقل، فما من أحدٍ إلا وقد شاهد أو علم انّ الكثير من الخبيثات تزوَّجن من طيِّبين، وانّ الكثير من الطيِّبات تزوجن من خبيثين وكذلك العكس، فالملازمة الخارجيَّة بين خبث الزوجة وخبث الزوج وبين طيبة الزوجة وطيبة الزوج مقطوعة الفساد، ولا يصح لمنصفٍ أنْ ينسب لعاقل التفوُّه بمثل هذه الملازمة الباطلة.

هذا وقد أخبر القرآن انّ من الزوجات عدوّات لأزواجهم و أمر بالحذر منهن في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾[1] فكيف يستقيم القول بأنّ الآية أرادت الإخبار بأنّ كلّ زوجٍ طيِّب فزوجته طيِّبة، مع قوله مخاطباً المؤمنين: انّ في الزوجات مَن هنّ عدوّات لأزواجهم المؤمنين؟!

١- سورة التغابن الآية/١٤.

وكذلك فقد أباح الله تعالى للمؤمنين الزواج من نساء اليهود والنصارى في قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾[1] فهذه الآية صريحةٌ في إباحة أنّ يتزوَّج المؤمنون من نساء أهل الكتاب، ولذلك فالكثير من المسلمين تزوَّجوا بالكثيرات من نساء أهل الكتاب، ولا ريب في انَّ أهل الكتاب محكومون بالكفر والضلال ورغم ذلك أُبيح الزواج من نسائهم، وذلك ما يؤكِّد عدم إرادة الآية من سورة النور لإفادة انَّ كلَّ خبيثةٍ فهي لا تتزوَّج إلا من خبيث، وانَّ كلَّ طيبٍ فهو لا يتزوَّج إلا من طيِّبة، فإنَّ هذا المعنى غير مرادٍ قطعاً من الآية كما تبيَّن مما ذكرناه.

بيان مراد الآية بناءً على المعنى الوارد في الشبهة:

١- التقريب الأول

وعليه فمعنى الآية بناءً على انَّ الخبيثات والطيِّبات وصفٌ للنساء الواجدات لصفة الخبث والطيبة هو انَّ الخبيثات من النساء يَمْلن بمقتضى طبعهنَّ لمَن يشاكلهنَّ من خبيثي الرجال، وانَّ الخبيثين من الرجال يميلون للخبيثات من النساء بمقتضى خبثهم، فهم يألفون

١- سورة المائدة الآية/٥.

ويأنسون بهذا الصنف من النساء كما يألف ويأنس كلٌ ذي صنفٍ إلى بني صنفه، وهكذا فإنّ الطيِّبات يرغبن في الإقتران بالطيِّبين من الرجال وكذلك العكس، فمساق الآية هو مساق المثل العربي القائل: "إنّ الطيور على أشكالها تقعُ" ولذلك فالآية تستبطن ذمّاً للخبيثات والخبيثين ومدحاً للطيِّبات والطيِّبين، بمعنى انّ هذه المرأة لم ترغب في هذا الخبيث إلا لكونها خبيثةً مثله غالباً وكذلك العكس، وانّ هذه المرأة لم ترغب في الإقتران بهذا الطيِّب إلا لأنّها طيِّبةٌ مثله.

وبهذا يتبيِّن انّ الإشكال الذي ذكره صاحب الشبهة لا يرد حتى بناءً على القبول بما التزم به من انّ الخبيثات والطيِّبات وصفٌ للنساء الواجدات لصفة الخبث والطيبة، فإنّ ميل المرأة الخبيثة للخبيث من الرجال لا يعني انّها لا تختار رجلاً طيباً مطلقاً، وكذلك فإنّ الرجل الخبيث وإنْ كان يشعر بأنّ المرأة المشاكلة له في الخبث أوفقُ لمزاجه وطبعه من المرأة الطيِّبة ولكنّه رغم ذلك قد يُقدم على الزواج من المرأة الطيِّبة، وهكذا الحال بالنسبة للطيِّبات والطيِّبين، فزواج الطيِّبة من الخبيث والطيِّب من الخبيثة يخضع لعوامل كثيرة، فلا تكون الرغبة والميل النفساني هو المحكّم دائماً في الإختيار والقبول، فقد ينشأ الإختيار وكذلك القبول نتيجة توهُّم المماثلة والمشاكلة في الطباع ثم يتبيَّن الخلاف فيصبر كلٌ منهما على صاحبه، وقد تترجَّح بعض العوامل على الرغبة النفسية كالطمع في المال أو الجاه، وقد تكون الظروف القاهرة

كالغربة أو الإستضعاف أو الأعراف الإجتماعيَّة أو العائليَّة هي منشأ الإختيار أو القبول.

والمتحصَّل انَّ الآية لا تقول إنَّ الطيب لا يتزوَّج من خبيثة حتى يقال لماذا تزوَّج نوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ من امرأةٍ خبيثة، ولا تقول إنَّ الطيِّبة لا تتزوَّج خبيثاً حتى يقال لماذا تزوَّجت آسية بنت مزاحم من فرعون وهو خبيث، فإنَّ غاية ما تقتضيه الآية هو انَّ الطيب لا يرغب في الخبيثة ولا يألفها ولا يأنس بها وذلك لا يعني أنه لا يتزوَّجها لسببٍ يراه راجحاً وموجبا للتضحية بالأنس والألفة، وهكذا بالنسبة للمرأة الطيِّبة فإنَّها وإنْ لم تكن ترغب في الإقتران بالرجل الخبيث ولكنَّها قد تقبله زوجاً لسببٍ تراه راجحاً ومقتضياً لتجاوز الرغبة النفسيَّة.

٢- التقريب الثاني

ويُمكن ان يقرَّب معنى الآية بناء على ما يلتزم به صاحب الشبهة من انَّ الخبيثات والطيبات وصفٌ للنساء الواجدات لصفة الخبث والطيبة بتقريبٍ آخر وهو انَّ المرأة الخبيثة يليق بها الرجل الخبيث، والخبيث من الرجال تليق به الخبيثة من النساء، والطيِّبة من النساء يليق بها الرجل الطيِّب، والطيِّبُ من الرجال تليق به المرأة الطيبة.

فالآية بناءً على هذا التقريب بصدد التقرير لحقيقة دينيَّة مفادها انَّ الخبث يمنع الواجد له من أنْ يكون لائقاً وجديراً بالزواج ممَّن هو

طيب، وانَّ الواجد لوصف الطيبة مؤهلٌ وجديرٌ بالإقتران والزواج ممن هو طيِّب مثله، فيكون مؤدَّى الآية المباركة هو انَّ المرأة الخبيثة ليست كفؤاً للطيِّب من الرجال، فهي لا تستحقه ولا تليق به في المنظور الديني، والرجل الخبيث ليس كفؤا للمرأة الطيِّبة، فهو لا يستحقها ولا يليق لضعته بشأنها، فكفؤ الطيِّب هي المرأة الطيبة، وكفؤ الطيِّبة هو الرجل الطيِّب، وأما الخبيثة فشأنها الرجل الخبيث، فهو كفؤٌ لها وهي كفؤٌ له.

والواضح انَّ الإشكال لا يرد على هذا التقريب أيضاً، إذ انَّ زواج نوحٍ عليه السلام من امرأةٍ خبيثة لا يعني سوى تزوُّج رجلٍ طيِّب من امرأةٍ ليست كفؤاً له، فهي لا تستحقه ولا تليق به، وكذلك فإنَّ زواج آسية بنت مزاحم من فرعون لا يعني سوى تزوُّج امرأةٍ طيِّبة من رجلٍ ليس كفؤاً لها، لذلك فهو لا يستحقها ولا يليق لخبثه بشأنها، فنلتزم انَّ هؤلاء الطيبين تزوَّجوا من هؤلاء الخبيثين ونلتزم في ذات الوقت انَّ هؤلا الخبيثين لا يليقون وليسوا أكفاء لهؤلاء الطيبين، والإلتزام بذلك ممَّا لا ضير فيه، إذ لم تقل الآية من سورة النور انَّ المرأة الخبيثة لا تتزوَّج إلا بخبيثٍ مثلها وإنَّما أفادت انَّ المرأة الخبيثة لاتليق إلا بخبيثٍ مثلها، وكذلك لم تقل الآية انَّ الطيبة لا تتزوَّج إلا بطيبٍ مثلها وإنَّما أفادت انَّ الطيِّبة لا تليق إلا لطيِّبٍ مثلها، وعدم اللياقة والكفاءة لا تعني ولا تقتضي عدم وقوع التزاوج بين غير المتكافئين، فكثيراً ما يتَّفق أنْ يحظى الوضيع بمَن لا يليق بها ويبتلي الشريف بما يُحتِّم عليه الإقتران بمَن هي دونه بل

بمَن هي فاقدة لكلٍّ كمال وواجدة للعديد من الخصال الذميمة، كذلك كان نوحٌ ولوط وكانت آسيةُ بنت مزاحم فصبروا على ما ابتلوا به.

والحمد لله رب العالمين

الشبهة الخامسة

الحروفُ المقطَّعة
لا تنفي عن القرآن وصف المُبين

الشبهة الخامسة

الحروفُ المُقطَّعة لا تنفي عن القرآن وصف المُبين

وصفَ القرآنُ نفسه في سورة النحل بقوله: ﴿وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾[1] لكنَّه كم من الآيات ما هو ليس مبيناً مثل: الم – ألر – كهيعص – طه ... الخ، فهل هذا مبين يا ترى ...؟؟

١- سورة النحل الآية/١٠٣.

الجواب

تمهيد:

إنَّ نفيَ صفةٍ عن شيء لا يصحُّ إلا في فرض قابليَّة ذلك الشيء للإتِّصاف بتلك الصفة، وأما في فرض عدم قابليَّة ذلك الشيء للإتِّصاف بتلك الصفة فإنَّ نفيها عنه يُعدُّ بنظر العقلاء والمناطقة غلطاً، فوصف الحكيم لا يصح نفيه عن الحيوان فيقال: إنَّ هذا الحيوان ليس حكيماً، وكذلك لا يصحُّ أنْ يُقال هذا الجدار ليس حكيماً، وذلك لأنَّ كلاً منهما ليست له القابليَّة للإتِّصاف بوصف الحكيم حتى يصحَّ نفي هذا الوصف عنهما، وهذا بخلاف الإنسان فإنَّه حيثُ كان قابلاً للإتِّصاف بوصف الحكيم لذلك يصحُّ نفي هذه الصفة عنه في فرض عدم تلبُّسه بها.

وكذلك هو الشأن في نفي وصف المُبين عن شيء فإنَّه لا يصحُّ إلا في فرض قابليَّة ذلك الشيء لأنْ يُوصف بالمُبين، فمثل الكلام الموضوعةِ ألفاظهُ لمعنىً لمَّا كان قابلاً لأنْ يكون مُبيناً لذلك يصحُّ نفي وصف المبين عنه في فرض إجماله وتحمُّله لأكثر من معنى، فقابليَّة الكلام لأنْ يكون

مبيناً هو الذي صحَّح نفي صفة المبين عنه في فرض إجماله وعدم وضوحه.

وأما الشيء غير القابل لأنْ يُوصف بالمبين فإنَّه لا يصحُّ نفيُ وصف المبين عنه، فالحجر مثلاً لمَّا لم يكن قابلاً للإتِّصاف بالمبين لذلك لا يصحُّ نفي وصف المبين عنه فيقال: هذا الحجر غير مبين.

ما هو الموصوف بـ(المبين)؟

ومع اتَّضاح هذه المقدِّمة يتَّضح انْ وصف المبين في مثل قوله تعالى: ﴿وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ لا يتناول الحروف المقطَّعة التي تصدَّرت عدداً من سور القرآن، لأنَّ الحروف المقطَّعة ليس لها قابليَّةُ الإتصاف بوصف المبين لذلك لا يصحُّ نفيُ هذا الوصف عنها، فهي إذن غير مقصودةٍ من هذا الوصف أساساً.

فوصف المبين إثباتاً ونفياً إنَّما يصحُّ إطلاقه على الكلام الموضوع للدلالة على معنى، فهذا الكلام تارةً يكون واضح الدلالة على معناه فحينئذٍ يُوصف بالمبين، وتارةً تكتنف الكلام الموضوع لمعنىً بعضُ الملابسات فيُصبح مجملاً أي محتمِلاً لأكثر من معنى عند المخاطب فهذا الكلام يصحُّ نفيُ وصف المبين عنه لأنَّه قابلٌ لأن يكون مبيناً ولكنه اتَّفق إجماله فصحَّ سلب صفة المبين عنه.

الحروف المقطّعة لا هي متشابهة و لا موضوعة لمعنى:

وأما الحروف المقطَّعة فهي لم تُوضع أساساً للدلالة على معنىً من المعاني، لذلك فهي غير قابلة للإتّصاف بالمبين حتى يصحَّ نفي وصف المبين عنها في فرض إجمالها، فالحروف المقطَّعة في أيٍّ حالٍ فُرضت ليس لها معنى، ولذلك فهي لا تُعدُّ من الآيات المتشابهة أيضاً لأنَّ الآيات المتشابهة هي الآيات التي لها معنى ولكنَّها لا تستقلُّ بالدلالة عليه بل لابدَّ من الرجوع إلى آياتٍ أخرى أو إلى القرائن المكتنفة بالآية للوقوف على ما هو المراد الجدّي منها كما أوضحنا ذلك مفصَّلاً في بحث: "المتشابهات لا تنفي عن القرآن وصف المبين".

فالآيات المتشابهة لها معنىً في نفسها إلا انَّ وسيلة الوقوف عليه يكون بمراجعة الآيات الأخرى والقرائن المكتنفة لها والمعتمَدة لدى العقلاء، وأما الحروف المقطَّعة فلم تُوضع لمعنىً أساساً، لذلك فهي كما لا تُوصف بالبيِّنة كذلك فهي لا تُوصف بالمتشابهة وبغير البيِّنة، فالذي يصحُّ وصفه بكِلا الوصفين هو الكلام الموضوع للدلالة على معنى، فإنَّه تارةً يكون ظاهراً في معناه، وتارةً يكون مجملاً، لذلك يصحُّ وصفه في الفرض الأول بالمبين ويصحُّ نفيُ وصف المبين عنه في الفرض الثاني.

وصف القرآن بالمبين لا يُنقَض عليه بالحروف المقطَّعة

ومن ذلك يتبَّين انّ وصف المبين لا يتناول الحروف المقطَّعة، فهي غير معنيَّة بهذا الوصف أساساً لعدم قابليَّتها للإتَّصاف به أو بعدمه، ولهذا لا يصحُّ النقض على مثل قوله تعالى: ﴿وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ بالحروف المقطَّعة وإنْ كانت الحروف المقطَّعة من آيات القرآن، فالمقام أشبهُ شيء بوصف السراج بالمنير، فإنَّ هذا الوصف لا يتناول مثل فتيلة السراج ولا يتناول وقوده أو زجاجته، وذلك لعدم قابليتها للإتَّصاف بوصف المنير، ولذلك لا يصحُّ النقض على هذا التوصيف بأنَّ فتيلة السراج ووقوده وزجاجته ليست منيرة، فإنَّ هذه الأجزاء وإنْ كانت من السراج إلا انَّها ليست معنيَّة بوصف المنير لعدم قابليَّتها للإتَّصاف بوصف المنير أساساً حتى يصحَّ سلب هذا الوصف عنها، فوصف السراج بالمنير يكون صحيحاً وغير منتقِض وإن كانت بعض أجزائه غير قابلة للإتَّصاف بوصف المنير، وكذلك فإنَّ وصف القرآن بالمبين صحيح وغير منتقِض وإنْ كان من آياته الحروف المقطَّعة غير القابلة للإتَّصاف بالمبين، نعم يُمكن الإدّعاء بصحة النقض لو كانت بعض آيات القرآن -التي لألفاظها ومركباتها معنى- غير مبينة، وذلك لأنَّها قابلة للإتصاف بهذا الوصف، فتكون مقصودة من توصيف القرآن بالمبين، فلو اتَّفق أنَّها لم تكن واجدةً لصفة المبين فإنَّه يمكن النقض بها على توصيف القرآن نفسه بالمبين إلا انَّه ليس في آيات

القرآن التي هي من هذا القبيل -والتي هي كلُّ القرآن ما عدا الحروف المقطّعة- ليس فيها ما يصحُّ سلب وصف المبين عنها، فهي جميعاً واجدةٌ لوصف المبين كما أوضحنا ذلك في بحث: "المتشابهات لا تنفي عن القرآن وصف المبين".

والمتحصَّل انَّ الحروف المقطَّعة التي تصدَّرت عدداً من سور القرآن لا تصلحُ نقضاً على وصف المبين الذي وصف به القرآن نفسه،-لأنَّ الحروف المقطَّعة ليست معنيَّة ولا مقصودة من هذا الوصف أساساً.

مزيدُ توضيح:

وبتعبير آخر: إنَّ المراد من وصف القرآن ومطلق الكلام بالمبين هو انَّه واضح المعنى، وهذا يقتضي انْ يكون له معنىً حتى يتأهَّل لوصفه بالمبين تارةً وبغير المبين تارةً أخرى، وأما إذا لم يكن ثمة معنىً يكشف عنه اللفظ لأنَّه لم يوضع أساساً للكشف والدلالة على معنىً من المعاني فما هو الشيء الذي يوصف حينئذٍ بالمبين أو غير المبين؟ فألفاظ الحروف المقطَّعة ليست دالَّة ولا كاشفة عن معنىً من المعاني حتى يصحَّ وصف هذه الدلالة وهذه الكاشفيَّة بالبيِّنة تارة وبغير البيِّنة تارةً أخرى. ومن هنا قلنا انَّ وصف المبين الوارد في مثل قوله تعالى: ﴿وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ مختص بالآيات التى لألفاظها ومركَّباتها معنىً وُضعت للدلالة عليه، وهذه الآيات هي كلُّ القرآن ما عدا آيات الحروف المقطَّعة التى هي أربعة عشر

حرفاً تكرَّر بعضها وتصدَّرت تسعة وعشرين سورةً من سِوَر القرآن، وذلك في مقابل أكثر من ستة آلاف ومائتين آية بيِّنة.

إشكالٌ جانبي:

ولو قيل انَّه إذا لم يكن للحروف المقطَّعة معنىً قد وُضعت له فإنَّ إيرادها في مطلع هذا العدد من السور يُعدُّ من العبث!!

الجواب:

فإنَّ جواب ذلك هو انَّنا لم نقل انَّ إيراد الحروف المقطَّعة لم تكن له غايةٌ وغرض حتى يُتوهَّم استلزام ذلك لعبثيَّة إيرادها في مطلع عددٍ من السور، نعم نحن قلنا إنَّ الحروف المقطَّعة ليست موضوعة لمعنىً من المعاني ولذلك لايصحُّ وصفها بالمبين او سلب وصف المبين عنها إلا انَّ عدم كون الحروف المقطَّعة موضوعةً لمعنىً من المعاني لا يقتضي صيرورة ذكرها بلا غايةٍ وغرضٍ عقلائي، فهي وإنْ كانت غير موضوعةٍ لمعنى إلا انَّه كثيراً ما يتَّفق اقتضاء العديد من الغايات العقلائية لذكرها وتدوينها، فالعقلاء مثلاً يستعرضون حروف الهجاء لغرض التعليم أو التنويه على انَّ هذه هي الحروف التي تتألف منها مفردات الكلام العربي أو يذكرونها لغرض التثبُّت أو التصنيف لمخارجها الصوتيَّة أو بيان كيفيَّة رسمها أو غير ذلك من الغايات العقلائيَّة، فكون هذه الحروف غير موضوعةٍ لمعنى لا يُلغي وجود غاياتٍ عقلائيَّة لذكرها وتدوينها، ولذلك لايصحُّ الحكم بعبثيَّة

ذكرها أو تدوينها حين صدورها عن عاقلٍ مُلتفِت حتى لو فُرض عدم الإدراك لما هو غرض هذا العاقل من ذكرها، فمجرَّد عدم الإدراك لطبيعة غرض العاقل من فعله لا يُصحِّح بنظر العقلاء الحكم بعبثيَّة فعله وإلا ساغ لكلٍّ أحدٍ الحكم بسفهيَّة ما يفعله الآخرون لمجرَّد عدم الوقوف على غاياتهم مِمَّا فعلوه، ولكان على كلٍّ أحدٍ يخشى من الإتِّهام بالعبثيَّة والسَفَه أنْ يكشف لكلٍّ الناس عن الغايات والأغراض التي نشأت عنها أفعالُه، وهذا ما لا يلتزم به منصفٌ يحترم عقله، فما عليه العقلاء هو انَّهم حين يقفون على فعلٍ صدَر عن عاقلٍ ملتفت وكان هذا الفعل ممَّا يُحتمل في مثله صدوره لغرضٍ عقلائي، انَّ ما عليه العقلاء في مثل ذلك هو انَّهم يستظهرون وجود غرضٍ عقلائي نشأ عنه صدور هذا الفعل حتى وإنْ كانوا لا يعرفون تحديداً ما هو ذلك الغرض، وإنْ لم يستظهروا ذلك فلا أقل من أنَّهم يُحجِمون، فلا يحكمون على فعله بالعبثيَّة، نعم لو كان الفعل ممَّا لا يُتعقل في مثله الصدور عن غرضٍ عقلائي فإنَّهم يحكمون بعبثيَّته دون تحرُّجٍ خصوصاً إذا أساؤوا الظنَّ بفاعله. وأما في فرض كون الفعل الصادر مما يُحتمل في مثله الصدور عن غرضٍ عقلائي كما في المقام فإنَّ الحكم بعبثيَّته يكون مجافياً لما عليه بناء العقلاء.

والذي يُؤيِّد تفهُّم أعداء الإسلام في صدر الدعوة من المشركين وعرب اليهود وغيرهم لوجود غايةٍ عقلائية من ذكر الحروف المقطَّعة هو سكوتهم

عن التسفيه لذلك رغم حرصهم الشديد على التصيُّد لأيٍّ ثغرةٍ يُمكن توظيفها للطعن على الإسلام والقرآن، فهم لم يرتأوا انَّ ذكر الحروف المقطَّعة في فواتح السِوَر مما يصحُّ الطعن به على القرآن، وذلك ما يُعبِّر عن إدراكهم لوجود غايةٍ عقلائيَّة من ذكرها.

الغاية من ذكر الحروف المقطَّعة في القرآن

وكيف كان فالمستظهَر من حال القرآن نظراً لكونه نزل متحدِّياً الإنس والجن -عموماً والعرب المتميِّزين بالفصاحة والبلاغة على نحو الخصوص- أنْ يأتوا بمثل القرآن أو بعشر سورٍ مثله أو حتى بسورةٍ مثله، فإنَّ المستظهَر عند ملاحظة ذلك هو انَّ من غايات إيراده للحروف المقطَّعة هو الإشارة إلى انَّ هذا القرآن الذي عجزتم عن الإتيان بسورةٍ من مثله يتألَّف من حروفٍ هي في متناول أيديكم تستعملونها في خطاباتكم ومحاوراتكم وأشعاركم، فآيات القرآن لم تُؤلَّف مفرداتها وتراكيبها من غير الحروف التي هي مأنوسةٌ عندكم، فعجزُكم عن صياغتها بالنحو الذي صِيغ عليه القرآن ينبغي أنْ يكون منبِّهاً لكم على انَّ هذا القرآن لا يصدر عن رجلٍ نشأ في بيئتكم وأخذ اللغةَ عنكم، ولم يكن له من مصدرٍ تجهلونه كان قد نهِل منه كلٌ هذه المعارف التي تجدونها فيما يتلوه عليكم من قرآن.

فالغاية من إيراد الحروف المقطَّعة هو تأكيد التحدّي والتذكير به فيما بين الفينة والأخرى، فحتى حينما هاجر النبيﷺ إلى المدينة كان عليه أنْ يُذكِّر بهذا التحدّي ويُؤكّده ويُنبِّه مثل اليهود ومشركي الجزيرة على انَّه قد قد مضى على صدور التحدّي بالقرآن ما يزيد على العقد من الزمن ولم يتسنَّ لأحدٍ أنْ ينقضه، وكذلك يُنبِّه على انَّ هذا التحدّي سيظلُّ سارياً أبد الدهر، فمَن وجد نفسه أهلاً لكسر هذا التحدّي فليتقدم منفرداً كان أو مُستظهِراً بمَن شاء وفي أيٍّ وقتٍ شاء، فهذه هي إحدى الغايات من إيراد الحروف المقطَّعة في فواتح عددٍ من سور القرآن.

فاستعراض القرآن للحروف المقطعة في فواتح عددٍ من السور أشبهُ شيء بما يفعله بعض المتميِّزين في صياغة الأشكال الهندسيَّة فترى أحدهم يأتي في مجمعٍ من المشاهدين وهو يحمل معه عدداً من الأعواد الخشبيَّة أو النحاسيَّة ثم يأخذ في عرضها للتأكيد على انَّها مجرَّد أعواد متاحٌ لكلِّ أحدٍ تناولها، ثم يبدأ فيُشكِّل من هذه الأعواد صورةً هندسيَّة رائعةً ومعقَّدة فينبهر من روعتها وتعقيدها وبساطة مكونِّها المشاهدون، ثم يعود فيُفكِّك تلك الهيئة الهندسيَّة ويبدأ بعدها بتشكيل هيئةٍ هندسيَّةٍ أُخرى لا تقلُّ في روعتها وتعقيدها عن الأولى، وهكذا يفعل مرةً بعد أُخرى، وفي كلِّ مرةٍ يستعرض الأعواد ليُؤكِّد على انَّ هذا الشكل الهندسي الذي سوف يصوغه مؤلَّفٌ من هذه الأعواد التي هي في متناول الجميع.

كذلك هو عرض القرآن لبعض حروف الهجاء في فواتح عددٍ من السور القرآنيَّة، فإنَّ الغاية من ذلك هو التنبيه على انَّ هذا القرآن -الذي أعيا فحول الشعراء وأرباب البيان ان يأتوا بسورةٍ مثله- مؤلفٌ من هذه الحروف التي هي في متناول الجميع.

هذا الأسلوب مُتَّبع في القرآن الكريم

هذا وقد استعمل القرآن الكريم ذات الأسلوب للتنبيه على عظمة الله جلَّ وعلا فيما خلَق، فأفاد في بعض الآيات انَّ ممَّا يسترعي التنبُّه والتبصُّر هو انَّ قطع الأرض المتجاورات المتكوِّنة من تربةٍ ذات خاصيَّةٍ واحدة وتُسقى بماءٍ واحد فيكون الناتج عن ذلك جناتٍ مليئةً بالزروع المختلفةِ الأشكال والخصائص والمُنتِجة لثمراتٍ مختلفةِ الألوان والمذاق والآثار، فمَن الذي أضفى عليها هذه الألوان التي تأخذ من بهجتها بالأبصار؟ ومن أين جاءت لها هذه الطعوم المتباينة في مذاقها وأثرها؟ ومَن الذي صوَّر هذه الثمرات على هذه الهيئات البديعة؟ وكيف صارت هذه الثمرات غذاءً يتناسب وحاجات الإنسان والحيوان؟ فليس في البين سوى تربةٍ ذات خاصيَّةٍ واحدة وماء ابتلعته هذه التربة قال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى

بِمَاء وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [١]

وكذلك قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ [٢] فترابٌ كانت هي المادة التي تخلَّقتم منها فكيف صِيغت صوركم وألوانكم وصار لكم أنْ تنتشروا باختياركم في الأرض تُفكِّرون وتتحدَّثون وتسمعون وتبصرون وتأكلون وتشربون وتتناسلون، ثم لو تأمَّلتم جوارحكم وما اشتملت عليه أبدانكم من بدائع الخلق من عظامٍ وعصَبٍ وعروقٍ وأوردةٍ وشرايين وأجهزةٍ مختلفة الوظائف متقنة الأداء إذن لأذعنتم انَّ الذي خلقكم من ترابٍ ليس كمثله شيء في عظمته وجليلِ قدرته.

فالتنويه بمبدأ الخلق وبساطته فيه تنبيهٌ على انَّ الله تعالى يخلق المعجزاتِ القاهرات من بسائط الأشياء ومحقَّراتِها، كذلك هو الله تعالى نظم القرآن الذي لا يُطاول ولا يُحاول من حروفٍ هي أبسط مايكون في النطق والحفظ والتركيب فأنَّى تُؤفكون وكيف تُكابرون؟!

١- سورة الرعد الآية/٤.

٢- سورة الروم الآية/٢٠.

ما يُؤيِّد الغاية المزبورة:

والذي يؤيِّد انَّ غايةً من غايات القرآن في إيراده للحروف المقطَّعة هو التنبيه على انَّ القرآن الذي أعجز المتربِّصين من ذوي الجدال والخصومة عن مجاراته قد صِيغ من هذه الحروف التي هي في متناول الأيدي، الذي يُؤيِّد إرادته التنبيه على ذلك هو انَّ أكثر سور القرآن التي تصدَّرتها هذه الحروف تعقَّبتها الإشارة إلى انَّ هذا هو القرآن أو تلك هي آيات القرآن، فكأنه أراد من ذلك التنبيه على انَّ هذا القرآن قد تمَّت صياغتُه من هذه الحروف، وللتثبت من ذلك نتيمَّن بنقل عددٍ من هذه الآيات:

منها: قوله تعالى: ﴿الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١)

ومنها: قوله تعالى: ﴿الر تِلْكَ آَيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ (٢)

ومنها: قوله تعالى: ﴿طس تِلْكَ آَيَاتُ الْقُرْآَنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٣)

ومنها: قوله تعالى: ﴿طسم تِلْكَ آَيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ (٤)

١- سورة البقرة الآيتان/١-٢.

٢- سورة يونس الآية/١.

٣- سورة النمل الآية/١.

٤- سورة القصص الآيتان/١-٢.

ومنها: قوله تعالى: ﴿الم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[١]

ومنها: قوله تعالى: ﴿حم عسق كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [٢]

ومنها: قوله تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [٣]

ومنها: قوله تعالى: ﴿طسم تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [٤]

فهذه الآيات وكذلك أكثر التي لم نذكرها والتي تصدَّرتها بعض حروف الهجاء قد تعقَّبها التنويه بالقرآن أو آيات القرآن أو الوحي بالقرآن كما هو مُلاحَظ مِمَّا نقلناه، وذلك يؤيِّد انَّ الغرض من ذكر هذه الحروف هو التنبيه على انَّ هذا القرآن الذي عجزتم عن مجاراته مؤلَّفٌ من هذه الحروف المتداولة بينكم فعجْزُكم عن الإتيان بمثله دليلٌ قاطع على انَّه من عند الله جلَّ وعلا.

والحمد لله رب العالمين

١- سورة السجدة الآيتان/١-٢.

٢- سورة الشورى الآية/١-٢.

٣- سورة هود الآية/١.

٤- سورة يوسف الآية/١.

الشبهة السادسة

الإسلام دينٌ لعموم الأنبياء

الشبهة السادسة

الإسلام دينٌ لعموم الأنبياء

يرد في القرآن أنَّ إبراهيم الخليل هو مسلمٌ أيضاً مع أنّه ظهر سنة ٢٧٠٠ قبل ظهور الدعوة المحمدية، في جنوب بلاد ما بين النهرين (العراق حالياً) فكيف يصح هذا ...؟

أسمع القول: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا...﴾[1].

ثم إنَّ محمداً ذاته يقول في الأنعام (أنا أول المسلمين)، فمن نصدّق يا ترى...!

١- سورة آل عمران الآية/٦٧.

الجواب

دين الله واحد غير متعدِّد:

المراد من وصف المسلم في القرآن الكريم هو المسلِّم والمذعِن لله تعالى وحده فيما يأمر به من شرائع الدين والذي هو دينٌ واحد لا يختلف من نبيٍّ لآخر في أُصوله العامة كما أفاد تعالى في قوله: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[2].

١- سورة الشورى الآية/١٣.

٢- سورة آل عمران الآية/١٩.

ليس إبراهيم وحده بل جميع الأنبياء مسلمون:

لذلك فجميع الأنبياء وأتباعهم على إمتداد تاريخ الرسالات يصحُّ وصفهم بالمسلمين كما وصفهم الله تعالى في مواطنَ عديدة من القرآن الكريم، فلم يكن إبراهيم عليه السلام وحده مَن وصفه القرآن بالمسلم بل إنَّ نبيَّ الله نوحاً عليه السلام الذي بُعث قبل إبراهيم عليه السلام بمئات السنين وكذلك مَن آمن بنوحٍ من قومه قد وصفهم القرآن بالمسلمين، قال تعالى يحكي خطاب نوحٍ لقومه: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[١].

ووصف القرآن الكريم نبيَّ الله لوط عليه السلام الذي كان معاصراً لإبراهيم ووصف مَن آمن معه من أُسرته بالمسلمين في قوله تعالى حكايةً عن الملائكة الذين أُرسلوا لايقاع العذاب على قوم لوط: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ۞ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ۞ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ۞ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ۞ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

١- سورة يونس الآية/٧١.

﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾(١) فوصف بيت لوط عليه السلام أي أُسرته بالمسلمين.

وكذلك فإنَّ إبراهيم كان قد أوصى أبناءه بالثبات على دين الإسلام وبأنْ لا يموتوا إلا وهم مسلمون، وهكذا كانت وصية يعقوب عليه السلام لبنيه قال تعالى يحكي وصية إبراهيم لبنيه ووصية يعقوب لبنيه: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾(٣).

ولهذا كان يوسف عليه السلام يسألُ ربَّه الثبات على الدين وانْ يتوفَّاه مسلماً: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾(٤).

١- سورة الذاريات الآيات/٣١-٣٦.

٢- سورة البقرة الآية/١٣٢.

٣- سورة البقرة الآية/١٣٣.

٤- سورة يوسف الآية/١٠١.

هذا وقد كانت دعوة سليمان عليه السلام وهو من أنبياء بني إسرائيل هي الإسلام وقد صرَّح بذلك في مراسلته لبلقيس - ملكة سبأ- وقومها، قال تعالى على لسانه: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾[١].

وقال سليمان عليه السلام مخاطباً قومه من الجن والإنس: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾[٢].

ثم إنَّ سليمان عليه السلام قال حين جاءته بلقيس ووجدت عرشها عنده و: ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾[٣] قال: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾[٤].

ثم إنَّ بليقس حين أذعنت بدعوة سليمان عليه السلام كان إعلانها عن ذلك بقولها: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٥].

بل إنَّ دعوة موسى عليه السلام نبيِّ اليهود كانت هي الإسلام، فلم يكن يقبل من قومه إلا انْ يكونوا مسلمين كما تُؤكد ذلك آياتٌ عديدة، قال تعالى

١- سورة النمل الآيتان/٣٠-٣١.

٢- سورة النمل الآية/٣٨.

٣- سورة النمل الآية/٤٢.

٤- سورة النمل الآية/٤٢.

٥- سورة النمل الآية/٤٤.

على لسان موسى عليه السلام مخاطباً لقومه: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُسْلِمِينَ﴾[١].

ولهذا قال السحرة بعد انْ آمنوا مخاطبين فرعون: ﴿وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾[٢].

وبعد انْ وقع الغرق لفرعون وجنوده قال فرعون قبل انْ يُدركه الموت: ﴿قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[٣] فهو يعلم انَّ الإيمان بما آمنت بنو إسرائيل يساوق الدخول في زمرة المسلمين.

وكذلك فإنَّ الوسام الذي حرص الحواريون على الثبات عليه وانْ يشهد لهم السيد المسيح عليه السلام عند ربه انَّهم ملتزمون به هو انَّهم مسلمون، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[٤].

١- سورة يونس الآية/٨٤.

٢- سورة الاعراف الآية/١٢٦.

٣- سورة يونس الآية/٩٠.

٤- سورة آل عمران الآية/٥٢.

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾:

والمتحصَّل انَّ الدين الذي شرعه الله تعالى لعموم أنبيائه هو الإسلام، فهو تعالى لا يقبل من عباده غيره كما قال تعالى: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[١].

فالدين الذي آمن به إبراهيم عليه السلام وبلَّغه لعباد الله تعالى كان هو الإسلام، وكذلك هو ماجاء به موسى عليه السلام ودعى إليه قومه، وهو كذلك الذي بُعث عليه السيد المسيح عليه السلام.

النبيُّ محمد صلى الله عليه وآله مكمِّلٌ للدِّين وليس ناسفاً للرسالات:

فالرسول محمد صلى الله عليه وآله كان إمتداداً لهذه الرسالات، فلم يكن يدعو لنسف ما جاءت به الرسالات المتعاقبة بل جاء مصدِّقاً لها كما صرَّحت بذلك العديدُ من الآيات كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾[٢].

١- سورة آل عمران الآيتان/٨٤-٨٣.

٢- سورة آل عمران الآية/٣.

وجاء ناسخاً لبعض الأحكام التي نشأ تشريعها في الرسالات السابقة عن الرعاية لمصلحة الوقت.

كما جاء مكمِّلاً لما كانت عليه تلك الرسالات من نقصٍ نشأ عن إقتضاء العناية الإلهية للتدريج في بيان وتبليغ شرائع الدين، فنظراً لتأهُّل البشرية حين المبعث النبوي الشريف لتلقِّي الدين كاملاً بعد ان أهَّلتهم لذلك الرسالات المتعاقبة صدع النبيُّ الكريم صلى الله عليه وآله بالدين الكامل الذي لا مندوحةَ لأحدٍ من عباد الله تعالى إلا التديُّن به دون سواه قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾[1].

المراد من ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾:

وأما ما حكاه القرآن عن انَّ النبيَّ الكريم صلى الله عليه وآله انَّه قال: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[2] فالمراد منه أنَّه كان أول المسلمين بالإضافة إلى أُمته، فلا يُناقض ذلك ما أفاده القرآن من وصف إبراهيم بالمسلم ووصف نوحٍ وعموم الأنبياء وأتباعهم بالمسلمين.

ولعمري إنَّ ذلك أوضح من أن يخفى إلا على مَن تعمَّد المكابرة والتشويش على ما هو بيِّنٌ لكلِّ مَن له أدنى تأمُّل، فالنبيُّ الكريم صلى الله عليه وآله لو لم

١- سورة المائدة الآية/٣.

٢- سورة الأنعام الآية/١٦٣.

يكن نبيًّاً فهو عاقل بل لا يرتاب أحدٌ في تميُّزه وتفوقه في مداركه، فكيف يتلو آياتٍ ليلَ نهار يُصرِّح فيها بأنَّ نوحاً كان من المسلمين وانَّ إبراهيم كان مسلماً، وانَّ عموم الأنبياء كانوا مسلمين وهم قد سبقوه بمئات وبعضهم بآلاف السنين ثم يقول انَّه أول المسلمين ويقصد من ذلك أنَّه لم يسبقه أحدٌ من الأنبياء بالإتصاف بهذا الوصف، إنَّ ذلك لايصدر من أبسط الناس وأقلِّهم إدراكاً فضلاً عن مثل محمدﷺ الذي لم تعرف البشريةُ له من نظير.

وكيف خفيَ على أتباع محمدﷺ ومناوئيه ماتفطَّن له هذا المورد للشبهة وكأنَّه قد وقف على ما غفل عنه الأولون والآخرون!!

والحمد لله رب العالمين

الشبهة السابعة

النسخ ونفي التبديل لِكَلِمَاتِ اللَّهِ

الشبهة السابعة

النسخ ونفي التبديل لِكَلِمَاتِ اللّهِ

ورد في القرآن قوله: ﴿وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾[1] وقوله: ﴿لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾[2] وقوله: ﴿لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾[3] مع انَّه يقول في سورة النحل: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُواْ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ﴾[4].

ففي الآيات الأولى نفهم إنَّ الله في جميع أحواله لا يُبدّل آياته مهما حدث وأما الأخيرة فبدّل الله آياته وبرَّرها بالقول: ﴿وَاللّهُ أَعْلَمُ﴾، وكذلك قال القرآن في سورة البقرة: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آَيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ

١- سورة الأنعام الآية/٣٤.

٢- سورة الأنعام الآية/١١٥.

٣- سورة يونس الآية/٦٤.

٤- سورة النحل الآية/١٠١.

مِثْلِهَا﴾[١] فكيف يستقيم ذلك مع مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ أليس ذلك من التناقض؟!.

١- سورة البقرة الآية/١٠٦.

الجواب

تحرير موضوع الشبهة

نفى القرآن التبديل عن كلمات الله تعالى في آيات أربع:

الآية الأولى: وردت في سورة الأنعام وهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾[1].

الآية الثانية: وردت في سورة يونس وهي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[2].

الآية الثالثة: وردت في سورة الكهف وهي قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ

١- سورة الأنعام الآية/٣٤.

٢- سورة يونس الآية/٦٣-٦٤.

وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾(١).

الآية الرابعة: وردت في سورة الأنعام أيضاً وهي قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(٢).

والإشكال عند صاحب الشبهة نشأ عن تفسيره الكلمات في الآيات الأربع بالقرآن، ولذلك زعم انَّ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٣) ناقض لنفي التبديل الوارد في الآيات الأربع، وكذلك فإنَّ قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾(٤) يكون ناقضاً بحسب زعمه للآيات النافية للتبديل.

١- سورة الكهف الآية/٢٦-٢٧.

٢- سورة الأنعام الآية/١١٤-١١٥.

٣- سورة النحل الآية/١٠١.

٤- سورة البقرة الآية/١٠٦.

الردّ:

إلا انَّ هذا الإشكال ليس تاماً فإنَّ الذي نفت الآيات الأربع عنه التبديل هو الكلمات وليس القرآن أو آيات القرآن، نعم لو انَّ الآيات الأربع قالت انَّه لا مبدّل للقرآن أو لآيات القرآن، ولا تبديل للقرآن أو لآيات القرآن لأمكن توجُّه النقض عليها بمثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ﴾ إلا انَّ الوارد في الآيات الأربع هو نفي التبديل عن كلمات الله تعالى وليس عن آيات القرآن، فلا يتم الإشكال إلا مع البرهنة على انَّ المراد من الكلمات في الآيات الأربع هو القرآن أو آيات القرآن، وهذا ما لم يفعله صاحب الشبهة بل انَّه لا سبيل عنده للبرهنة على انَّ المراد من الكلمات في الآيات الأربع هو القرآن أو آيات القرآن بنحو الإطلاق.

بحثٌ حول المراد من الكلمات

مقدمتان:

وقبل الوقوف على كلٍّ آية من الآيات الأربع للبحث عمَّا هو المراد من الكلمات في كلٍّ منها يكون من الجدير التنبيه على مقدمتين:

المقدمة الأولى: الكلمة هي اللفظ الدال على معنى سواءً كان هذا اللفظ إسماً أو فعلاً أو أداة، وتُطلق الكلمة على مجموع الجملة المفيدة لمعنى والمركَّبة من ألفاظ متعددة، والكلمة سواءً التي تُطلق على اللفظ المفرد أو

التي تُطلق على الجملة يمكن توصيفها بالمفهوم الكلِّي القابل للصدق والإنطباق على كلٍّ لفظٍ أيًا كان معناه وعلى كلٍّ جملةٍ أيًا كان مدلولها، وهي في ذات الوقت من الألفاظ المبهمة التي يتحدَّد تصنيفها وتكتسب هويتها من ملاحظة مدلولها ومفادها، فلفظ الكلمة من هذه الجهة كلفظ الشيء، فكما انَّ لفظ الشيء يُطلق على الجماد والنبات والحيوان وعلى الوجودات العينيَّة والوجودات المعنويَّة على حدٍّ سواء فيُقال للماء شيء وللنخلة شيء وللأسد شيء وللإنسان شيء وللسماء شيء وللبحر شيء وللتراب شيء، ويُقال للخوف شيء وللحزن شيء وللإبتهاج شيء، فكذلك الكلمة فإنَّها تُطلق على اللفظ الدال على أيٍّ معنىً من المعاني الحسيَّة أو المعنوية، وتُطلق الكلمة على اللفظ الدال على خبر، وعلى اللفظ الدال على وعد واللفظ الدال على إنشاء عقد، والدال على إنشاء طلب أو الدال على توبيخٍ أو زجرٍ أو تهديد، فكلٌّ هذه المداليل وغيرها يُقال لكلٍّ واحدٍ منها كلمة إذا تمَّ أداؤه باللفظ، وكما أنَّ لفظ الشي يتحدَّد تصنيفه وهويته بموصوفه فيُوصف الشيء بالمادِّي إذا أطلق على مثل الجماد والنبات، ويوصف الشيء بالمعنوي إذا أُطلق على مثل الخوف والإبتهاج، ويُوصف الشيء بالسيئ أو القبيح إذا أُطلق على مثل الظلم، فيُقال: الظلم شيء سيئٌ وقبيح أو يقال: هذا شيء سيئٌ وقبيح ويُقصد من الشيء الظلم، ويُوصف الشيء بالحسَن إذا أُطلق على مثل الإحسان والعدل، فيقال: العدل شيء حسن، فكذلك الكلمة يتحدَّد تصنيفها وهويتها بمدلول لفظها فتُوصف

الكلمة بالسيئة إذا كان مدلولها يُعبِّر عن معنىً سيئ، وتُوصف الكلمة بالكاذبة إذا كانت تُنبأ عن خبرٍ مخالفٍ للواقع وهكذا، ولذلك وصف القرآن الكلمة تارةً بالطيِّبة وأخرى بالخبيثة قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾(١) وقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾(٢) فالكلمة وُصفت بالطيبة لأنَّ مدلول لفظها يُعبِّر عن معنى طيِّب كما لوكان مدلول لفظ الكلمة أمراً بالخير والمعروف أو ذكراً لله تعالى، وتُوصف الكلمة بالخبيثة لو كان مدلول لفظها يُعبِّر عن معنىً فاحش أوبذيئ أو شبه ذلك.

وقد نعت القرآن كلمةً بالكفر وأخرى بالتقوى فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾(٣) وقال في مورد آخر: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾(٤) وكذلك وصف الكلمة بالعذاب في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾(٥) فالكلمة حينما يكون مدلول لفظها معبِّراً عن الشرك بالله تعالى أو معبِّراً عن الجحود بوجوده تعالى أو بصفاته وأسمائه الحسنى فإنَّ هذه الكلمة تُوصف بالكفر، وحينما يكون مدلول لفظ الكلمة معبِّراً عن الإخلاص لله

١- سورة إبراهيم الآية/٢٤.

٢- سورة إبراهيم الآية/٢٦.

٣- سورة التوبة الآية/٧٤.

٤- سورة الفتح الآية/٢٦.

٥- سورة المزمل الآية/١٩.

جل وعلا أو توحيده أو الإمتثال لشريعته فإنَّ هذه الكلمة يصحُّ وصفها بالتقوى، والآيات التي توعَّدت العصاة والمشركين بالنار عبَّر عنها القرآن بكلمة العذاب. إذن يتحدد توصيف الكلمة وتصنيفها من ملاحظة مدلول ألفاظها.

المقدمة الثانية: أسند القرآن الكلمة والكلمات لله تعالى في مواضع كثيرة من آياته، ومن ملاحظة كلِّ آيةٍ إشتملت على إسناد الكلمة أو الكلمات لله تعالى أو نسبتها له يتَّضح انَّ القرآن لم يستعمل الكلمة والكلمات المسندة والمنتسبة لله تعالى في معنىً واحد بل في معانٍ متعدِّدة، وللتثبُّت من ذلك نذكر عدداً من النماذج:

النموذج الأول: قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾[١] فهنا نسب القرآن الكلمة إلى الربِّ جل وعلا ﴿حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾[٢] والواضح ان المراد من الكلمة المنسوبة لله تعالى في هذه الآية هي ما توعَّد به اللذين كفروا بمثل قوله: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ فكلمة الله في هذه الآية هي وعيده للذين كفروا بالنار، وقد وصف القرآن هذا الوعيد بكلمة العذاب في قوله نعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إلى

١- سورة غافر الآية/٦.

٢- سورة يونس الآية/٣٣.

جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾[1] إلى قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[2]. وأسند الله تعالى إلى نفسه كلمة العذاب وهي وعيده للجاحدين بالنار في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[3] فكلمة الله أُطلقت في هذه الآية على وعيده بأنْ يملأ جهنم من الجِنَّة والناس أجمعين.

النموذج الثاني: قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾[4] فهنا أطلق القرآن على وعد الله تعالى بني إسرائيل بميراث الأرض وتدمير فرعون وقومه، أطلق على هذا الوعد الإلهي كلمةَ الله الحسنى، وقد بيَّن القرآن هذا الوعد في سورة القصص: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُمَكِّنَ

١- سورة المزمل الآية/٧١.

٢- سورة المزمل الآية/٧١.

٣- سورة هود الآية/١١٩.

٤- سورة الأعراف الآية/١٣٧.

لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾[١].

النموذج الثالث: قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلى مَرْيَمَ﴾[٣] ففي هاتين الآيتين وصف القرآن السيد المسيح عليه السلام بأنَّه كلمة الله، ذلك لأنَّه خلق على غير السنَّة الإلهية الجارية في خلق الناس، فهو تعالى قد خلق السيد المسيح بكلمة منه ألقاها إلى مريم، وهي قوله تعالى: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ كما قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[٤].

النموذج الرابع: قوله تعالى: ﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾[٥] إحقاق الحق يعني إظهاره وإثباته أو إنتصاره وكلمات الله أطلقت في هذه الآية على مثل حجج الله تعالى كبراهينه ومعجزاته، ويُؤيد

١- سورة القصص الآية/٥.

٢- سورة آل عمران الآية/٤٥.

٣- سورة النساء الآية/١٧١.

٤- سورة آل عمران الآية/٥٩.

٥- سورة يونس الآية/٨٢.

إرادة ذلك من كلمات الله في الآية مضافاً إلى انَّه المناسب لإحقاق الحق يُؤيد ذلك سياقها، فهي قد سِيقت للتعقيب على ما ظهر من صدق موسى عليه السلام حين أبطل بنحو الإعجاز ما جاء به السحرة، وذلك بإبتلاع العصى المُنقلِبة إلى أفعى عصيِّ السحرة وحبالهم فكان في ذلك ظهورٌ للحق بواسطة كلمات الله أي معجزته وهي من حُجحه جلَّ وعلا، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾[١].

وورد في آية أخرى من سورة الأنفال قوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾[٢] وإحقاق الحق هنا بظهوره وإنتصاره، ومصداقه في الآية هو غلبة المسلمين للمشركين في غزوة بدر، ومعنى كلمات الله في الآية هو أمره لهم بالحرب بعد أنْ لم يتمكنوا من قافلة قريش العائدة من الشام وذلك لأنها إنصرفت بعيداً عنهم، فأمرهم الله بحرب المشركين اللذين خرجوا لحماية القافلة من مكة، وكان فريقاً من المسلمين كارهين للحرب ويودُّون أنَّ غير ذات الشوكة تكون لهم لكنَّ الله تعالى هيَّأ بقضائه لقيام الحرب وأمر بها لعلمه بأنَّ في ذلك ظهوراً الحق

١- سورة يونس الآية/٨٠-٨٢.

٢- سورة الأنفال الآية/٧.

وغلبته، فمعنى قوله تعالى: ﴿يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ هو انَّه يظهر الحق بأوامره المقتضية عند إمتثالها لظهور الحق، قال تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾[1].

فقوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ سِيقت مساق التعليل للأمر بالحرب فكأنَّه أراد القول انَّنا إنَّما أمرنا بالحرب وهيأنا لنشوبها لأنَّنا أردنا من ذلك إظهار الحق وغلبته، وذلك هو ما وقع فكانت أوامر الله تعالى هي التي نشأ عنها ظهور الحق، فكلمات الله في الآية هي أوامره، وكونها سبباً في ظهور الحق استُفيد من باء السببية الداخلة على لفظ كلماته، فبسبب كلماته أي أوامره ظهر الحق، ويمكن أنْ يكون المراد من كلماته هو قضاؤه بالنصر وظهور الحق الذي كتبه على نفسه وأخبر به أنبياءه كما قال تعالى في سورة الصافات: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾[2] وعلى

١- سورة الأنفال الآية/٥-٧.

٢- سورة الصافات الآية/١٧١-١٧٣.

كلٍّ تقدير فإنَّ هذه الآية أطلقت كلمة الله على قضائه بالنصر ووعده لعباده المرسلين ولجنوده بالنصر والغلبة.

وورد في آيةٍ ثالثة من سورة الشورى قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[1] وهنا أيضا استعمل القرآن كلمات الله وأراد منها بيِّنات الله وحججه وبراهينه التي كان يُبينها بواسطة الوحي لأنبيائه، فالكلمات هنا تشمل القرآن كما تشمل غير القرآن من الحجج والبيِّنات التي أُفيضت على قلب رسول الله ﷺ فنطق بها لأنَّه لا ينطق إلا عن وحي الله وكلماته وإن لم تكن قرآنا، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾[2]، كما تشمل الكلمات في هذه الآية مطلق الحجج والبيِّنات التي صدع بها الأنبياء المؤيدون بوحي الله وكلماته، ويدلُّ على شمول الكلمات لمطلق ما كان يُوحيه الله تعالى لعموم أنبيائه من بيِّنات وبراهين إستعمالُه للفعل المضارع " يمحو، يحق " الذي يعني الإستمرار، فكأنَّه أراد القول انَّ شأنه وسنته الجارية هي أنْ يمحو الباطل ويُفنِّده ويحقُّ الحق ويظهره بكلماته وبيِّناته التي يوحيها إليهم.

١- سورة الشورى الآية/٢٤.

٢- سورة النجم الآية/٣-٥.

النموذج الخامس: قوله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾[1] والمراد من كلمات الله تعالى في هذه الآية هي مطلق ما أوحاه الله تعالى لأنبيائه من شرائع وحقائق، فتكون الكلمات في الآية أوسع مما ورد في الكتب التي أنزلها الله تعالى على أنبيائه، وقد ذُكرت الكتب بعد الكلمات للتنويه نظرا لأهميتها وإلا فهي مشمولة لكلمات الله في هذه الآية.

النموذج السادس: قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[2] مفاد الآية بقرينة السياق انّ الله تعالى جعل ما تعاقد عليه كفار قريش في دار الندوة من قتل النبيﷺ أو حبسه أمراً خائباً حيث لم يتحقّق ما عقدوا العزم عليه واجتمعت كلمتُهم على إنفاذه، فكان في فشل كيدهم ومكرهم سقوطاً لكلمتهم وكسراً لوعدهم الذي قطعوه على أنفسهم كما قال تعالى في

١- سورة التحريم الآية/١٢.

٢- سورة التوبة الآية/٤٠.

موضع آخر: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[١].

وأما كلمة الله تعالى في هذه الآية فهي وعده لنبيِّه صلى الله عليه وآله بالنصر وظهور دينه والذي بدأت بوادره بتخليصه من كيد قريش، ولذلك عبَّر صدر الآية عن ذلك بنصر الله تعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فكلمة الله هي العليا تعني انّ وعده كان هو النافذ المبرم فكلمته هي العليا لأنَّها هي الماضية والغلبة التي لا سبيل إلى كسرها وإبطالها، وكلمة اللذين كفروا السفلى فهي خائبة، لأنَّها قد أُبطلت وكُسرت.

النموذج السابع: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٢] ففي هذه الآية استعمل القرآن كلمات الله في الوجودات التي أبدعها وخلقها ويخلقها الله جل وعلا أو هي تدبيره وأوامره التكوينيَّة التي تنشأ عنها الوجودات أو هي قدرته غير المتناهية، وعلى كلٍّ تقدير فكلمات الله تعالى في هذه الآية ليست هي ما أوحاه الله لنبيِّه صلى الله عليه وآله أو ما أوحاه لنبيِّه صلى الله عليه وآله وسائر أنبيائه، فهي ليست ألفاظ القرآن وآياته ولا هي مضافاً إلى

١- سورة الأنفال الآية/٣٠.

٢- سورة لقمان الآية/٢٧.

الكتب التي أنزلها على أنبيائه، فإنّ ذلك منافٍ لظاهر السياق، وهي كذلك مما يقبل النفاذ.

النموذج الثامن: قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾[1] ففي هذه الآية أسند الله تعالى الكلمات إلى نفسه فأفاد أنّه إبتلى وإمتحن إبراهيم عليه السلام بكلمات أي بكلماتٍ من عنده، والمُستظهَر من معنى الكلمات هو الإبتلاءات التي إمتحن الله تعالى بها إبراهيم عليه السلام كإلقائه في النار وكإستعداده الأكيد والقاطع للتضحية بإبنه إسماعيل عليه السلام وعليه فتكون الآية قد استعملت الكلمات في الإبتلاءات.

خلاصة النماذج

هذه مجموعة من النماذج استعمل فيه القرآن الكريم لفظ "كلمة الله" و "كلمات الله" في معانٍ متعدِّدة، وتمّ الوقوف على معرفة ما هو المراد في كلٍّ إستعمال من ملاحظة سياق كلٍّ آيةٍ استعمل فيها هذا اللفظ، ومن ذلك يتَّضح انّ لفظ "كلمة الله" و "كلمات الله" لا يعني في كلٍّ إستعمال الآيات القرآنية بل إنّ أكثر إستعمالات هذا اللفظ إنْ لم يكن جميعها لم يكنْ في هذا المعنى أي إنّ كلمات الله ليست بمعنى آيات القرآن في أكثر إستعمالات القرآن إنْ لم يكن جميعها، وعليه فلابدّ من ملاحظة كلٍّ آيةٍ

١- سورة البقرة الآية/١٢٤.

من الآيات الأربع التي إشتملت على نفي التبديل عن كلمات الله للوقوف على ما هو المراد من كلمات الله في كلٍّ منها:

المراد من ﴿الكلمات﴾ في الآيات الأربع:

أما الآية الأولى: وهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾[1] فالواضح من مساقها انَّ المراد من كلمات الله التي نفت عنها الآيةُ التبديل ليس هو القرآن ولا هو آيات القرآن ولا هي الأحكام الشرعية التي يجوز عليها النسخ بل المراد من كلمات الله تعالى في هذه الآية هي وعوده التي قطعها على نفسه، ومنها وعده لأنبيائه ورسله بالنصر، كما نوّه على ذلك في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾.

فالآية أعني قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ مسوقة لغرض التسلية للنبي صلى الله عليه وآله وحثّه على المزيد من الصبر

١- سورة الأنعام الآية/٣٤.

على تكذيب قومه وإيذائهم له، فأخبره لهذا الغرض انَّ مَن سبقه من المرسلين قد أنجز الله تعالى لهم ما وعدهم من النصر بعد أنْ صبروا على تكذيب أقوامهم وإيذائهم، وانَّ هذا الوعد بالنصر الذي قطعه على نفسه شأنه شأن كلٍّ وعود الله لا مُبدِّل لها ثم ذكَّره بما فصَّله له من نبأ المرسلين وكيف انَّ الله تعالى قد إنتصر لهم بعد طول عناءٍ وتكذيب ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾.

فالكلمات التي نفت الآيةُ عنها التبديل هي وعود الله تعالى التي قطعها على نفسه، ولا ريب في انَّها لا تقبل التبديل، لأنَّ الله تعالى لا يُخلف وعده كما أخبر بذلك عن نفسه بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾[1] وقوله جلَّ وعلا: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾[2].

وأما الآية الثانية: وهي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[3] فهي أيضا - كما هو واضح جداً من مساقها -أجنبيةٌ عن إفادة

١- سورة آل عمران الآية/٩.

٢- سورة آل عمران الآية/١٩٤.

٣- سورة يونس الآية/٦٣-٦٤.

نفي التبديل لآيات القرآن وأحكامه الشرعية وإنَّما هي بصدد نفي التبديل لوعود الله التي قطعها على نفسه ومنها وعده المتقين من اللذين آمنوا بالبشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة، فالآية بعد أنْ قرَّرت هذا الوعد الإلهي أكَّدته للمزيد من تطمينهم بما أفادته انَّ ذلك غير قابلٍ للتبديل، إذ لا تبديل لكلمات الله وما وعد به عباده، فهو من القضاء الإلهي المحتوم الذي لا يقبل النقض، ويُؤيد إرادته لنفي التبديل للوعد من نفي التبديل لكلمات الله ذيلُ الآية، وهي قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ إذ انَّ المناسب للفوز العظيم هو الوعد بالبشرى غير القابل للنقض.

وأما الآية الثالثة: وهي قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مالَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾(١) فهي واقعة في خاتمة ما أورده القرآن حول ما وقع لأصحاب الكهف، فهو بعد أنْ سرد شيئاً مما وقع لهم ذكر انَّهم: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾(٢) ثم أفاد: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾(٣) ويظهر من ذلك -كما يُؤيده ما ورد

١- سورة الكهف الآية/٢٦-٢٧.

٢- سورة الكهف الآية/٢٥.

٣- سورة الكهف الآية/٢٦.

في أسباب النزول- انَّ ثمة مَن أنكر من أهل الكتاب التوقيت الذي أفاده القرآن فأجابهم بأنَّ الله تعالى هو الأعلم بما لبثوا، وذلك لأنَّه يعلم غيب السماوات والأرض، فهو الأبصر بشئونات خلقه والأوعى سمعاً، ثم أمر الله تعالى نبيَّه صلى الله عليه وآله بتلاوة ما أوحاه إليه من القرآن في شأن أصحاب الكهف وأنْ لا يكترث بإنكار المنكرين فإنَّه لا مُبدِّل لكلمات الله تعالى أي لا يسع من أحدٍ أنْ ينقض على إخباراته، فكلٌّ ما يُخبر به القرآن المُوحى من عند الله تعالى فهو مطابقٌ للواقع، ولا سبيل إلى نقضه وإثبات ما هو مخالفٌ لما أخبر به.

فالآية إذنْ وإنْ كانت تنفي التبديل عن كلمات الله تعالى التي أوحاها في قرآنه لنبيِّه صلى الله عليه وآله إلا انَّ الواضح من سياقها انَّ المقصود من كلمات الله تعالى هي إخباراتُه، ولا ريب انَّه لا سبيل إلى نقض وتبديل مثلها لأنَّها صدق وحق، والصدق لا يقبل النقض ولا يُستبدل إلا بما هو كذب أي انَّ كلاً ما هو خلاف الصدق فهو منافٍ للواقع.

والذي يُؤيد -مضافا إلى مابيَّناه- انَّ المراد من الكلمات المنفي عنها التبديل في الآية المباركة هو إخباراته، الذي يُؤيد ذلك انَّ نفي التبديل سِيق مساق الإطراء والثناء، والمناسب لذلك هو ما يكون فيه عدم التبديل ممدوحاً بنظر العقلاء، وليس هو إلا مثل الإخبار والوعد، وأما الأحكام الشرعية فعدم تبديلها مطلقاً ليس ممدوحاً ولا محموداً حتى يكون مورداً

للإطراء والثناء، لأنَّ الأحكام الشرعية تابعةٌ للمصالح والمفاسد الواقعيَّة فهي تدور مدارها وجوداً وعدماً، فمتى ما كانت المصلحة مقتضية مثلاً لوجوب الفعل كان الوجوب ثابتاً له، وإذا زالت عنه المصلحة او صار الفعل واجداً للمفسدة فإنَّ الحكم الأول يُستبدل بحكمٍ آخر يتناسب مع الملاك الواقعي الذي إستجدَّ للفعل، وأما الحكم ببقاء الوجوب لهذا الفعل رغم صيرورته ذا مفسدة أو فاقداً لكلٍّ مصلحة يُعدُّ من السَفَه بل هو قبيح، فلا يصدر من عاقلٍ المدح للبقاء والإستمرار على حكمٍ رغم زوال ملاك وضعه وجعله، وهذه قرينة بيِّنة على انَّ المراد من نفي التبديل لكلمات الله لايشمل مثل الأحكام الشرعية لأنَّ عدم تبديلها ليس محموداً على كلٍّ تقدير بنظر العقلاء، وقد وقع ذلك في القرآن وفي السنَّة فما إستوحش من ذلك أحد لإدراكهم انَّ الأحكام الشرعية ليست جزافيَّة بل هي تابعةٌ للمصالح والمفاسد الواقعية أي انَّها تدور مدار ملاكاتها وجوداً وعدماً، فمتى ما تغيَّر الملاك كان ذلك مقتضياً لتغيير الحكم، فليس في تغيير الأحكام الشرعية غضاضة بل إنَّ البناء على إستمرارها وعدم تبديلها مطلقاً مذموم، ولهذا فمثل الأحكام الشرعية غير مشمولٍ لقوله تعالى في الآية: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ كما اتَّضح.

على انَّه لوكان ثمة إحتمال عند السامع لشمول النفي لمثل الأحكام الشرعيَّة فإنَّ نفس تصدِّي مَن صدر عنه النفي -وهو منزِّل القرآن- لتبديل

الأحكام يكون قرينةً بنظر العرف وأهل المحاورة على انَّه لم يكن يقصد من نفي التبديل ما يشمل الأحكام الشرعية، عيناً كما لو قال القاضي مثلاً: لم يدخل عليَّ في هذا اليوم أحد والحال انَّه يعرف أنَّنا وجدنا كاتبه قد دخل عليه، ووجدنا حاجبه قد دخل عليه، ووجدنا خادمه قد دخل عليه، فإنَّه لو كنا نحتمل انَّ مقصوده من قوله: لم يدخل عليَّ في هذا اليوم أحد لو كنا نحتمل انَّ قوله هذا يشمل مثل الكاتب والخادم فإنَّ هذا الإحتمال يرتفع بما شاهدناه من دخول الكاتب والخادم ويتعيَّن انَّ مراده من نفيه دخول أحدٍ عليه هو غير هؤلاء من الخصوم مثلاً وأصحاب المرافعات، وأما إحتمال كذب القاضي فهو منتفٍ قطعاً، وذلك لإفتراض علم القاضي بأنَّ المخاطَب قد وجد كاتبه وخادمه وحاجبه قد دخلوا عليه، فلا يصح أنْ نحتمل الكذب في حقِّه لأنَّ العاقل لا يفضح نفسه.

فهكذا هو الحال في المقام فإنَّه مع التسليم جدلاً بإحتمال إفادة قوله تعالى: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ للشمول إلى الأحكام الشرعيَّة فإنَّ هذا الإحتمال ينبغي أنْ لا يستقر في الذهن بعد الوقوف على انَّ الله تعالى بدَّل آيةً مكان أية، أي انَّه نسخ حكم آيةٍ بحكمٍ في آيةٍ أخرى، فإنَّ الوقوف على ذلك يُوجب الإستظهار بنظر العرف بأنَّ مراده من نفي التبديل لم يكن شاملاً للأحكام الشرعية خصوصاً وانَّ التبديل كان مُصرَّحاً به في القرآن وقد تكرَّر منه التصريح بوقوعه في الأحكام الشرعية، فالمُلقي والمتلقِّي

للخطاب القرآني كلاهما على دراية بوقوع التبديل في الأحكام الشرعية، لذلك يصحُّ للمتكلم ان يتّكل على هذه القرينة فلا يُنوّه حين نفي التبديل على انَّ نفيه غير شاملٍ للأحكام الشرعية، ولو إفترضنا أن المتلقّي للخطاب القرآني كان غافلاً عن هذه القرينة فإنَّه بمجرد الوقوف عليها أي على انَّ القرآن بدّل حكماً بحكم آخر فإنَّه حينئذٍ سيُدرك انَّ مقصود القرآن من نفي التبديل لم يكن شاملاً للأحكام الشرعية، ولن يحتمل المتلقّي للخطاب القرآني انَّ القرآن قد كذب في أحد كلاميه لإدراكه انَّ من صدر عنه القرآن يعلم بأنَّ المتلقّي سيقف حتماً ولو بعد حين على وقوع التبديل، ولذلك فإنَّه لن يتعمَّد الكذب لأنَّ العاقل لا يفضح نفسه خصوصاً وانَّ القرآن حريصٌ على المصداقيَّة.

وأما احتمال انَّ القرآن نفى التبديل مطلقاً ثم وقع منه التبديل نسياناً فقد أجبنا عنه مراراً وقلنا إنَّ ذلك لا يتَّفق للقرآن الذي يُتلى ليلَ نهار ثم انَّه لو كان الأمر كذلك فلماذا تمَّ الإحتفاظ بنفي التبديل والتبديل ولم يتم التدارك؟! فهل لم يعثروا على هذا التهافت حتى جاء صاحب الشبهة فتفطَّن إلى ما لم يتفطَّن له الرسولﷺ والمسلمون طوال عقدين من الزمن والقرآن يتلى فيهم ليل نهار في الصلوات وفي المحافل والخلوات؟! وإذا كانوا قد تفطَّنوا له فلماذا لم يتم التدارك؟! فهل يقبل الرسولﷺ انّ يدخل مثل هذا الوهن على القرآن؟! إنَّ ذلك يؤكِّد انَّ توهُّم التهافت لم

يكن إلا في ذهن صاحب الشبهة وإلا فإنَّ العرف يفهم في مثل حالات الفرض الذي بيَّناه انَّ الأحكام الشرعية لم تكن من أول الأمر مقصودة من نفي التبديل.

والمتحصَّل مما ذكرناه انَّه لا تنافي بين قوله تعالى: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ في الآية من سورة الكهف وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ﴾[1] إذ انَّ المراد أساساً من الآية النافية للتبديل ليس شاملاً للأحكام الشرعية لوضوح انَّ عدم التبديل للأحكام الشرعية ليس محلاً للمدح والإطراء والذي كانت الآية النافية للتبديل بصدده بل انَّ عدم التبديل مطلقاً حتى عند تغيُّر الملاك مذموم، لذلك فالأحكام الشرعية ليست مقصودة من نفي التبديل أساساً، هذا مضافاً إلى انَّ الآية ظاهرة في انَّ الكلمات المنفي عنها التبديل في الآية هي الإخبارات كما اتَّضح مما تقدم، على انَّه لو أحتمل إرادته لما يشمل الأحكام فإنَّ هذا الإحتال يزول بمجرَّد الوقوف على تصدِّي القرآن لتبديل بعض الأحكام، فإنَّ ذلك يكون قرينةً بنظر العرف على انَّه لم يكن يقصد الأحكام من أول الأمر.

وأما الآية الرابعة: وهي قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ

١- سورة النحل الآية/١٠١.

لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[١] فالمراد من الكلمات المنفي عنها التبديل في الآية هي الوعود التي قطعها الله تعالى على نفسه، ولا ريب انَّ مثل ذلك مما لا سبيل إلى تبديله، والقرينة على انَّ ذلك هو مراد الآية المباركة من الكلمات هو قوله قبل نفي التبديل: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ إذ انَّ معنى تمَّت هو انَّها تحقَّقت عيناً كما يُقال تمَّ البيع أي تحقَّق، وكما يُجيب مَن يُسأل عن أداء مهمةٍ كان قد كُلِّف بها: أنَّها قد تمَّت فإنَّ مفاد جوابه هو انَّها قد أُنجزت وتحقَّقت، وكما يقال: أتممنا الوعد أي أنجزناه وإلتزمنا بإنفاذه، وعليه فظاهر قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ هو انَّ ثمة وعداً إلهيًّا قد قطعه على نفسه سالفاً ثم أخبر عن تحقُّقه وإنجازه كما قال الله تعالى بعد انْ إنتصر لبني إسرائيل ومكَّنهم من الأرض وأغرق فرعون وجنوده: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيل﴾[٢] فهو كان قد وعدهم بالنصر والتمكين من الأرض بقوله: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾[٣] فحين أنجز لهم ما وعدهم قال: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا

١- سورة الأنعام الآية/١١٤-١١٥.

٢- سورة الأعراف الآية/١٣٧.

٣- سورة القصص الآية/٥-٦.

يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾[1].

والمقام من هذا القبيل فإنَّ الله تعالى قد قطع على نفسه عهداً فحين أنجزه قال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ ثم قال: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ فقوله تعالى: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ سِيق مساق التعليل لقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾

وأما ما هي هذه الكلمة التي أفاد القرآن انَّها قد تمَّت فأيَّاً كانت فإنَّها لا تُؤثِّر فيما ذكرناه من انَّ المراد من الكلمات المنفي عنها التبديل هي الوعود التي قطعها الله تعالى على نفسه والتي لا ريب في انَّها لا تقبل التبديل.

والمُستظهَر من سياق الآيات انَّ المراد من الكلمة في الآية هي العهد الذي قطعه الله على نفسه انَّه يبعث في الأميِّن نبيَّاً ويجعل الكتاب الذي يُنزِّله عليه مهيمناً وحاكماً على كلِّ الكتب التي أنزلها على أنبيائه، فقوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾[2] له اتصال بما قبله من الآيات كما هو مقتضى فاء التفريع، وفي الآية ردٌّ على

١- سورة الأعراف الآية/١٣٧.

٢- سورة الأعراف الآية/١١٤.

المشركين اللذين لم يكونوا يؤمنون بنبوّة النبيِّ ﷺ، فهو تعالى يُلقِّن نبيَّه ﷺ الإستنكار على المشركين بأنَّه كيف تسألونه الحجّة على صدقه ونبوّته بعد أنْ أُنزل إليكم القرآن وهو حجّةٌ بيِّنةٌ مفصّلةٌ وكافية لإثبات صدقه، هل تريدون من ذلك أنْ يعتمد حَكَماً في الفصل بينه وبينكم غير الله تعالى، وكأنَّ أعينهم كانت على أهل الكتاب، لذلك خاطب اللهُ تعالى نبيَّه ﷺ بأنَّ أهل الكتاب يعلمون انَّ القرآن مُنزّل من عند الله بالحق ولكنَّهم يجحدون وإلا لبادروا إلى الإقرار والإيمان بك، فلا يُنتَظر منهم إنصاف لو حُكِّموا في هذا الشأن، ولذلك قال الله لنبيه ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ آَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾[1].

أو انَّ الله تعالى أراد من قوله ذلك تسلية نبيِّه ﷺ وشرح صدره بعد أنْ كذَّبه المشركون فأخبره عن الغيب وهو الصادق المُصدَّق عند نبيِّه ﷺ: إنَّ أهل الكتاب وإنْ جحدوا إلا انَّهم يعلمون انَّ القرآن الذي عندك منزَّلٌ من عند الله بالحق ثم أخبره للمزيد من تسليته وتفريج همِّه ومؤازرته معنوياً انَّ الأمر قد تمَّ والوعد قد أُنجز فلا تعبأ فإنَّ ما قطعناه على أنفسنا من البعث لرسولٍ وتأييده بالقرآن المهيمن والحاكم على كلٍّ الكتب قد تحقَّق، وقد تمَّت كلمة ربِّك صدقاً فهي لم تتخلف وعدلاً لأنَّ الله لا يعد

١- سورة الأعراف الآية/١١٤.

بما فيه ظلمٌ وحيفٌ على أحد أو لأنَّ ما تحقَّق من وعد الله كان وافياً ومساوياً ومعادلاً ومطابقاً تماماً لما كان قد إلتزمه جلَّ وعلا على نفسه، فلم ينقص من وعده شيئاً إذ انَّ الله تعالى لا يُخلف ولا يُنقص مِن وعده شيئاً، ولا مبدِّل ولا مغيِّر لكلماته.

وقد أشار القرآن إلى هذا الوعد الإلهي في آيات عديدة:

منها: ما ورد في سورة الصف على لسان عيسى عليه السلام: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾[١].

ومنها: ماورد في سورة البقرة من الدعوة المجابة لإبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٢].

ومنها: ما ورد في سورة الأعراف: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ

١- سورة الصف الآية/٦.

٢- سورة البقرة الآية/١٢٩.

عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[١].

ومنها: ما ورد في سورة البقرة: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾[٢].

ومنها: ماورد في سورة المائدة: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[٣].

ويمكن أنْ يكون مفاد قوله الله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ انّ الله جل وعلا في مقام تسلية النبيّ صلى الله عليه وآله وتفريج همّه قال لنبيّه صلى الله عليه وآله انّ الوعد الذي قطعتُه على نفسي قد صدر وإذا كان قد صدر فقد تمَّ وتحقّق فإنّ الله تعالى لا مبدّل لكلماته، فيكون المراد من الوعد بناءً على ذلك هو ما وعد به من النصر وظهور دينه على الدين كله كما في قوله تعالى في سورة الصف: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ

١- سورة الأعراف الآية/١٥٧.

٢- سورة البقرة الآية/١٤٦-١٤٧.

٣- سورة المائدة الآية/٤٨.

عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[١] وقوله تعالى في سورة الفتح: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾[٢].

وثمة مَن ذهب أو احتمل انَّ المراد من "كلمة ربك" في قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾[٣] هو حجَّة ربِّك، وثمة مَن ذهب أو احتمل انَّها دينه، وكلا الاحتمالين خلاف الظاهر ولكنَّ الأول لو كان هو المراد فإنَّ معنى لا مبدّل لكلماته هو انَّه لا ناقض لحججه، وليس في وسع أحدٍ تفنيدها، ولو كان المراد هو الإحتمال الثاني فإنَّ معنى لا مبدّل لكلماته هو انَّه لا مبدّل لدينه الذي إرتضاه لعباده، وليس في وسع أحدٍ تبديله بما هو خير منه للعباد.

وأما القول بأنَّ المراد من كلمة ربِّك في الآية هو القرآن فهو وإن كان أيضاً خلاف الظاهر كما إتضح مما تقدم إلا انَّه لو سلَّمنا جدلاً بأنَّ ذلك هو المراد فإنَّ الأحكام التي يجوز عليها النسخ ليست مشمولة لنفي التبديل،

١- سورة الصف الآية/٨-٩.

٢- سورة التوبة الآية/٣٣.

٣- سورة الأنعام الآية/١١٥.

وذلك لما بيَّناه عند الحديث حول الآية الثالثة وهي قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾[1] فلاحظ.

الخلاصة

والمتحصَّل مما ذكرناه انَّ الآيات الأربع التي نفت التبديل عن كلمات الله لم يكن شيئاً منها ظاهراً في انَّ الله تعالى لا ينسخ بعض أحكامه التي شرَّعها ويستبدلها بأحكام أخرى، فلا تكون هذه الآيات الأربع مناقضة كما زعم صاحب الشبهة لقوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾[2] وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[3].

تنويه:

على انَّه ينبغي التنبُّه إلى أمر كنَّا قد نبَّهنا عليه في أكثر من موردٍ من هذا الكتاب، وهو انَّ الحكم على كلامين بالتناقض إنَّما يكون فرع الإحراز لما هو مراد المتكلم من كلا الكلامين، فلا يصحُّ البناء على تناقض المتكلم في

١- سورة الكهف الآية/٢٧.

٢- سورة البقرة الآية/١٠٦.

٣- سورة النحل الآية/١٠١.

كلاميه مع إفتراض انْ يكون أحد كلاميه محتمِلاً لأكثر من معنى ويكون أحد هذه الإحتمالات غير مقتضٍ للتناقض لو كان هو مراد المتكلم واقعاً.

والمقام من هذا القبيل فإنَّ المعنى المراد من كلمات الله المنفي عنها التبديل لو تنزَّلنا جدلاً وقلنا انَّه لم يكن ظاهراً فيما ذكرناه في كلٍّ آية فهو يحتمل على أقل تقدير المعنى الذي ذكرناه ويحتمل المعنى الذي ذكره صاحب الشبهة، وحينئذ كيف يصحُّ التمسُّك بأحد الإحتمالين لإثبات التناقض والحال انَّ من المحتمل المعتدٍّ به انَّ المتكلم لم يكن مريداً للمعنى المستلزم للتناقض.

فالبناء على التناقض في مثل هذا الفرض سلوكٌ لغير طريق العقلاء وأهل المحاورة من ذوي الإنصاف والموضوعيَّة، فإنَّ أحداً من العقلاء لا يتَّهم المشرِّعين لقانونٍ بالتناقض لو وجد انَّ إحدى مواد القانون محتمِلة لأكثر من معنى، وكان أحد هذه الإحتمالات مستلزماً للتناقض مع مادةٍ أخرى لو كان هذا الإحتمال هو المراد واقعاً، فإنَّ إتِّهام المشرِّعين للقانون بالتناقض لا يكون مقبولاً لدى العقلاء بعد انْ كانت تلك المادة محتمِلة لمعنىً آخر غير مستلزمٍ للتناقض بل انَّ العقلاء في مثل هذا الفرض يستظهرون إرادة المشرِّع للمعنى غير المستلزم للتناقض.

والحمد لله رب العالمين

الشبهة الثامنة

التشبيه في آية النُّور

الشبهة الثامنة

التشبيه في آية النور

يقول القرآن في سورة الشورى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[1] وهو يعني انَّ الله سبحانه لا مثيل له، ليس كمثله أيٌّ شيء.. ثم يقول عن الله في سورة النور: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾[2] وهنا يُمثِّل القران الله بمشكاة ومصباح.. وإنْ قالوا المقصود نور الله وليس الله نفسه قلنا: إنَّ بداية الآية تذكر انَّ الله نفسه هو نور السموات والأرض أي المقصود بالنور هو الله نفسه.

١- سورة الشورى الآية/١١.

٢- سورة النور الآية/٣٥.

الجواب

بيانُ المراد من آية النور:

لا ريب في ظهور قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ أنَّ المشبَّه هو نور الله تعالى وليس ذاته جلَّ وعلا، فنورُ الله مَثَلُه كمثل المشكاة وليس ذات الله تعالى، والآية صريحة في ذلك حيث قال: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ ولم تقل مثل ذاته.

وأما انَّه تعالى وصف نفسه في صدر الآية بأنَّه نور السماوات والأرض فهو لا يعني أنَّ ذات الله عزَّ وجل هي نور السماوات والأرض أو انَّها كمثل السماوات والأرض بل المراد من قوله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هو انَّ الله عزَّ وجل منوِّر السماوات والأرض بمثل الشمس والقمر لو كان المراد من النور هو النور الماديّ، وهو الهادي لمَن في السماوات والأرض لو كان المراد من النور هو النور المعنوي.

الوجه في إسناد النور إلى الله تعالى:

فالتنوير -على أيٍّ تقدير- للسماوات والأرض هو فعل الله تعالى، وليس هو ذاته جلَّ وعلا، وإسناد النور إلى الله تعالى هو من إسناد الفعل إلى فاعله، ومساق قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هو مساق قوله في مثل سورة فاطر: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[١] إذ انَّ إسناد اسم فاطر إلى الله تعالى هو من إسناد الفعل -فطَرَ- إلى فاعله، وكذلك هو إسناد اسم الخالق إلى الله تعالى فإنَّه من إسناد الفعل إلى فاعله، ولذلك يُعبَّر عن مثل اسم الفاطر والخالق والرازق والبارىء والمصوِّر وشبهها، يُعبَّر عن مثل هذه الأسماء بالصفات الفعليَّة لله جلَّ وعلا، والصفاتُ الفعليَّة ليست من الصفات الذاتيَّة وإنَّما هي من صفات أفعاله جلَّ وعلا.

بحث في المراد من النور:

١- النور بمعنى الضياء:

والذي يُؤكِّد انَّ النور هو من فعل الله تعالى وليس عيناً لذاته ولا هو وصف لها قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ

١- سورة فاطر الآية/١.

وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾[١] فالنور في صريح الآية من جعل الله تعالى، والجعل يعني الخَلْق والإيجاد من العدم والذي هو من الفعل، وعليه فالنور شأنُه في ذلك شأن الإنسان وغيره من سائر المخلوقات، فكما عبَّر القرآن عن خلق الإنسان وإيجاده بالجعل فكذلك عبَّر في هذه الآية عن خلق النور وإيجاده بالجعل قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[٢] فالنور كالإنسان مجعولان لله تعالى، وذلك يقتضي المباينة التامَّة بين ذات الله تعالى وبين النور لوضوح انَّ الجاعل غير المجعول والخالق غير المخلوق. هذا لو كان المراد من النور هو الضياء.

٢-النور بمعنى الهداية:

وأما لو كان المراد من النور هو الهداية كما هو مستعملٌ كثيراً في القرآن الكريم فإنَّ معنى قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هو انَّه الهادي للسماوات والأرض أي انَّه الذي بعث الهداية في السماوات والأرض وما فيها ومَن فيها[٣] كما في قوله تعالى: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾[١].

١- سورة الانعام الآية/١.

٢- سورة البقرة الآية/٣٠.

٣- روى الصدوق في كتاب التوحيد ص١٥٥، بسنده عن العباس بن هلال، قال: سألت الرضا عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فقال: هادٍ لأهل=

فالنور لو كان بهذا المعنى فهو فعلٌ أيضاً من أفعال الله تعالى، كما هو واضحٌ جداً ويُؤكِّده مقتضى التعبير في آيات كثيرة من القرآن انَّ الله تعالى يهدي وانَّه هدى، وعبَّر عن النور بمعنى الهداية انَّه جاء من عند الله كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾[٢]، وعليه فليست الهداية هي عينُ ذات الله تعالى ولا هي وصفٌ لذاته جلَّ وعلا وإنَّما هي وصفٌ لفعله عزَّ جل، فيكون شأنُها شأن سائر الصفات الفعليَّة لله سبحانه.

وأما انَّه تعالى الهادي لمَن في السماوات والأرض وما فيها فمعنى ذلك انَّه تعالى أودعَ في جِبلَّة كلٍّ واحدٍ من خلقه ما يقتضي قيامه بوظيفته التي أُنيطت به تكويناً، فليس شيء من خلق الله تعالى إلا وقد جُبل بالنحو المناسب لخلقه على العمل بوظيفته التكوينيَّة المُناطة به من قِبَل الله تعالى.

فتعاقبُ الليل والنهار ودورانُ الشمس والقمر والنجوم والكواكب كلٌّ في فلكٍ يسبحون وما يترتَّب على ذلك من شئوناتٍ مُنتظِمة، ومراحلُ النمو التي تتدرَّج فيها النباتات والحيوانات وما تفعله الرياح والأمطار، والشئونات التي تكون عليها الجبال والأحجار والبحار وما يترتَّب عنها من آثار، كلٌّ

=السماء وهادٍ لأهل الأرض. وفي رواية البرقي: هدى مَن في السماوات وهدى مَن في الأرض.

١- سورة طه الآية/٥٠.

٢- سورة المائدة الآية/١٥.

ذلك يسير وفقَ قوانينَ مُتقنة ومنضبطة، فهذه القوانين التكوينيَّة المُودَعة في جبِلَّة هذه الخلائق هي المُعبَّر عنها بالهداية التكوينيَّة لله جلَّ وعلا لذلك فهو نور السماوات والأرض أي هو الهادي لها والمُودِع في مكنون خلقها ما يقتضي انضباطها في إطار نظامٍ مُتقن اقتضته عنايتُه وحكمته وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾.

فالهداية في الآية المباركة هي الهداية التكوينية، وثمة هداية تشريعية أُعطيت لمن منحه الله تعالى إدراكاً وعقلاً، وهذه هي الهداية التي أُشير إليها في مثل قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾[(١)] وقوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[(٢)] وقوله تعالى على لسان الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾[(٣)].

خلاصة:

والمتحصَّل مما ذكرناه انَّ النور في آية النور سواءً كان بمعنى الضياء أو كان بمعنى الهداية فإنَّه فعلٌ من أفعال الله سبحانه، وإسناده إلى الله تعالى في الآية هو من إسناد الفعل إلى فاعله عيناً كما هو إسناد الفاطر والخالق إلى الله تعالى.

١- سورة البلد الآية/١٠.

٢- سورة الإنسان الآية/٣.

٣- سورة الجن الآيتان/١-٢.

بيانُ الوجه البلاغي في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ..﴾:

وأما التعبير في الآية بالمصدر "اللهُ نور" بدلاً من اسم الفاعل منوِّر أو انَّه صاحب نور السماوات فمنشؤه أنَّ ذلك أبلغ في التأكيد على عموم نوره واستيعابه وسعته وشدَّته، ومثل ذلك مستعملٌ لهذا الغرض كثيراً في العرف وكلام العرب، فيقال "زيدٌ عدل" بدلاً من القول "زيد عادل"، فإنَّ العدول في المثال من اسم الفاعل إلى المصدر كان لغرض التعبير عن اتصاف زيد بكمال العدل واستيعاب العدل لتمام أفعاله.

أمثلةٌ من كلام العرب:

١-(أنَا نورُ قومٍ) يعني ذوو نور:

ومن أمثلة ذلك في كلام العرب قول الشاعر شبيب بن البرصاء:

ألم ترَ أنّا نور قومٍ وإنَّما يُبيِّن في الظلماءِ للناس نورُها[1]

فهنا أسند الشاعرُ المصدرَ "نور" إلى ضمير الجمع المتكلِّم "أنَّا" ومعنى ذلك انَّه أسند المصدرَ إلى ذات، فعدلَ عن القول: " أنَّا ذوو نورٍ وأصحاب نور" إلى القول" أنَّا نور" وذلك للتعبير عن شدة نفعهم وكثرته.

١- تفسير مجمع البيان -الشيخ الطبرسي- ج٧ ص٢٤٩.

٢- (أنتِ طلاق) يعني أنتِ طالق:

وقال الشاعر العربي:

فإنْ ترفقي يا هندُ فالرفقُ أيمن   وإنْ تخرقي يا هندُ فالخرقُ أشأمُ
فأنتِ طلاقٌ والطلاقُ عزيمةٌ   ثلاثٌ ومَن يخرق أعقُّ وأظلمُ[١]

وهنا أسند الشاعر كلمة "طلاق" وهي مصدر إلى ضمير المخاطَب، فكأنَّه قال: هندٌ طلاق، فأسند المصدر إلى ذات هند وأراد من قوله: هند طلاق أنَّها طالق، فاستعاض عن اسم الفاعل بالمصدر للتعبير عن تأكيد الإنفصال للعلقة الزوجية بينه وبين هند وانَّ هذا الطلاق لا رجعة بعده أبدا.

٣-(هي إقبالٌ وإدبار) يعني ذاتُ إقبالٍ وإدبار:

وقالت الخنساء الشاعرة العربية الشهيرة:

تَرْتَعُ ما غَفَلَتْ حتى إِذا ادَّكَرَتْ   فإنَّما هي إِقْبالٌ وإِدْبارُ[٢]

وهنا أسندت الشاعرة الإقبال والإدبار وكلٌّ منهما مصدر إلى الذات وهي ضمير الغائب المؤنَّث "هي" وأرادت من ذلك أنَّها ذات إقبالٍ وإدبار أو أرادت من المصدر اسم الفاعل أعني مُقبِلة ومُدبِرة، وعلى كلا التقديرين

١- خزانة الأدب -البغدادي- ج٣ ص٤٢٥.

٢- لسان العرب -ابن منظور- ج١٤ ص٤١٠.

فالغرض من الإستعاضة عن الإسم بالمصدر هو التعبير عن كثرة الإقبال والإدبار.

الخلاصة:

وبذلك يتبيَّن فساد دعوى التنافي بين قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ وبين قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ فمعنى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ هو انَّه سبحانه لا مثيل له إطلاقاً، وأما قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ﴾ فهو تشبيه لنوره والذي هو فعلٌ من أفعاله وليس تشبيهاً لذاته جلَّ وعلا، وأما انَّه تعالى نور السماوات فمعناه أنَّه الهادي للسماوات أي المُعطي للهداية التكوينيَّة والتشريعيَّة أو هو المنوِّر للسماوات والأرض بمثل الشمس والقمر، والتنوير وكذلك الهداية كلٌّ منهما فعلٌ من أفعال الله جلَّ وعلا، فليس هو عين ذاته ولا هو شيء شبيهٌ بذاته سبحانه وتعالى.

والحمد لله رب العالمين

الشبهة التاسعة

خطيئةُ الشرك مغفورةٌ بالتوبة

الشبهة التاسعة

خطيئةُ الشرك مغفورةٌ بالتوبة

يقول القرآن في سورة الزمر على لسان الرب: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[1]...!

هنا نرى الرّب يغفر الذنوب جميعا، فنطمئن إلى مستقبلنا عقب الموت ونحمد الله على رحمته بنا نحن المساكين المثقلين بالخطيئة، ولكن فرحتنا لم تدُم إذ يقول القرآن في سورة النساء: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً﴾[2].

١- سورة الزمر الآية/٥٣.

٢- سورة النساء الآية/٤٨.

الجواب

المراد من الآيتين:

إنَّ المراد من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ هو انَّ كل ذنبٍ أيّاً كان خطرُه بما في ذلك الشرك بالله تعالى فإنَّه قابلٌ لأنْ تناله المغفرة والعفو الإلهي إلا انَّ ذلك منوطٌ بالإنابة والتسليم لله جلَّ وعلا كما هو مقتضى السياق الذي وردت فيه الآية المباركة.

وأما المراد من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ فهو انَّ الله تعالى لا يغفر الشرك الذي أقام عليه صاحبُه ولم يُقلع عنه حتى مات، فهذا الذي لا تناله المغفرة، وأمَّا مَن كان متلبِّساً بالشرك ثم أقلع عنه وآبَ إلى ربِّه وأسلم له فإنَّ الله تعالى يغفر لمثله خطيئةَ الشرك.

فرضيتان وموضوعان:

فلا تنافي بين الآيتين أصلاً، إذ انَّ كلاً منهما تُخبر عن فرضيَّة مختلفة عن الفرضيَّة التي تُخبر عنها الآيةُ الأخرى، فالآيةُ من سورة الزمر تُخبر عن

انَّ كلَّ الذنوب حقيرِها وخطيرِها بما في ذلك الشرك تُغفر لمرتكبها إذا أناب إلى ربِّه وأسلم له، وهذا معناه انَّ قابلية الذنب للمغفرة ليس على إطلاقه في الآية من سورة الزمر بل إنَّ ذلك مقيَّدٌ بالإنابة والتسليم لله جل وعلا.

وأما الآية من سورة النساء فهي تُخبر عن انَّ خطيئةَ الشرك غير قابلةٍ للمغفرة إذا أقام المتلبِّس بهذه الخطيئة عليها ولم يُقلع عنها حتى مات، فأين هو التنافي؟! والحال انَّ موضوع الآية من سورة الزمر هو المنيب لربِّه التائبُ من خطيئته، وهذا يقتضي أن يكون موحِّداً مسلماً، فهو حين صار موحِّداً مسلِّماً أمره لشرع الله تعالى فإنَّ ذنوبه كلَّها بما في ذلك شركه السابق ينالها عفوُ الله وصفحُه، وأما موضوع الآية من سورة النساء فهو المُقيم على خطيئة الشرك إلى أنْ يموت، فهو الذي لا يُغفر له شركه.

الدليل:

واما الدليل على اختصاص الآية من سورة النساء بالمشرك الذي أقام على شركه ولم يُقلع عنه حتى مات، الذي يدلُّ على انَّه المقصود من الآية المباركة هو الوضوح الذي لا يخفى على مسلمٍ أو كافر بأنَّ الإسلام يقبل من المشرك إسلامه، فأكثر الذين أسلموا في صدر الدعوة كانوا مشركين، وقد قَبِل اللهُ تعالى إسلامهم ورضي عنهم ووعدهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ

اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[1] فأكثر هؤلاء الذين أثنت عليهم الآية ووصفتهم بالمهاجرين والأنصار وأخبرت عن انَّ الله تعالى قد رضي عنهم وأعدَّ لهم في الآخرة جناته، أكثر هؤلاء كانوا من المشركين، وفيهم الكثير ممَّن شاخ على الشرك بالله تعالى إلا انَّهم حين أسلموا وأخلصوا في توحيده قَبِل اللهُ تعالى إسلامهم وعفا عمَّا سلف من شركهم. بل إنَّ النبي صلى الله عليه وآله أساساً إنَّما بُعث لدعوة المشركين واليهود والنصارى إلى التوحيد ونبذ الشرك والضلالات واعتبر الخروج من الشرك وسائر الضلالات إلى الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر خروجاً من الظلمات إلى النور، وخاطب اللذين تركوا ما كانوا عليه من معتقدات وأذعنوا لدعوة الإسلام باللذين آمنوا، فكلُّ الآيات الكثيرة التي وعدت اللذين آمنوا بالنعيم المقيم يوم القيامة كانت تُخاطب فيمن تُخاطب اللذين أقلعوا عن شركهم وما كانوا عليه من أديان، إذ انَّ الناس قبل المبعث النبوي الشريف كان أكثرهم بين مشركٍ عابدٍ للوثن وبين نصرانيٍّ ويهودي، فالذين آمنوا كان أكثرهم من هؤلاء ورغم ذلك وعدتهم الآيات وخطابات الرسول صلى الله عليه وآله برضوان الله تعالى وعفوه وجناته. وهكذا فإنَّ أكثر الأنبياء كانوا قد بُعثوا إلى أقوامٍ مشركين أو ملحدين فكانوا يدعونهم للتوحيد

١- سورة التوبة الآية/١٠٠.

والعبوديَّة لله جلَّ وعلا ويَعِدونهم إنْ هم آمنوا ونبذوا الشرك والأوثان أنْ يغفر اللهُ لهم ويُدخلهم في رحمته ويمنحهم جنته وقد نصَّت على ذلك الكثير من الآيات.

فقبول توبة المُشرِك وشمول صفح الله تعالى وعفوه له أوضحُ من أنْ يحتاج إلى المزيد من البيان، وذلك وحده كافٍ لإثبات انَّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ مختصٌ بمَن أقام على شركه إلى أنْ مات.

هذا مضافاً إلى انَّ الآية وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ جاءت في سياق قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾[1] فهي تخاطب أهل الكتاب وتدعوهم إلى الإيمان قبل فوات الأوان وحلول يوم الإستحقاق، فحينذاك تُطمس وجوههم وتُردُّ إلى أدبارهم.

فلو كان إيمانهم غير مقبول وانَّه سوف لن يُغفر لهم حتى لو أذعنوا وآمنوا بما جاء به النبيﷺ فما الجدوى من دعوتهم، وهل سيستجيبون

١- سورة النساء الآية/٤٧.

مع افتراض انَّ استجابتهم لدعوة النبيصَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِه سوف لن تُنتج القبول بتوبتهم، إنَّ مجرَّد الإلتفات لذلك يستوجب الإذعان بأنَّ المقصود من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ هو انَّه لن يُغفر للمشركين شركهم يوم القيامة إذا خرجوا من الدنيا وهم مقيمون عليه.

وتوهُّم انَّ أهل الكتاب لم يكونوا مشركين فلا يكونون مشمولين لهذه الآية تُفنِّده الآيات التي أفادت انَّ منهم مَن كان يقول بأنَّ الله هو المسيح ابن مريم وانَّ الله تعالى ثالث ثلاثة، والآيات التي أفادت انَّهم يؤمنون بالجبت والطاغوت وانَّهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، والآيات التي أفادت بانَّ اليهود يقولون إنَّ عزيراً ابنُ الله وانَّ النصارى يقولون إنَّ المسيح ابن الله، فكلٌّ ذلك من الشرك الصريح، ورغم شركهم فإنَّ الله تعالى دعاهم إلى الإيمان ووعدهم بالمغفرة إنْ استجابوا كما وعد بذلك سائر المشركين، فممَّا ورد في ذلك تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1] فهذه الآيات

١- سورة المائدة الآيات/٧٢-٧٤.

تدعو النصارى من أهل الكتاب إلى نبذ الشرك والإنتهاء عمَّا يقولون من الكفر ثم تحضُّهم على التوبة والإستغفار: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ وتبشِّرهم بأنَّ الله غفور رحيم، فشركهم لن يمنع من أنْ تنالهم مغفرة الله تعالى إنْ هم تابوا وإستغفروا فإنَّه الغفور لخطايا عباده الرحيم بهم.

وبذلك تأكَّد ما ذكرناه من انَّ موضوع الآية من سورة النساء هو المُشرك المقيم على شركه، فهو الذي أفادت الآية انَّه لا ينال عفوَ الله تعالى ومغفرته، ولذلك فهي لا تُنافي الآية من سورة الزمر والقاضية بأنَّ الله جلَّ وعلا يغفرُ الذنوبَ جميعاً، لأنَّ موضوعها التائب المُنيب إلى ربِّه.

والذي يؤكِّد انَّ ذلك هو موضوع الآية المباركة هو انَّها واقعةٌ ضمن عددٍ من الآيات يمثِّل مجموعها مقطوعةً واحدة، ولذلك لا يصحُّ اجتزاؤها وملاحظتها للوقوف على مفادها بمنأىً عن سياقها، فإنَّه بعد أنْ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[١] أردف ذلك مباشرةً بقوله: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ

١- سورة الزمر الآية/٥٣.

الْمُتَّقِينَ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1].

فالآيات صريحةٌ جداً في انه ليس كلُّ أحدٍ سيناله عفوُ الله ومغفرتُه، فغير المُنيب والذي أسلم لربِّه قبل يوم العذاب لن يجد حينذاك سوى العذاب ولن يجد مَن ينتصر له: ﴿ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ وغير المُتَّبع لما أنزله الربُّ قبل مفاجئة العذاب حيث لا يدري متى يموت سينتابه الندم والحسرة على ما فرَّط في جنب الله تعالى، فهو يتمنَّى حين يرى العذاب أنْ يعود إلى الدنيا فيكون من المحسنين ولكنْ ولاتَ حينَ مَندَم، فانَّ الجواب يأتيه ليُعمِّقَ في قلبه الشعور بالندم: لقد كنتَ في الدنيا وجاءتك الآيات والبراهين ولكنَّك كذَّبتَ بها واستنكفتَ وتعاليتَ وكنتَ من الجاحدين، لذلك فمثل هؤلاء اللذين كذبوا على الله ونسبوا له ما لا يليق بساحته ترى وجوههم يوم القيامة مسودَّة ثم يكون مثواهم ومقامهم في جهنم، فهي مآل المتكبِّرين على الله تعالى، وأما الأتقياء فهم وحدهم مَن

١- سورة الزمر الآيات/٥٤-٦١.

سيحظى بالنجاة والفوز بنعيم الله تعالى، فهم اللذين لا يمسُّهم السوء ولا هم يحزنون أو يندمون.

هذا هو مفاد الآيات التي تصدَّرها قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ فهي مضافاً إلى وضوحها في الحثِّ على الإنابة والتوبة وعدم القنوط من رحمة الله تعالى والتبشير بمغفرة كلِّ الذنوب، هي كذلك واضحةٌ جداً في انَّ المُنيب لربِّه الذي أقلع عن خطاياه وشركه هو مَن سيحظى بغفران ذنوبه كلِّها، وأمَّا مَن أقام في غيِّه وإستنكف عن عبادة ربِّه وجحد بآياته وكذَّب بها فحظُّه يوم القيامة الحسرة والندامة ومثواه جهنم، فهي مثوى المتكبرين.

الخلاصة:

وبذلك اتَّضح من مجموع هذه الآيات انَّ الذنوب التي أفادت الآيةُ المباركة انَّ الله تعالى يغفرها جميعاً إنَّما هي ذنوب التائبين المُنيبين، اللذين أسلموا لله واتَّبعوا أحسن ما أنزل، وعليه فالمقيم على شركه ليس منهم، فهو غير مشمولٍ للآية المباركة وإنَّما هو داخلٌ فيمن توعَّدهم الله تعالى بالحسرة والندم وأعدَّ لهم جهنم لتكون مثوىً لهم، فليس لصاحب الشبهة أنْ يفرح ويطمئن لمستقبله كما زعم فإنَّه إنْ لم يرجع عن غيِّه ويثوب إلى رشده ويتوب إلى ربِّه ويكفُّ عن تكذيبه لآياته فلن يكون حظُّه يوم

القيامة إلا حظّ من أخبر الله تعالى عنه بقوله: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾[1].

والحمد لله رب العالمين

١- سورة الفرقان الآية/٢٧.

الشبهة العاشرة

توهُّم التنافي بين المُساءلة يوم القيامة ونفيها

الشبهة العاشرة

توهُّم التنافي بين المُساءلة يوم القيامة ونفيها

في سورة الصّافات يقول القرآن: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾[1] أي احبسوهم!

وفي سورة الأعراف: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾[2] مع انَّه ورد في سورة الرحمن: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾[3] أليس ذلك من التناقض؟!!

١- سورة الصافات الآية/٢٤.

٢- سورة الأعراف الآية/٦.

٣- سورة الرحمن الآية/٣٩.

الجواب

قليلٌ من التأمُّل:

بقليلٍ من التأمُّل في سياقات الآيات الثلاث والقرائن المكتنفة بكلٍّ منها يتبيَّن بجلاء عدم التنافي بينها ويتَّضح انَّ ما تُثبِته الآيتان من سورتي الصافَّات والأعراف من وقوع المساءلة مختلفٌ عما تنفيه الآية من سورة الرحمن.

(السؤال) و مدلولاته اللغويَّة:

فالسؤال -بمادَّته وأدواته- في استعمالات العرب وكما هو مُثبَتٌ في علم المعاني والبيان وكتب اللغة والأدب العربي يُستعمل في أكثر من مدلول تصل إلى أربعة أو تزيد نذكر منها ثلاثة:

الأول: السؤال لطلب المعرفة:

يُستعمل السؤال -بلفظه وأدواته مثل "هل ومتى"- ويُراد منه الإستخبار والإستعلام وطلب المعرفة لأمرٍ مجهول عند السائل، ومثال استعماله بمادَّته في هذا المعنى قول المريض للطبيب: أسألك عن أثر الحامض على

صحتي؟ فمادة السؤال استُعمِلتْ في المثال للاستعلام و الاسترشاد وطلب المعرفة.

ومثال استعمال أدوات السؤال في هذا المعنى قول الجاهل بهوية الرجل القادم: مَن هذا؟ أو مَن أنت؟ وقول المشتري للبائع: بكم تبيع هذه البضاعة؟ وقول التلميذ لأُستاذه: متى وقعت معركة اليرموك؟ أو أين وقعت؟ أو ما هو سبب نشوبها؟ أو مَن هو المنتصر فيها؟ وكم هو عدد القتلى؟

فكلٌ واحدٍ من هذه الخطابات يُعبَّر عنه بالسؤال، والغرض من إيراده هو الاستعلام من المخاطَب وطلب المعرفة لأمرٍ مجهول عند مَن صدر عنه الخطاب بالسؤال.

شواهد قرآنيّة على المدلول الأول:

وقد استعمل القرآن الكريم مادّة السؤال وأدواته في هذا المعنى كثيراً، فمثال استعماله بمادّته في هذا المعنى قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ

١- سورة البقرة الآية/١٨٩.

٢- سورة البقرة الآية/٢١٩.

الطَّيِّبَاتُ﴾[١] وقوله تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ﴾[٤] فمادّة السؤال في مثل هذه الآيات استعمل وأُريد منه الاستعلام وطلب المعرفة لأمرٍ مجهول.

ومثال استعماله بأدواته في هذا المعنى قوله تعالى على لسان فرعون يسأل موسى وهارون: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾[٥] وقوله تعالى على لسان الرسول صلى الله عليه وآله والَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ: ﴿مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾[٦] وقوله تعالى على لسان الإنسان: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾[٧] فأدوات السؤال -مَن، متى، أيَّان- في الآيات الثلاث سِيقت لغرض الاستفهام وطلب المعرفة لأمرٍ مجهولٍ عند السائل.

١- سورة المائدة الآية/٤.

٢- سورة يوسف الآية/٨٢.

٣- سورة النحل الآية/٤٣، سورة الأنبياء الآية/٧.

٤- سورة يوسف الآية/٧.

٥- سورة طه الآية/٤٩.

٦- سورة البقرة الآية/٢١٤.

٧- سورة القيامة الآية/٦.

الثاني: السؤال للتوبيخ:

يُستعمل السؤال بمادّته وأدواته في التوبيخ والتبكيت والتقريع أو المعاتبة والتلويم، ومثاله انْ يُخاطب السيد خادمه بقوله: لماذا أهملت في عملك؟ يقصد من ذلك توبيخه على إهماله، فهو لم يسأله مُستوضِحاً ولا طالباً لمعرفة شيءٍ يجهله بل قصَدَ من سؤاله توبيخه وتقريعه، ولهذا فهو لا ينتظر جواباً على سؤاله.

وهكذا حينما يُخاطب المُحسِن مَن أحسن إليه فقابل ذلك بالإساءة: أَلمْ أُحسن إليك؟ أليس كلٌ ما لديك كان من هباتي؟ ألم أُخلِّصك من الغُرماء اللذين كانوا يُطالبونك بأموالٍ لهم عليك؟ فإنَّ مثل هذه الأسئلة لم يقصِد منها السائل الاستفهام والاستعلام وإنَّما قصَد منها التوبيخ والتبكيت.

وكذلك حينما يُخاطب الناصح مَن كان قد نصحه فخالف نصيحته فوقع في المحذور: ألمْ أنصحك باجتناب هذا الأمر؟ ألم أُحذِّرك؟ فهو يقصد من ذلك معاتبته وتلويمه.

ومن ذلك ماورد في أمثال العرب: "أَحَشَفاً وسوء كيلة؟"[1] وقولهم: "أحشُّك وتروثني؟"[2] وقول الشاعر العربي: "أَطَرباً وأنتَ قِنَّسْرِيٌّ؟" أي تتعاطى الطرب واللهو وأنت شيخ كبير السن؟!

١- معنى الحشَف هو التمر الرديء اليابس، ومعنى سوء الكيلة هو البخس في المكيال وعدم الإستيفاء له أي بيع الناقص من الكيل بثمن الكامل منه، ومعنى المثل هو توبيخ البائع على سوء فعله حيث جمع بين مساءتين فخلط المبيع بتمر رديء وأضاف إلى سوء ذلك انَّه أنقص من مقدار المكيل فأعطى المشتري أقلَّ من مقدار الكيل الذي تمَّ التعاقد عليه.

فمُجمل المراد من المثل هو مخاطبة البائع خطاب توبيخ واستنكار بأنَّه جمع بين مساءتين: فبعتني تمراً رديئاً ولم تُوفِ الكيل الذي أعطيتك ثمنه كاملاً، فالسؤال هنا سيق لغرض التوبيخ للبائع حيث جمع على المشتري مساءتين فلم يكتفِ بغشِّه بل أضاف إلى هذه المساءة انَّه أنقصه في المكيال.

ويُضرب هذا المثل في كلِّ مورد أمعن المخاطب في الإساءة للمتكلم فلم يكتف بإساءة واحدة بل أضاف إليها إساءة أو إساءات أخرى.

٢- يُضرب هذا المثل العربي إذا أحسن أحدهم لآخر فقابل إحسانه بالإساءة، وأصله أن رجلاً كان يجزُّ الحشيش لفرسه ويطعمه وفي الأثناء سلح الفرس على صاحبه وراث عليه فخاطبه خطاب توبيخ وتعنيف: أحشُّك أي أجزُّ لك الحشيش وأُطعمك إيَّاه وأنت تروثني أي تقابل ذلك بأن تروث عليَّ، والروث هو فضلات الفرس.

شواهد قرآنيَّة على المدلول الثاني:

وقد استعمل القرآن الكريم السؤال في هذا المعنى كثيراً، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾[١] فإنَّ الغرض من سَوْق هذا الإستفهام هو التبكيت والتوبيخ على اتِّباع الشيطان، وكذلك هو الغرض من سؤال الملائكة لأهل النار في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ * قَالُوا أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾[٣] وقوله تعالى على لسان نبيِّه يعقوب عليه السلام موبِّخاً أبناءه: ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ﴾[٤] وقوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام موبِّخاً إخوته على ما اجترحوه في حقِّه: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾[٥] وقوله تعالى يحكي ما دار بين إبراهيم عليه السلام وقومه: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ

١- سورة يس الآية/٦٠.

٢- سورة غافر الآيتان/٤٩-٥٠.

٣- سورة التوبة الآية/٧٠.

٤- سورة يوسف الآية/٦٤.

٥- سورة يوسف الآية/٨٩.

يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾[١] وقوله تعالى مخاطباً المشركين وموبِّخاً لهم على لسان ملائكته: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾[٣] وقوله تعالى موبِّخاً ومقرِّعاً للمشركين على ما يعتقدون: ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ﴾[٤].

الثالث: السؤال للتقرير:

يُستعمل السؤال للتقرير أي طلب الإقرار والإعتراف أو الشهادة بأمرٍ معلوم لدى السائل، لأنَّ إرادته قد تعلَّقت بأنْ يُقرَّ المُخاطَب بمتعلَّق السؤال أو يشهد بإثباته أو نفيه أو تكون إرادته قد تعلَّقت بتذكير المُخاطَب بأمرٍ معلوم لدى كلٍّ من السائل والمخاطَب.

ومثال الأول أنْ يسأل المناظِر خصمه: هل تستطيع الطيران؟ وهل تتمكَّن من كتم نفسك ساعةً من الزمن؟ وغرضه من كلا السؤالين هو الإحتجاج عليه بإقراره بالعجز عن ذلك، فليس مقصوده من السؤال هو

١- سورة الشعراء الآيتان/٧١-٧٢.

٢- سورة الشعراء الآيتان/٩٢-٩٣.

٣- سورة الرحمن الآية/٦٠.

٤- سورة الصافات الآيات/١٥٣-١٥٦.

الاستعلام لأنَّ كلاً من السائل والمخاطَب يعلمان بأنَّ المُخاطَب غير قادرٍ على الطيران ولا على كتم أنفاسه ساعةً من الزمن.

ومثال الثاني أن يأتي الشاهد للقاضي فيشهد عنده على زيدٍ انَّه قتل خالداً فيُمهله القاضي حتى يحضر المتَّهم فيقول القاضي للشاهد: على ماذا تشهد؟ فإنَّ هذا السؤال من القاضي للشاهد لم يكن لغرض الاستعلام، لأنَّه قد علم بأنَّه يشهد بقتل زيدٍ لخالد ولكنَّه قصد من سؤاله الطلبَ من الشاهد بأنْ يُدلي بشهادته في محضر زيدٍ المتَّهم ليحتجَّ بذلك عليه.

وقد يصدر السؤال للتذكير بأمرٍ معلوم لكلٍّ من السائل والمخاطَب ولا ينتظر السائل جواباً ولا إقراراً، كما لو قال: ألستَ مريضاً؟ أليس الدواء نافعاً؟ يريد بذلك حثَّ المخاطَب على تناول الدواء، وكذلك لو قال أحدهم لصاحبه: أليس لك أبناء؟ أليس عليك رعايتهم؟ يريد بذلك حثَّه على التكسُّب.

شواهد قرآنيّة على المدلول الثالث:

وقد استعمل القرآن الكريم السؤال في هذا المعنى كثيراً، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ

١- سورة البقرة الآية/١٤٠.

مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾[١] وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ * اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[٣].

كيف يتم تحديد المراد من السؤال؟

فهذه معانٍ ثلاثة ضمن معانٍ أُخرى يُستعمل السؤال بمادَّته وأدواته في إفادتها، ويتمُّ تحديد المعنى المُراد من السؤال بواسطة القرائن المكتنفة للكلام المشتمل على لفظ السؤال أو أحد أدواته، فلا يصح البناء على إرادة المتكلم لمعنىً من هذه المعاني أو غيرها دون ملاحظة سياق الكلام والقرائن اللفظيَّة أو المقاميَّة أو العقلائيَّة المحتفَّة بالسؤال، لأنَّ السؤال بمادَّته وأدواته لمَّا كان متَّحداً في جميع الإستعمالات فإنَّه لا سبيل إلى

١- سورة المائدة الآية/١١٦.

٢- سورة فاطر الآية/٤٠.

٣- سورة العنكبوت الآيات/٦١-٦٣.

تمييز ما هو مراد المتكلِّم منه إلا بواسطة ما ينصبه أو يعتمده من قرائن تكشف بحسب الظهور العرفي عن مراده.

معالجة الشبهة:

وعلى هذا الأساس يتمُّ العلاج لما توهَّمه صاحب الشبهة، فهو قد توهَّم أن ما أثبتته الآيتان من سورتي الصافات والأعراف من وقوع المُساءلة هو عينُه ما نفته الآية من سورة الرحمن، لذلك بنى على انَّ بين الآيتين وبين الآية من سورة الرحمن تناقضاً، لأنَّ الآيتين تُثبتان وقوع المُساءلة يوم القيامة والآية من سورة الرحمن تنفي وقوع المُساءلة يوم القيامة.

إلا انَّه عند ملاحظة سياق الآيات الثلاث والقرائن المحتفَّة بها يتَّضح جليّاً انَّ ما نفته الآية من سورة الرحمن هو المُساءلة التي تكون لغرض الإستعلام وطلب المعرفة لأمرٍ مجهول، وأما إثبات وقوع المُساءلة في الآيتين فهي التي تكون لغرض التوبيخ المستبطِن للإدانة وإثبات المسئوليَّة أو الإحتجاج والتقرير، فما هو منفيٌّ في الآية من سورة الرحمن مختلفٌ عمَّا هو مُثبَت في الآيتين من سورتي الصافات والأعراف.

الآية الأولى: وقرائنُ المعنى المراد:

فمعنى قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ هو انَّه لا يُسأل أحدٌ من الإنس والجن يوم القيامة سؤال استفهام واستعلام، فإنَّ

ذنوب العباد التي كانوا قد ارتكبوها معلومةٌ تفصيلاً لله جلَّ وعلا، وكذلك هي معلومةٌ للملائكة الموكَّلين، فالمُساءلة المنفيَّة في الآية المباركة هي المُساءلة التي تكون لغرض طلب المعرفة لأمرٍ مجهول لدى السائل فإنَّ ذلك لن يقع يوم القيامة من الله تعالى ولا من ملائكته.

القرائن الدالّة على المعنى المُراد:

١- التعليل في الآية التالية:

والقرينة الواضحة على انَّ المنفيَّ في الآية المباركة هو السؤال الإستعلامي هي الآية التي تلت هذه الآية المباركة وسِيقتْ مَساقَ التعليل لعدم الحاجة إلى المساءلة الإستعلامية عن الذنوب، وهي قوله تعالى: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾[1] فإنَّ مفاد الآيتين صريحاً عند ملاحظة مجموعهما هو انَّ أحداً لا يُسأل عن ذنبه يوم القيامة سؤال استعلام، لأنَّ الله تعالى قد ميَّز المجرمين فجعل سيماءهم تدلُّ على اجتراحهم للذنوب، لذلك فإنَّ ملائكة الحساب وزبانية العذاب يأخذونهم سحباً من نواصيهم وأقدامهم دون أنْ يسألوهم عن أنَّهم هل كانوا قد اجترحوا ذنوباً أو لا.

١- سورة الرحمن الآية/٤١.

٢- آيات التمايز يوم القيامة:

وقد نصً القرآن الكريم في موارد عديدة على انَّ المجرمين والصالحين يتمايزون يوم القيامة بسيماهم وكيفية بعثهم وحشرهم إلى صعيد المحشر يوم القيامة، لذلك فكلٌ من الفريقين تكشف أحوالهم عمَّا كانوا قد فعلوه في الدنيا وعما ستئول إليه مصائِرهم في الآخرة، لذلك فإنَّ أحداً لا يُسأل يوم القيامة سؤالَ استعلام.

فمن الآيات التي تصدَّت للتعبير عن ذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۞ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۞ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[2].

١- سورة آل عمران الآيتان/١٠٦-١٠٧.

٢- سورة يونس الآيتان/٢٦-٢٧.

وقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ﴾[٤].

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إلى جَهَنَّمَ﴾[٥].

وقوله تعالى في وصف حال الأبرار: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾[٦].

١- سورة القيامة الآيات/٢٢-٢٥.

٢- سورة عبس الآيات/٣٨-٤١.

٣- سورة الإسراء الآية/٩٧.

٤- سورة الزمر الآية/٦٠.

٥- سورة الفرقان الآية/٣٤.

٦- سورة المطففين الآية/٢٤.

الآية الثانية: وقرائنُ المعنى المُراد:

وأما القرينة البيِّنة على انَّ المراد من المُساءلة في قوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ ليست هي المُساءلة الاستعلامية وإنَّما هي المُساءلة التي تكون لغرض التوبيخ وإثبات الإدانة فهو انَّ الإيقاف للسؤال بمقتضى سياق الآية يكون بعد قرار المصير بهم إلى الجحيم، قال تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ * وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾[1] فظاهر الآيتين السابقتين لآية الإيقاف للمساءلة انَّ استحقاقهم للعذاب كان مفروغاً عنه قبل حشرهم كما هو مقتضى توصيفهم بالظالمين حين الأمر بحشرهم وحشر ما كانوا يعبدون من دون الله، كما انَّهما ظاهرتان في انَّ الحكم عليهم بالتصيير إلى صراط الجحيم قد أُبرم لحظةَ حشرهم، فإنَّ الله تعالى قد أمر ملائكته بأنْ يهدوهم إلى صراط الجحيم ثم أمرهم بإيقافهم للمُساءلة، وذلك صريحٌ في انَّ المُساءلة لم تكن لغرض التعرُّف على استحقاقهم للعذاب أو عدم استحقاقهم وإلا لتأخَّر الحكم عليهم بالتصيير إلى الجحيم عن المُساءلة.

فتوصيفهم بالظالمين والحكم عليهم بتصييرهم إلى الجحيم قبل إيقافهم للمساءلة يكشف كشفاً قطعياً عن انَّ المُساءلة لم تكن للاستعلام وإنَّما هي لغرض الإدانة وتأكيد الحجَّة عليهم، وذلك يُساوق التوبيخ والتقريع، لأنَّ

١- سورة الصافات الآيات/٢٢-٢٤.

المسئول حين يعلم بأنَّ مَن يسأله يعلم بتفاصيل جريمته وحين يعلم المسئول بأنَّ قرار العقوبة على جريمته قد تمَّ اتخاذه فإنَّه لا يفهم من المساءلة إلا التوبيخ والتقريع، إذ لا معنى للسؤال إلا ذلك.

ولهذا أفادت الآيتان التاليتان لآية الإيقاف إنَّ الكافرين يقفون مبهوتين عاجزين عن الإنتصار لبعضهم البعض مستسلمين للمصير الحتمي الذي علموا انَّ إليه مآلهم، قال تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ * بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾[1] وتلك قرينة أُخرى على طبيعة المُساءلة التي يُقرَّعون بها، فلو كانوا يُسألون عن شيء يجهله السائل لكان لهم القدرة على الكذب والمناورة، ولكان ذلك موجباً لظنِّهم القدرة على الخلاص من ذلك الموقف لا انَّهم يقفون مستسلمين عاجزين عن الإنتصار لأنفسهم ولشركائهم.

الآية الثالثة: وقرائنُ المعنى المراد:

وأما القرينة البيِّنة على انَّ السؤال في قوله تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ ليس للاستعلام وطلب المعرفة لأمرٍ مجهول فهو ماورد في الآية المتَّصلة بهذه الآية، وهي قوله تعالى:

١- سورة الصافات الآيات/٢٤-٢٦.

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾[١] إذ لا معنى للسؤال استعلامياً مع الإخبار بأنَّ الله تعالى سوف يتصدَّى حين سؤالهم لإنبائهم بدقائق ما كانوا يعملون كما هو مقتضى مفاد قوله تعالى: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم﴾ وانَّ ما سوف يقصُّه عليهم ليس حدساً أو خبراً ظنِّياً قد تلقَّاه عن أحوالهم بل هو إنباءٌ لهم عن علمٍ شهودي، فهو تعالى حاضرٌ غير غائبٍ مطَّلعُ بذاته المقدسة على تفاصيل ما كانوا يعملون كما هو مقتضى مفاد قوله تعالى: ﴿بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾.

فهو إذن سوف يسألهم عن أمرٍ يعلمه تفصيلاً، ولا يصدر السؤال من عالمٍ للاستفهام والاستعلام وإنَّما يصدر في مثل المقام إما للتوبيخ أو التقرير، فهو توبيخٌ وتقريعٌ وإدانةٌ للظالمين اللذين أُرسل إليهم كما هو مقتضى ظهور الآية في التحذير والتهديد: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾، وهو سؤال تقريرٍ للمرسَلين، إذ لا ريب انَّ المرسَلين قد التزموا بوظائفهم على أكمل وجه، فمُساءلتُهم تكون لغرض إثبات الحجَّة والإدانة على من أُرسل إليهم، فيكون التهديد بمُساءلتهم متَّجهاً لمن أُرسل إليهم، فمفاد قوله تعالى: ﴿وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ فلنُشهدنَّ المرسَلين على أُممهم، فسؤال الرسل سؤال تقرير وإشهاد، وهو موجبٌ في محضر الظالمين للمزيد من التقريع والتأكيد للحجَّة عليهم.

١- سورة الأعراف الآية/٧.

الخلاصة:

وبما ذكرناه يتضح جليّاً انّه لا تناقض بين نفي المُساءلة يوم القيامة في سورة الرحمن وبين إثباتها في سورتي الصافات والأعراف، فإنَّ المساءلة في لغة العرب واستعمالاتهم تقع على معانٍ متباينة ويتمُّ تحديد المعنى المراد منها من ملاحظة السياق والقرائن المحتفَّة بالسؤال، وحيثُ انَّ المُساءلة المنفيَّة في سورة الرحمن قد قامت القرينة البيِّنة على انَّ المراد منها هي المساءلة الاستعلامية وانَّ المُساءلة المُثبتة في سورتي الصافات والأعراف قد قامت القرينة البيِّنة على انَّ المراد منها المُساءلة لغرض التوبيخ والإدانة أو التقرير لذلك لا يكون ثمة تنافٍ بين الآية من سورة الرحمن والآيتين من سورتي الصافات والأعراف.

والحمد لله رب العالمين

الشبهة الحادية عشر

بصرُه حديد أو يُحشرُ أعمى؟

الشبهة الحادية عشر

بصرُه حديد أو يُحشرُ أعمى؟

ورد في القرآن في سورة ق: ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[1] أي في يوم القيامة. وذلك يُناقض ما في سورة حم عسق: ﴿خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾[2]. وهما تناقضان ما ورد في سورة طه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾[3] وما ورد فيها أيضاً: ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾[4].

١- سورة ق الآية/٢٢.

٢- سورة الشورى الآية/٤٥.

٣- سورة طه الآية/١٢٤.

٤- سورة طه الآية/١٠٢.

الجواب

الكلام في ثلاثة محاور:

المحورالأول: في قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾:

معنى العمى في الآية الكريمة:

ليس المراد من العمى في قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ هو فقدُ القدرة على الإبصار والنظر إلى المحسوسات بل المراد من العمى في الآية المباركة هو الحيرة التي يفقد معها الإنسان القدرةَ على تمييز الطريق الذي يقوده إلى مقصده أو إلى نجاته، وهي كثيراً ما تقع نتيجةَ مفاجئةِ أمرٍ مهولٍ لم يكن محتَسباً، فهو حينئذٍ ينتابه الذهول، فلا يدري أيَّ طريقٍ يسلك لينجو بنفسه من الخطب المهول الذي كان قد فاجئه، فهو في مثل هذا الظرف يحتاج إلى مَن يقوده أو يُعرِّفه وسيلةَ الخلاص كما يحتاج الأعمى إلى مَن يقوده إلى مقصده.

فالآيةُ المباركة تحكي واقعَ الحال الذي يكون عليه العُصاة يوم القيامة حين معاينتهم لأهوالها، فهم حينذاك ينتابهم الذهول وتستحكم بهم الحيرة

حيث لا يجدون طريقاً يسلكُ بهم إلى النجاة ممَّا يجدونه قد أُعدَّ لهم من عذابِ جهنم، وكلٌّ مَن تُحدق بهم مصيبة فإنَّ حيرتهم تنشأ عن رغبتهم في النجاة مع عدم وجدانهم لطريق النجاة لذلك فهم بحاجةٍ إلى مَن يقودهم إلى ما فيه خلاصهم كما هو شأن الأعمى حيث لا يتمكَّن من التعرُّف على الطريق الذي يبتعدُ به عن المعاثر والمهاوي فيظلُّ حيران ينتظر مَن يقوده إلى الطريق السالك، ذلك هو ما يكون عليه العصاة يوم القيامة، فهم يرجون النجاة لكنَّهم لا يجدون طريقاً إليها فيأملون انْ ينتشلهم ربُّهم أو ملائكتُه أو أنبياؤه مما هم منساقون إليه من عذاب، فلا يجدون سوى التجاهل والإعراض، وذلك هو معنى قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾.

فهو حين كان في الدنيا كان مُعرِضاً عن ذكرِ الله تعالى لا يعبأُ به ولا يكترثُ بشرائعه، لذلك فهو حين صار إلى الآخرة وعاينَ أهوالها وعُمِّيت عليه وسائل النجاة فأمَّل حينذاك أنْ يقوده ربُّه إلى نجاة وجد أنَّ مآل أمله هو الخيبة، فهو يُخاطَب بأنَّكَ كنتّ ناسياً لآيات الله في الدنيا فأنت منسيٌّ في الآخرة، فلن تجد من ينتشلك مما أنت منساقٌ إليه من عذاب.

هذا هو مفاد قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾[١].

العمى هو الحيرة وضلال الطريق:

فالأعمى في الآية المباركة استُعمل وأُريد منه الحيران، والحيرةُ تستبطنُ معنى الضلال عن الطريق المُفضي للخلاصِ والنجاة من العذاب فشأنُ المتحيِّر من هذه الجهة شأنُ الأعمى الذي يضلُّ طريقه المُفضي إلى مقصده الذي يبتغيه، فكلٌّ منهما ضالٌّ عن طريقه المنشود، وكلٌّ منهما يرجو أنْ يجدَ من يُرشده إلى مبتغاه لكنَّ الثاني قد يجد مَن يقوده إلى مقصده المنشود، وأما الأول الذي ضلَّ طريق نجاته يوم القيامة فإنَّه لن يجد مَن يقوده إلى نجاته.

الدليل على معنى العمى:

أ- العطف التفسيري

والذي يُؤكِّد إرادةَ الحيرةِ والضلال من لفظ العمى في الآية المباركة ما ورد في آيةٍ أخرى، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي

١- سورة طه الآيات/١٢٤-١٢٦.

الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾[1] فقوله: ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ عطفُ تفسيرٍ على كلمة الأعمى الثانية لذلك فمعنى الآية: مَن كان في الدنيا ضالاً لطريق الهدى الذي هو سرُّ سعادة الإنسان فهو في الآخرة أكثر حيرةً وضلالاً لطريق سعادته ونجاته.

ب- التعليل بالنسيان:

والمؤكِّدُ الآخر انَّ الآيات أفادت في مقام الجواب عن تساؤله عن إصابته بالعمى أنَّه كان ناسياً لذكر الله تعالى في الدنيا فهو في الآخرة منسيٌّ مُعرَضٌ عنه، فلو كان المراد من العمى هو عمى البصر لم يكن وجهٌ لإجابته بأنَّه كان ناسياً لذكر الله فهو اليومَ منسيٌّ، إذ لا ربط بين معاقبته بسلب بصره وبين تعليل ذلك بأنَّه منسي، وهذا بخلاف ما لو كان المراد من العمى هو الضلال والحيرة فهو يتساءل أو هو يرجو بلسان التساؤل إنقاذه أو إرشاده لوسيلة الخلاص من هَول ما يجد من عظيم الأخطار المُحدقة فيأتيه الجواب انَّك منسيٌّ معُرَضٌ عنك فكابدْ عناءَك وحدَك فلن تجدَ من يُسعفك أو يُبصِّرك طريق الخلاص فعقوبتك بذلك من جنس عملك في الدنيا، فقد كنتَ في الدنيا مُعرِضا ناسيًا لذكر الله لذلك فأنت اليوم منسيٌّ مُعرَض عنك، فيزداد لذلك حسرةً وحيرة.

١- سورة الإسراء الآية/٧٢.

ج- الاستفهام التذلُّلي:

فقوله: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى﴾ لم يكن تساؤلاً استنكارياً لأنَّه في ظرفٍ يُخشى فيه من الإستنكار والإعتراض، ولا يُناسبه سوى الالتماس والتذُّلل والرجاء، لذلك فهو حين قال: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى﴾ كان يرجو من ذلك انتشاله مما هو فيه من الحيرة المطبِقة التي لا يجد معها سبيلاً إلى خلاصٍ سوى مناجاة ربِّه.

الدليل على انَّ العمى هنا ليس بمعنى فقد البصر:

هذا وقد أفادت آياتٌ كثيرة متفرِّقة في سور القرآن انَّ المستحقِّين لعذاب جهنم يوم القيامة واجدون لملكة الإبصار، وذلك يكشف بما لا يدع مجالاً للشك أنَّ المراد من العمى في الآية -التي هي مورد البحث- هو غير العمى الذي يعني فقدَ البصر والرؤية للمحسوسات:

فمن هذه الآيات قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾[1].

ومنها: قوله تعالى في سورة النحل: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾[2].

١- سورة البقرة الآية/١٦٦.

٢- سورة النحل الآية/٨٥.

ومنها: قوله تعالى في سورة النحل: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾(١).

ومنها: قوله تعالى في سورة فصلت: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾(٢).

ومنها: قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾(٣).

ومنها: قوله تعالى في سورة الزمر: ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾(٤).

١- سورة النحل الآية/٨٦.

٢- سورة فصلت الآيات/١٩-٢٢.

٣- سورة الكهف الآية/٥٣.

٤- سورة الزمر الآية/٥٨.

ومنها: قوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[١].

ومنها: قوله تعالى في سورة النازعات: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ * قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾[٢].

ومنها: قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾[٣].

ومنها: قوله تعالى في سورة الأحقاف: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾[٤].

ومنها: قوله تعالى في سورة السَّجدة: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾[٥].

١- سورة الفرقان الآية/٤٢.

٢- سورة النازعات الآيات/٦-٩.

٣- سورة البقرة الآية/١٦٥.

٤- سورة الأحقاف الآية/٣٥.

٥- سورة السجدة الآية/١٢.

ومنها: قوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾[1].

فهذه الآيات وغيرها كثيرةٌ ومتفرقةٌ في سور القرآن، وهي صريحةٌ وظاهرةٌ في واجديَّة العصاة يوم القيامة لمَلَكة الإبصار، وكان الرسولُ صلى الله عليه وآله يتلوها في محافل المسلمين وفي الصلوات اليوميَّة ويُمليها على كتَّاب الوحي ويأمر المسلمين باستنساخها وتعاهد تلاوتها وحفظها، فلو كان المراد من العمى في الآية التي هي مورد البحث وشبهها هو فقدُ البصر لما كان يخفى عليه التنافي بينها وبين هذه الآيات الكثيرة، فلو سلَّمنا جدلاً انَّ النبيَّ صلى الله عليه وآله لم يكن نبيّاً فإنَّه كان دون خلاف من أكمل الناس عقلاً وأكثرهم فطنة، لذلك لا يخفى مثلُ هذا التهافت على مثله بل هو لا يخفى حتى على مَن هو دونه في العقل والفطنة، وذلك لوضوح امتناع واستحالة أنْ يصدرَ من عاقلٍ إثبات العمى وفقد البصر لشخصٍ ونفيه عنه في ذات الوقت وهو الدار الآخرة، ولهذا يتعيَّن عدم إرادة فقدِ البصر من لفظ العمى في الآية التي هي مورد البحث، ويتأكَّد ما ذكرناه من انَّ المراد من العمى في الآية المباركة هو غير المعنى الذي توهَّمه مثيرُ الشبهة.

١- سورة إبراهيم الآيتان/٤٢-٤٣.

المنشأ في توهُّم التناقض:

والمتحصَّل مما بيَّناه انَّ دعوى التنافي بين الآيات المُثبِتة لقدرة العصاة على الإبصار يوم القيامة وبين الآيات التي وصفتهم بالعمى لا تعدو الوهم الناشئ عن القصور وعدم المعرفة بأساليب الكلام العربي، فإنَّ توصيف الكافر بالأعمى سِيقَ على نهج المجاز المُعبَّر عنه عند علماء البلاغة بالتشبيه المؤكَّد ويُسميه بعضُهم التشبيه البليغ الذي يتمُّ فيه حذف أداة الشبَه، فمعنى قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ هو انَّه يُحشر يوم القيامة كالأعمى، فأداةُ الشبَه وهي الكاف حُذفت لغرض التأكيد على شدَّة التشابه بين المشبَّه وهو الكافر وبين المشبَّه به وهو الأعمى، ووجهُ الشبَه بينهما هو انَّ كلاً منهما قد ضلَّ طريقه المنشود، فكلاهما يحتاج إلى مَن يقوده أو يُرشده إليه.

المحور الثاني: في قوله تعالى: ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾:

أ- الحدَّة بكلا المعنيين لا تُنافي العمى:

وأما قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[1] فإنَّ فقرة: ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ لو كانت بمعنى

١- سورة ق الآية/٢٢.

الحدّة في النظر فإنَّه لا يُنافي قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ وذلك لما بيَّناه من انَّ مراد الآية الثانية إنَّما هو تشبيه المُعرِض عن ذكر الله تعالى بالأعمى، وليس المراد منها توصيفه بالفاقد لملكة الإبصار حتى يكون ذلك منافياً لوصف بصره في الآية الأولى بالحدّة، على انَّ مِن غير البيِّن انَّ الموصوف بالحدّة في الآية الأولى هو الإبصار والنظر بل الظاهر منها انَّ الموصوف بالحدّة هو البصيرة كما هو مقتضى السياق، إلا انَّه على كلا التقديرين لا يكون بين الآيتين تنافٍ أصلاً.

ب- الحدّة بكلا المعنيين لا تُنافي النظر من طرفٍ خفي:

وكذلك فإنَّه لا تنافي بين الآية الأولى وبين قوله تعالى: ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾[١] فإنَّه بناءً على انَّ الموصوف بالحدّة في الآية الأولى هو البصيرة والمعرفة فإنَّ الأمر في غاية الوضوح، إذ أيُّ مانعٍ من اتِّصافهم بالبصيرة الثاقبة لإنكشاف الحقائق لهم وبين وصف حالهم بالخشوع المقتضي لخفض الرأس والنظر على نحو الإنكسار والتلصُّص، بل إنَّ بين الوصفين تمام الملائمة، فلأنَّ الحقائق قد انكشفت لهم فأصبحت بصائرهم ثاقبة فأدركوا عظمةَ خالقهم وعاقبةَ ما كانوا يجترحونه وجلالَ ما كانوا يستصغرونه، لذلك فهم وجِلون ناكسوا رؤوسهم من استشعار الذلِّ والهوان، فلا يكون نظرهم حينذاك إلا

١- سورة الشورى الآية/٤٥.

على سبيل الإنكسار والتلصُّص والذي يقتضي عادةً خفض الطرف خلافاً لمَن لا يكون هذا وصف حاله فإنَّه ينظر للشيء أو لمخاطِبه بملئ عينيه وجهاً لوجه فلا يعتري نظره خفضٌ وانكسار.

فعدمُ التنافي بين الآية الأولى بناءً على تفسير البصر بالبصيرة وبين النظر من طرفٍ خفي واضحٌ بل هو في غاية الوضوح، وكذلك هو واضحٌ بناءً على تفسير الحدَّة في البصر بالحدَّة في الإبصار والرؤية، فإنَّه لا مانع من اتَّصاف نظرهم بالحدَّة وفي ذات الوقت يكون وصف حالهم أنَّهم خاشعون من الذل وإذا نظروا للشيء أو لمَن يُخاطبهم نظروا إليه بانكسار وتلصُص كأنَّهم يسترقون النظر، وذلك لخشيتهم من أنْ يتضاعف الغيظُ منهم والغضبُ عليهم إذا ملئوا أعينهم بالنظر إلى ما حولهم أو إلى مَن يُخاطبهم وكأنَّهم غير مكترثين، فطبعُ الخائف المُجترِح للقبائح أنْ يكون نظره خفيضاً حينما يكون مُنتظِراً للعقوبة أو كان في موقع المُساءلة وذلك لاستدرار العطف والشفقة، والنظر بهذا النحو لا يعني أنَّ بصره ضعيف، إذ لا ربط بين النظر على نحو الإنكسار والتلصُّص وبين قوة البصر وضعفه كما هو أوضح من أن يخفى، وليس المقصود من قوله: ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أنَّه إذا نظر إلى الأشياء نظر إليها بملء عينيه حتى يكون ذلك منافياً للنظر من طرفٍ خفي أي بانكسار ومُسارقة.

المحور الثالث: ﴿... زُرْقًا﴾:

وأما قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ فإنَّه لا يُنافي أيضاً الآيات المُثبِتة لواجديَّة المجرمين يوم القيامة لملكة الإبصار والنظر للمحسوسات، وذلك لأنَّ المراد من الأية يحتمل وجوهاً عديدة ذكرها المفسرون:

الوجوه المحتملة في تفسير الآية الكريمة:

١- زُرقة الإعياء والهلع:

منها: انَّ الآية إنَّما هي بصدد التعبير عن شدَّة ما يكونون عليه من الفزع والهلع، وكذلك الإعياء والتعب فذلك ينعكس على أبدانهم فتبدو شاحبةً تميل إلى الزُرقة وكذلك ينعكس على أعينهم فيبدو سوادها وكأنَّه استحال إلى زُرقة من شدَّة ما هم عليه من الإعياء والفزع، وذلك ملاحَظٌ لمَن يكون هكذا وصف حاله في الدنيا.

٢-زُرقة الظمأ:

ومنها: انَّ الآية بصدد التعبير عن شدَّة ما ينتابهم من الظمأ، فمعنى أنَّهم يُحشرون يوم القيامة زرقا هو انَّهم يُحشرون عطشى ظامئين، فإنَّ العطش إذا تعاظم واشتدَّ ظهرَ أثرُه في العين فيبدو لونُها وكأنَّه استحال إلى الزُرقة.

وكونهم يُحشرون يوم القيامة عطشى ظامئين دلَّ عليه مثل قوله تعالى: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إلى جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾[١] أي عطشى.

٣- زُرقةٌ للتقبيح والإذلال وعلامةٌ لأجل الفضيحة:

ومنها: انَّ المراد من الآية هو انَّ المجرمين يُحشرون يوم القيامة وقد ازرقَّت عيونهم كما انَّهم يُحشرون مسودَّةً وجوههم فتقبح بهذا وذاك صورهم، فيكون ذلك من الإمعان في إذلالهم.

أما اسوداد وجوههم فأفاده مثل قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ﴾[٢]، وأما زُرقة أعينهم فللآية المباركة، وكذلك فإنَّهم يُوسمون على آنافهم بميسمٍ مُلتهبٍ يظهر أثرُه بيِّناً على آنافهم في مشهد القيامة كما أفاد ذلك قوله تعالى: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾[٣] فيكون وسْمُهم في هذا الموضع من الوجه لذات الغرض المذكور وهو الإذلال أو يكون الغرض من فعل كلٍّ ذلك بهم هو فضحهم على رؤوس الأشهاد مضافاً إلى إذلالهم، وذلك لأنَّ ظهورهم بهذا المظهر القبيح والمتميِّز يكون علامةً على انَّهم من المجرمين فيكون ذلك سبباً لافتضاحهم وتعرُّف الناس في مشهد القيامة على سوء ما كانوا عليه في

١- سورة مريم الآية/٨٦.

٢- سورة الزمر الآية/٦٠.

٣- سورة القلم الآية/١٦.

الدنيا وسوء المصير الذي سوف يُساقون إليه، قال تعالى: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾[1].

لا منافاة على جميع الوجوه!

وعليه فلو كان المراد من الآية المباركة هو أحد هذه الوجوه المذكورة فإنَّ الآية لن تكون منافية لما دلَّ على انَّ المجرمين واجدونَ يوم القيامة لملكة الإبصار.

وأما احتمال إرادة العمى من الزُرقة فإنَّه مع قطع النظر عن ضعفه فهو لا يقتضي الحكم بوجود التناقض بين الآية وبين الآيات الدالَّة على وجدان المجرمين يوم القيامة لملكة الإبصار، وذلك لأنَّ الحكم بالتناقض بين كلامين لا يتمُّ إلا مع الجزم بمراد المتكلم في الموردين، وقد اتَّضح انَّ إرادة العمى من كلمة "زرقا " في الآية لا يعدو الاحتمال المقابِل لإرادة احتمالاتٍ أخرى إنْ لم تكن أوجه منه فهي مساويةٌ له.

مثالٌ توضيحي:

ولمزيدٍ من التوضيح نذكر لذلك مثالاً هو انَّه لو أخبرك عاقلٌ ملتفت بخبرٍ بيِّنٍ واضحٍ مفاده أنَّ أباه قد مات منذُ سنين وقد تمَّ دفنه في هذه المقبرة وأُقيم الحدادُ والعزاءُ عليه في هذا المجلس، ثم إنَّ هذا الذي

١- سورة الرحمن الآية/٤١.

أخبَركَ بموت أبيه قال لك في يومٍ آخر: إنّ أبي مسرورٌ في هذا اليوم، فهنا احتملَ المخاطَب انّ هذا المتكلِّم يُخبر عن انّ أباه حيٌّ يُرزق، وذلك لأنّ السرور من شأن الأحياء، فمقتضى إخباره بسرور أبيه هو الإخبار بحياته، وعليه فإنّ هذا المتكلِّم يُناقض نفسه، لأنَّه كان قد أخبر أنّ أباه قد مات وهو الآن يُخبر عما يستلزم حياته لذلك فإنّ هذا المتكلم متناقض!!

فهل يصحُّ ذلك من المخاطَب المتلقِّي للكلامين؟! أي هل يصحُّ له انّ يبني على تناقض المتكلِّم الذي افترضناه عاقلاً ملتفتاً لمجرَّد احتمال انّه أراد من كلامه الثاني الإخبار عن موت أبيه، ألا يُحتمل انَّه أراد من قوله انّ أباه مسرور في هذا اليوم هو انّه قد تحقَّق في هذا اليوم ما كان يتمنَّاه أبوه في حياته أو انَّه أراد الإخبار عن انَّه قد أحسن في هذا اليوم لبعض المعوزين باسم أبيه فكان ذلك مقتضياً لإبتهاج روح أبيه وهو في قبره، فكلٌ ذلك وغيره محتمَلٌ من كلامه الثاني، وعليه فلا يصحُّ البناء على تناقض المتكلِّم ما دام الاحتمال الذي لا يُناقض الخبر الأول وارداً، إذ انّ اتهام المتكلِّم بالتناقض في كلاميه يكون من الظلم المستقبَح، لأنَّه من الاتهام دون علم، وذلك لاحتمال عدم إرادته للمعنى المُستلزِم للتناقض، بل إنّ مقتضى الإنصاف واحترام عقول الناس وكذلك فإنّ مقتضى أُصول الكلام عند أهل المحاورة هو استبعاد احتمال إرادة المتكلِّم للمعنى

المُستلزِم للتناقض والبناءُ على إرادة المتكلِّم لأحد الإحتمالات الغير مستلزمة للتناقض.

لا تناقض إلَّا مع الإنحصار في المعنى المناقض:

نعم لو لم يكن للكلام الثاني معنىً محتمل إلا المعنى المناقِض للكلام الأول فحينئذٍ لا يسعنا إلا البناء على وقوع المتكلِّم في التناقض إلا انَّ الأمر ليس كذلك في المثال المذكور، وهو ليس كذلك أيضاً بالنسبة لقوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ فإنَّ احتمال إرادة العمى من كلمة "زرقا" ليس هو الإحتمال المتعيِّن من الآية بل ولا هو الاحتمال الراجح، ولذلك لا يصحُّ البناء على مناقضة الآية للآيات المتقدِّمة بل يتعيَّن استبعاد هذا الإحتمال لما ذكرناه من أنَّ ذلك هو مقتضى أُصول الكلام عند أهل المحاورة، وهو كذلك مقتضى الإنصاف واحترام عقول الآخرين.

وجوابٌ أخير:

على انَّ ما بيَّناه في مقام الحديث عن قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ يصلحُ جواباً على احتمال إرادة العمى من كلمة "زرقا" في الآية المباركة، فلو كان مفاد قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ هو انَّه نحشرهم يوم القيامة عمياً فإنَّ معنى ذلك أنَّه نحشرهم حيارى كما هو

شأنُ الأعمى عندما يضلُّ طريقه ولا يجد مَن يقوده إلى مقصده الذي يرغب في الوصول إليه.

والحمد لله رب العالمين

الشبهة الثانية عشر

إبراهيم لم يتَّخذ
الشمس والقمر والنجوم أرباباً

الشبهة الثانية عشر

إبراهيم لم يتَّخذ الشمس والقمر والنجوم أرباباً

في سورة النساء يقول القرآن: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[1] والشرك هو اتّخاذ آلهةٍ مع الله أو دونه إلا انَّه نجد في سورة الأنعام أنَّ إبراهيم اتَّخذ الشمس والقمر والنجوم آلهةً من دون الله، وهذا شرك فهل غُفر شرك ابراهيم أو لم يُغفر؟!

١- سورة النساء الآية/٤٨، سورة النساء الآية/١١٦.

الجواب

يُمكن الإجابة بثلاث إجابات:

أولاً: جواب جدلي

تمهيد: تفسير الشرك الذي لا يُغفر

إنَّ معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ هو إنَّ خطيئة الشرك إذا إمتدَّ أمدها إلى آخر العمر، فمات الإنسان وهو مشركٌ بالله تعالى فإنَّ هذه الخطيئة لا تُغفر له أبدا، وما عدا هذه الخطيئة من الذنوب فهو معلَّقٌ على المشيئة الإلهية فإنْ شاء اللهُ تعالى غَفرَ وإنْ شاء لم يغفر.

فليس المراد من الآية المباركة انَّ المشرك لو أقلعَ عن خطيئة الشرك صادقاً فأسلم لربِّه ووحَّده فإنَّه لا يُغفر له، فإنَّ ذلك غير مرادٍ قطعاً من الآية المباركة، لوضوح انَّ أكثر الأنبياء بما فيهم نبيُّ الإسلام كانوا قد بُعثوا لأقوامٍ مشركين، فكانوا يدعونهم إلى دين الله تعالى وتوحيده ونبذِ عبادة الأوثان، ويعِدونهم رضوان الله تعالى وجنَّته إذا تركوا الشرك واتَّبعوا دعوة الأنبياء.

وهذا المعنى يتَّضح بأدنى تأمُّل، ولا يسترعي من الباحث سوى الوقوف السريع على الآيات الكثيرة المتصدِّية لبيان خطابات الأنبياء لأقوامهم وكيف كانوا يدعونهم إلى نبْذ الشِرك ويعِدونهم إنْ هم عبدوا الله وحده أنْ يغفرَ لهم ويجزيهم يوم القيامة جنَّاتٍ لهم فيها نعيمٌ مقيم، وإنْ هم لم ينتهوا عمَّا هم عليه من الشرك فإنَّ مآلهم إلى جهنمَ وبئس المصير. فالوعيد بجهنم إنَّما هو لمَن بقيَ على شِرْكه وغيِّه حتى مات، وأمَّا مَن تابَ إلى رشده وعبدَ ربَّه تعالى ووحَّده فإنَّ الله تعالى وعده مغفرةً منه ورحمة.

ومن أمثلة ما أفاد هذا المعنى من آيات الله جلَّ وعلا هو قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1].

فالواضح من هذه الآيات انَّها تدعو المشركين من النصارى اللذين يزعمون انَّ الله تعالى ثالثُ ثلاثة، تدعوهم إلى التوحيد الخالص لله جلَّ

١- سورة المائدة الآيات/٧٢-٧٤.

وعلا وتُحذِّرهم مما قضاه الله تعالى على نفسه من تحريم الجنة على كلّ مشركٍ إذا مات على شركه، وليس مَن مات وقد أقلع عن الشِرك، وذلك بقرينة أنَّها علَّقت الوعيد بالعذاب على عدم الإنتهاء عن القول بالتثليث، وبقرينة أنَّها حضَّت القائلين بالتثليث على التوبة إلى الله تعالى من هذه العقيدة الباطلة وبشَّرتهم بأنَّ الله غفور رحيم.

لو سلَّمنا جدلاً.. فما المحذور؟!

فإذا اتَّضح انَّ الشرك الذى أفادت الآيةُ من سورة النساء انَّ الله لا يغفره إنَّما هو الشرك الذي يموت الإنسان وهو معتقدٌ به فحينئذ لا يكون ثمةَ من محذورٍ في الإلتزام ولو جدلاً بأنَّ إبراهيم عليه السلام كان في صباه أو في مُقتبَلِ عمره على غير التوحيد الخالص ثم إنَّ الله تعالى قد يسَّر له فمنحه رشده والهدايةَ إلى توحيده حتى أصبح إمام الموحِّدين وصرف عمره الشريف كلَّه في الدعوة إلى توحيد الله جلَّ وعلا ونبْذِ العبادة لغيره، فناكفه قومُه ونابذوه وكادوا يقتلونه حرقاً بالنار فأنجاهُ اللهُ تعالى منها، فلم يكن بوسعه إلا أنْ يُهاجر عنهم ماضياً في دعوته إلى التوحيد غير عابئٍ بشديد المشاقِّ التي اعترضتْهُ في هذا السبيل.

فالإلتزام جدلاً بأنَّ إبراهيم عليه السلام لم يكن في مقتبل عمره على التوحيد الخالص غير ضائرٍ بعد أنْ لم يكن ذلك مانعاً من الدخول في رضوان الله وغفرانه إذا تمَّ للإنسان الرجوع إلى توحيد الله تعالى مختاراً صادقاً قبل

موته، ثم إنَّ ذلك لا يُنافي الإعتقاد بعصمة إبراهيم الخليل عليه السلام، لأنَّ العصمة إنَّما تكون للأنبياء، ولا ريب في انَّ إبراهيم عليه السلام حينما صار نبيَّاً كان في أعلى مراتب التوحيد الخالص لله جلَّ وعلا.

والدليل على انَّ ما ورد في سورة الأنعام كان قد وقع من إبراهيم عليه السلام في مقتبل عمره هو انَّه كان يدعو للتوحيد ونبْذ الشرك وهو في عمر الفتوَّة كما صرَّح بذلك القرآن الكريم في مقام الإخبار عما وقع لإبراهيم عليه السلام بعد تحطيمه للأصنام: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾[1] إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ بَل رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ * وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ * قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾[2] فهو حين كان يدعو للتوحيد والعبوديَّة لربِّ السماوات والأرض وفاطرِهن كان في عمر الفتوَّة كما صرَّحت بذلك الآيات، وكما هو ظاهر لحْن الآيات التي اشتملت على دعوة إبراهيم لأبيه وعقْده العزم على اعتزالهم بعد اليأس من قبولهم لدعوته والتي امتدَّت ردحاً من الزمن،

١- سورة الأنبياء الآيات/٥١-٥٣.

٢- سورة الأنبياء الآيات/٥٦-٦٠.

وقد أفادت الآيات انّه بعد اعتزاله لهم وهجرته عنهم، بعدها وهبَه الله تعالى إسماعيل الذي بنى معه بعد انْ كبُر البيت الحرام قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾[١] إلى قوله تعالى: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا * قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾[٢] وورد في سورة الصافات: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ * إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾[٣] إلى قوله تعالى: ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ * وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾[٤] كلٌ ذلك يؤكّد انّ ما وقع لإبراهيم عليه السلام مما حكته الآيات من سورة الأنعام كان في مقتبل عمره الشريف.

ملخّص الجواب الأول:

إذن لا يكون الإلتزام –ولو جدلاً بأنّ إبراهيم لم يكن عارفاً بالتوحيد ثم يسَّر الله تعالى له معرفته والإذعان له- ضائراً بعد انّ لم يكن ذلك مانعاً من

١- سورة مريم الآية/٤٢.

٢- سورة مريم الآيتان/٤٥-٤٦.

٣- سورة الصافات الآيات/٨٣-٨٥.

٤- سورة الصافات الآيات/٩٨-١٠٢.

الدخول في رضوان الله وعفْوه، وانَّ الذي لا يناله عفوُ الله وغفرانه إنَّما هو المشرك الذي يموت على شركه، كما انَّ ذلك لا يُنافي الإلتزام بعصمة إبراهيم عليه السلام، لأنَّ عصمته كانت في ظرف نبوَّته، وهو حين صار نبيًّاً كان إمامَ الموحِّدين، هذا أولاً.

ثانياً: جوابٌ آخر

إبراهيم عليه السلام كان باحثاً:

فإنَّ الآيات من سورة الأنعام ليست ظاهرةً في انَّ إبراهيم عليه السلام كان مشركاً وإنَّ أقصى ما يُمكن استظهاره جدلاً من الآيات هو إنَّ إبراهيم عليه السلام كان باحثاً عن ربِّه، وفرقٌ بين المعتقِد بربوبيَّة غير الله تعالى وبين الباحث عن ربِّه المعتقِد بمقتضى فطرته بوجوده ولكنَّه غير مُدرِكٍ لهويِّته.

فلأنَّ إبراهيم عليه السلام كان معتقِداً بمقتضى فطرته بوجود ربٍّ له -كما هو ظاهر الآيات- لذلك وجد في نفسه ما يدفعه للبحث عنه، وحيثُ انَّ مجتمعه كانوا يعتقدون بربوبيَّة مثل الكواكب والقمر والشمس وإنَّ كثيراً من أصنامهم كانت ترمز لهذه الأجرام السماوية على انَّها آلهة، فحيثُ انَّه وجد مجتمعه كذلك وهو في مقتبل العمر لذلك أخذ يبحث عن واقع ما يعتقده مجتمعه فافترض في مقام البحث والنظر انَّ الكوكب ربٌّ، فما لبث أنْ قطعَ بأنَّه لا يصلح للربوبيَّة، ذلك لأنَّه يظهر ويغيب، ومقتضى انَّه على غير حالٍ واحد هو انَّه بالبداهة خاضعٌ للحوادث وواقعٌ في صراط نظامٍ

ليس بوسعه إلا الإنتظام في إطاره، وتلك من علامات المخلوق ذي القدرة المحدودة، والربُّ في مرتَكز إبراهيم الفطري لا يكون مخلوقاً ولا تكون قدرته مقيَّدة، وهذا ما وجده في القمر والشمس أيضاً، لذلك ما لبثَ أنْ أعلنَ البراءةَ من هذه الأرباب المزعومة فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾[1] وصار التأمُّل والنظر في هذه النماذج التي افترضها أرباباً مدخلاً للوقوف على الربِّ الحقيقي وانَّه لا بدَّ وأنْ يكون فاطراً للسماوات والأرض أي خالقاً لكلِّ شيء، لذلكِ أعلنَ عن نتيجة بحثه بقوله: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[2].

فسرعةُ الإنتقال من ربٍّ مزعومٍ إلى آخر حتى أتى عليهم جميعاً في غضون يومٍ وليلة مؤشّرٌ بيِّنٌ على انَّه لم يكن قد اتَّخذ شيئاً منها ربًّا، وإنَّما كان قد افترض كلَّ واحدٍ منها ربًّا ليرى هل هو واجدٌ لما يجب أنْ يكون عليه الرب.

١- سورة الانعام الآية/٧٨.

٢- سورة الانعام الآية/٧٩.

بيان المنهجيّة التوحيديّة في بحث ابراهيم عليه السلام

١- إعتماد الإدراك الفطري لوجود الربّ ووحدانيته:

على انّ إبراهيم عليه السلام كان -كما ذكرنا- معتقِداً بوجود الربّ وانّ لهذا الربّ صفاتٍ يجب أنْ يكون واجداً لها، فهو مدركٌ بمقتضى فطرته حتميَّة اتّصاف الربّ بها، لذلك جعل هذا المُدرَك الفطري مقياسه في سلب الربوبيّة عن شيء وإثباتها لآخر، فهو حين عدّد الأرباب المزعومة كان غرضه من ذلك هو عرضها على المقياس المرتكَز في جبلّته وفطرته، فهو إذن افترضها أرباباً في مقام البحث عن الربّ الذي يُرشد إليه الدليل الفطري عنده، ولم يتّخذها أرباباً كما زعم صاحب الشبهة، وذلك ظاهر من الآيات من سورة الأنعام: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[١].

١- سورة الانعام الآيات/٧٦-٧٩.

فقوله: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ صريحٌ في أنَّه كان فارغاً عن انَّ له ربَّاً، لذلك حين سقط احتمال أنْ يكون القمر ربَّاً لم يُنكر أصل وجود الرب بل قال: ﴿لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ ومعنى ذلك هو اعتقاده بحتميَّة وجود الرب وإنْ لم يكن يعرفه، فهو إذن كان فارغاً عن انَّ له ربَّاً، وكذلك هو فارغٌ عن انَّ هذا الرب واحدٌ وليس أكثر وإلا لجمع بين الكوكب والقمر لأنَّ ظهورهما في الأفق يكون في عرضٍ واحد أو متقارب، فهو حين قال للكوكب: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ يكون قد رأى القمر حتماً لكنَّه لم يفترضه ربَّاً لأنَّه لم يفرغ من التثبُّت من أمر الكوكب، وذلك يُعبِّر عن ارتكاز عنده انَّ الربَّ لا يتعدَّد، فإذا كان الكوكب هو الربُّ فالقمر لا يكون ربَّاً، وحيثُ انَّ الكوكب أسرع أُفولاً من القمر لذلك حين سقط احتمال ربوبيَّته بأُفوله صار لإبراهيمعليه السلام أنْ يفترض القمر ربَّاً، وهو يعلم انَّ الشمس ستُشرق صباحاً ولكنَّه حيث افترض القمر ربَّاً والربُّ لا يتعدَّد فلابدَّ انْ لا تكون الشمس ربَّاً حتى يتمَّ الفراغ عن عدم ربوبيَّة القمر، فعدم تعدُّد الآلهة كان أمراً مفروغاً عنه في المُرتكَز الفطري لإبراهيمعليه السلام لذلك لم يفترض الأجرام مجتمِعةً أرباباً.

٢- إعتماد مُدرَكات العقل الفطري لصفات الربّ:

ثم إنَّ إبراهيمعليه السلام كان يُدرِك بعقله الفطري -مضافاً إلى وجود الرب وانَّه لا يتعدَّد- انَّ الربَّ يجب ان لا يكون خاضعاً لشيء، لذلك استدلَّ على

عدم ربوبيَّة الكوكب وكذلك بقية الأجرام بأُفولها، وذلك لأنَّ أُفولها بعد ظهورها معناه خضوعها لنظامٍ لا يسعها إلا الانتظام في دائرته وانَّ هذا النظام خاضعٌ لإرادةٍ هي أقوى منه ومن المنتظِمين في دائرته، فلأنَّ الربَّ فيما يعتقده إبراهيم بمقتضى فطرته يجب أن لا يكون خاضعاً لشيء لذلك تنكَّر لربوبيَّة هذه الأجرام، واعتقادُه بأنَّ الربَّ يجب ان لا يكون خاضعاً لشيء معناه الإعتقاد بأنَّ قدرة الرب يجب انْ تكون مطلقة لا يحدُّها شيء، وذلك يُساوق بالبداهة اعتقاده بأنَّ الربَّ لا يكون مخلوقاً ، لأنَّ المخلوق محدودُ القدرة.

فظاهر الآيات انَّ الربَّ فيما يعتقده إبراهيم عليه السلام يجب انْ يكون واحداً غير خاضعٍ لشيئ، قادراً لا يحدُّ قدرته شيء، وكذلك يجب أنْ يكون حاضراً دائماً لا يحول دون شهوده لعباده شيء، لذلك حينما أفِل الكوكب قال: ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ فهذا الذي استدلَّ به إبراهيم عليه السلام في غضون يومٍ وليلة على عدم ربوبيَّة هذه الأجرام يكشف بما لا يدع مجالاً للشك انَّه لم يكن قد اتَّخذ شيئاً منها ربَّاً وإنَّما افترضها أرباباً في مقام البحث عن المصداق الحقيقي للرب. لأنَّه إذا كان يعتقد بمقتضى فطرته انَّ للربِّ الحقيقي صفاتٍ يجب أنْ يكون واجداً لها فذلك يقتضي عدم تعقُّل التزامه بربوبيَّة شيء منها قبل التثبُّت من واجديَّتها لهذه الصفات.

فهذه الآيات تدلُّ على نزاهة إبراهيم عليه السلام من الشرك لا انَّها تدلُّ على مساورته للشرك، فالشرك كما يعترف صاحب الشبهة هو اتَّخاذ آلهةٍ مع الله أو دونه، والآيات واضحةٌ في انَّ إبراهيم لم يتَّخذ هذه الأجرام ولا شيئًا منها أرباباً، فهي ظاهرةٌ في انَّ إبراهيم كان يعرض هذه الأرباب المزعومة على المقياس الذي كان يُدرك بفطرته انَّه الذي يتميَّز به الربُّ الحقيقي من غيره، فحيثُ وجد دون مزيدِ عناء انَّ هذه الأجرام فاقدة للصفات التي يتميَّز بها الربُّ الحقيقي لذلك تنكَّر سريعاً لربوبيَّتها المزعومة.

ملخَّص الجواب الثاني:

والمتحصَّل ممَّا ذكرناه انَّ الآيات من سورة الأنعام ليست ظاهرةً في انَّ إبراهيم عليه السلام كان مشركاً وقتاً ما بل هي ظاهرةٌ في انَّه كان عارفاً بمقتضى فطرته بوجود ربٍّ له وانَّه واحدٌ لا يتعدَّد وانَّه ليس مخلوقاً ولا تحدُّ قدرته شيئ، غايته انَّه لم يكن عارفاً بالمصداق الحقيقي للرب، لذلك أخذ يبحث عنه معتمداً في تشخيصه على ما يُدركه بفطرته انَّه المقياس الذي يتميَّز به الربُّ الحقيقي من غيره، وصار يفترض كلَّ ربٍّ مزعومٍ ربًّا، وبدأ في امتحانه ليرى هل هو واجدٌ للصفات التي هي مقياس الربِّ الحقيقي أو هو فاقدٌ لها أو لشيء منها، فحين وجد هذه الأرباب المزعومة مفتقرةً لما يجب أنْ يكون عليه الربُّ الحقيقي من صفات أنكر ربوبيَّتها وأعلن البراءةَ منها

ثم صار ذلك مدخلاً لمعرفته بربِّه وانَّه الذي فطر السماوات والأرض بما تشتملان عليه من هذه الأجرام التي يُدَّعى لها الربوبيَّة.

ثالثاً: الجواب الحلِّي

إبراهيم عليه السلام كان في مناظرةٍ مع قومه:

إنَّ ملاحظة القرائن تقتضي استظهار انَّ المراد من الآيات من سورة الأنعام هو انَّ إبراهيم عليه السلام أراد من كلٍّ ما قاله تنبيهَ قومه على خطأ ما هم عليه من الإعتقاد بربوبيَّة هذه الأجرام، فكان ذلك منه وسيلةً للوصول بهم إلى فساد ما يعتقدون، فهو قد اعتمد أسلوب المناظرة التي قد تقتضي التسليم مع الخصم بأمرٍ يلتزم الخصم به استدراجاً له لغرض إيقافه بعد ذلك على اللوازم الفاسدة المترتِّبة على هذا الإلتزام، فيكون ذلك أَدعى لتنبُّه الخصم بل وإذعانه في أحيانٍ كثيرة بخطأ ما يلتزم به.

مثالٌ توضيحي:

فقول إبراهيم عليه السلام للكوكب مثلاً: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ ثم حين أفَلَ قال: ﴿لَا أُحِبُّ الْآَفِلِينَ﴾ أشبهُ شيء بقول المناظِر لخصمه المعتقِد مثلاً انَّ الذي بيده صفيحةٌ من الحديد والواقع انَّها ليست سوى خشبةٍ صلبة، فيقول المناظِر لخصمه: دعنا نشوي هذا اللحم على هذه الحديدة؛ فإنَّ هذا الخصم حين

يعرض هذه الخشبة على النار سيجد انَّها بعد برهةٍ يسيرة قد اشتعلت، وحينئذٍ سيقول المناظِر له: لو كانت هذه حديدة لما اشتعلت واحترقت.

فهو حين قال لخصمه: دعنا نشوي اللحم على هذه الحديدة لم يكن معتقداً انَّها حديدة واقعاً، ولكنَّه أراد مجاراة الخصم واستدراجه ليُوقفه على فساد معتقده بواسطة إيقافه على ما يلزم معتقده من لوازم لا يسعه الإلتزام بها، فالخصم لا يلتزم بأنَّ الحديد يشتعل بالنار ثم يحترق، فهو إذا وجد انَّ ما يعتقده حديداً قد وقع له ذلك علِم بأنَّ ما توهَّمه حديداً لم يكن كذلك وانَّه لم يكن سوى خشبةٍ صلبة.

﴿هَذَا رَبِّي﴾ هي مجاراة للخصم في المناظرة:

فقول إبراهيم عليه السلام للكوكب: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ أشبهُ شيء بهذا الذي أقرَّ لخصمه بأنَّ ما بيده حديدة وليست خشبة، فكان إقراره لغرض المجاراة للخصم للوصول به إلى خطأ ما هو عليه من معتقَدٍ عندما يقف على لوازم معتقده الباطلة التي لا يسعه بمقتضى عقله الفطري الالتزام بها.

فإذا قال إبراهيم عليه السلام لمناظِره الذي يعبد الكوكب: هذا ربِّي إيهاماً أو مجاراةً صار له انّ يخوض معه مناظرةً ميدانيَّة هادئة وقابلة للإمتداد زماناً إلى حين بلوغه غرضه ومبتغاه من المناظرة، فكأنَّ إبراهيم عليه السلام قال إنَّ هذا الكوكب ربي فلننظر معاً هل هو واجدٌ لصفات الرب، فذلك يحفِّز الخصم على الصبر على المناظرة من جهة وعلى التنبُّه لأمرٍ قد لا يكون متنبِّهاً إليه،

فقد يعتقد الإنسان بشيء دون النظر إلى لوازمه ولو نظَر في لوازمه لتغيَّر اعتقاده فيه.

فالأثر البليغ الذي نتجَ عن مجاراة إبراهيمعليه السلام لعَبَدةِ الأجرام هو إيقافهم على لوازم هذه العقيدة بوسيلةٍ من المُفترَض أنّ لا تُحفِّزهم على المكابرة والعناد، فهم بمقتضى جِبلَّتهم وفطرتهم لا يقبلون لأنفسهم ربّاً يخضع لإرادةٍ هي أقوى منه تُسيِّره حيثُ تشاء لا حيث يشاء هو، ولا يقبلون لأنفسهم بمقتضى فطرتهم ربّاً لا يتمكَّن من نفعهم في كلٍّ وقت وعلى أيٍّ حال، فحين يُوقفهم إبراهيمعليه السلام على انَّ الربَّ الذي يعبدونه ليس إلا كذلك، خاضعٌ لإرادةٍ قاهرة، فهو يغيب قسراً ويظهر كذلك قسراً، فهو مُسيَّرٌ لتلك القوة القاسرة التي تُلجئه للظهور في الأفق تارةً وإلى الغَيبة تارةً أخرى، وهو كذلك فاقدٌ للنفع غائباً، ولو أراد مربوبُه الإنتفاع به في غيبته لما أمكن لربِّه هذا أن ينفعه بشيء.

هذه اللوازم التي قد لا يتنبَّه إليها المعتقِد نبَّهَ عليها إبراهيمعليه السلام بمفاد قوله: لقد أفل الكوكب ولا أُحب الآفلين، فهو قد غاب عن مربوبه عن غير اختياره ولو طلب منه مربوبُه أنّ يعود للظهور فإنَّه لن يعود إلا في الوقت المقدَّر له، فهل مثلُ هذا واجدٌ لصفة الربِّ التي يُدركها كلُّ أحدٍ بمقتضى فطرته؟!

النتيجة: إبراهيم عليه السلام كان يُجاري خصومه في المناظرة:

ومحصَّل الكلام انَّ قول إبراهيم لمثل الكوكب: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ لم يكن إلا لغرض المجاراة للخصم في مقام المناظرة، وذلك لتحفيزه على التنبُّه معه إلى لوازم معتقده التي من المفترَض في حقِّه عدم الإلتزام بها لو تنبَّه لها، ولولا انَّ إبراهيم عليه السلام اعتمد أسلوب المجاراة والإستدراج لكان الغالب أنْ لا يصبر الخصم على مناظرته هذه المدة التي امتدَّت ليلةً ونهارها، ولكابَرَ وأغلق عقله عن النظر فيما يُؤشِّر إليه إبراهيم من لوازم هذا المعتقَد، ذلك لأنَّ عبدة الأجرام شأنهم كغيرهم مستمسِكون بمعتقدهم.

القرائن الدالَّة على النتيجة:

والذي يُؤيِّد ذلك عددٌ من القرائن:

القرينة الأولى: القضيَّة جرت في سياق مخاطبته لقومه:

إنَّ إبراهيم حين أفلَتْ الشمس قال لقومه: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ وذلك يكشف عن انَّه لم يكن وحده وإنَّما كان في مناظرةٍ مع قومه وإنَّ أمَد هذه المناظرة قد انتهى بأُفول الشمس، إذ بأُفولها انقطعت كلُّ حجَّةٍ لقومه فكان لا بدَّ من إعلان البراءة ممَّا يُشركون، فهو قد تعاطى معهم بمنتهى ما يتَّسع له الصدر، فأظهَرَ لهم الإلتزام بمعتقدهم على انْ يتمكَّنوا من إثبات انَّ معبوداتِهم أو أحدها واجدٌ للصفات التي يجب ان

يكون عليها الرب بمقتضى ما يُدركه العقلُ الفطري إلا انَّهم لم يُفلحوا وأفلحَ هو في إيقافهم على افتقار هذه الأرباب لصفةِ الرب الحقيقي، لذلك أعلن البراءة من أربابهم بعد انقطاع كلِّ حجَّةٍ لهم، وحينئذٍ خوَّفه قومُه من تبعات براءته من أربابهم، فأجابهم أنا لا أخاف هذه الأرباب، وكيف أخاف من معبوداتٍ زعمتم انَّ لها الربوبية دون أن يكون لكم على ذلك سلطانٌ وبرهان ولا تخافون أنتم انَّكم أشركتم بالله جلَّ وعلا، إنَّ الأحقَّ بالخوف هو أنتم وإنَّ الأحقَّ بالأمن هو أنا، فمعتقدكم لم يبتنِ على برهانٍ وسلطان ومعتقدِ نشأ عن برهانٍ يقتضيه العقل الفطري، قال تعالى: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ * وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[١] فلم يكن إذن إبراهيم عليه السلام في خلوة يتأمَّل الكونَ وحده يبحث عن ربِّه بل كان في ملأٍ من قومه يُناظرهم، وقد استرعى ذلك منه المناورةَ والمداراة والإستدراج والمكثَ غير القصير معهم وحينذاك قطع عليهم كلَّ عذر يعتذرون به.

١- سورة الانعام الآيتان/٨٠-٨١.

القرينة الثانية: القضية جرت بعد رؤية ابراهيم عليه السلام للملكوت!

إنّ الآيات من سورة الأنعام التي اشتملت على قول إبراهيم للكوكب: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ جاءت متفرّعة عن قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾[١] بعد هذه الآية قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ وذلك يكشف عن انّ إبراهيم عليه السلام كان حينذاك في أعلى مراتب المعرفة بربّه، إذ انّ الله حينها قد أراه ملكوت السماوات والأرض، وكانت الغاية من إراءته هو صيرورته من المُوقنين، وهي أعلى درجات المعرفة، فإذا كانت الغايةُ الإلهيَّة من إراءة إبراهيم عليه السلام للملكوت هو انْ يُصبح من المُوقِنين فإنّ هذا الأثر يترتَّب حتماً، لأنّ الإرادة التكوينيَّة لله تعالى لا تتخلَّف، ولأنّ طبع هذا النحو من الفعل يقتضي ترتُّب الأثر الفوري عليه، فإذا كان الله تعالى قد أرى إبراهيم عليه السلام فهو إذن قد رأى، فمثل هذا الفعل وأثره يكونان متزامنين كما هو بين الفتح والإنفتاح، فإذا قيل إنّ زيداً فتح الباب فمعنى ذلك انّ الباب قد انفتح، وكذلك هي الإراءة، فحيث انّ الله تعالى قد أَرى إبراهيم عليه السلام ملكوت السماوات والأرض فمعنى ذلك انّ إبراهيم عليه السلام قد رأى الملكوت، والرؤية ليست شيئاً آخر غير المعرفة.

١- سورة الانعام الآية/٧٥.

فإذا كان إبراهيم عليه السلام عارفاً بملكوت السماوات والأرض -والذي يعني المعرفة الدقيقة بتفاصيل ما تشتمل عليه السماوات والأرض من الملأ الأعلى وهم الملائكة على اختلاف مراتبهم ومقاماتهم إلى أضعف ما خلقَه الله تعالى في هذا الكون- فلا يُتعقَّل من مثله أن يتوهَّم الربوبيَّة لشيء هو جزءٌ حقير في ضمن ملكوتٍ لا يعلم بمداه إلا الله تعالى ومَن يسَّر الله له الإحاطة بمعرفته، وذلك يؤكِّد انَّ قول إبراهيم للكوكب: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ لم يكن قد صدر عنه بنحو الإسناد الجدِّي وإنَّما صدر عنه إمَّا استدراجاً للخصم أو استهزاءً أو استنكاراً، والقدر المتيقَّن انَّه لم يصدر بنحو الإرادة الجدِّية.

القرينة الثالثة: تصريح خاتمة الآيات:

إنَّ الآيات من سورة الأنعام قد خُتمت بقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[1] فلو كان ما صدر عن إبراهيم عليه السلام من قوله: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ كان في مقام الجد إلى ان تبيَّن له الحق بعد ملاحظة أُفول الأجرام لكان المناسب انّ تختم الآية بالقول وتلك حجَّتنا آتيناها إبراهيم على نفسه والحال انَّ الآية قالت: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ وذلك يُؤكِّد انَّ كلَّ ما حكته الآيات من قول إبراهيم عليه السلام كان في سياق الإحتجاج منه على قومه.

١- سورة الانعام الآية/٨٣.

القرينة الرابعة: السياق لا يستقيم إلّا مع المناظرة:

إنَّ سياق القصة التي حكتها الآيات من سورة الأنعام لا يستقيم إلا مع البناء على انَّ إبراهيم عليه السلام كان في مناظرةٍ مع بعض قومه، فهي قد بدأت بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ فهل معنى ذلك انَّ إبراهيم لم يكن قد رأى الكوكب قبل تلك الليلة؟! ولو سلَّمنا ذلك، فهل انَّه لم يرَ القمر أيضاً إلا تلك الليلة؟! والقمر لايكاد يخفى على أحد! وهكذا الشمس، وبمقتضى المعرفة بإبراهيم لا يُمكن أنْ نتعقَّل انَّ التأمُّل في هذه الأجرام قد هبط عليه فجأةً حتى يُقال إنَّ المراد من قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا﴾ انَّ تلك الليلة هي أول ليلة بدأ فيها إبراهيم عليه السلام في البحث عن ربِّه إنَّ ذلك مستبعدٌ غايةَ البُعد، فلو كان إبراهيم عليه السلام حائراً في مَن هو ربُّه لأرَّقه ذلك، ولكان هو شغله الشاغل ردْحاً من الزمن لا انَّه كان سادراً غافلاً ثم يُفاجئه هذا الأمر فيرى الكوكب وكأنه لأول مرةٍ قد رآه، ثم ما هذه المبادرة والمسارعة إلى البناء على ربوبيَّة الكوكب إنَّ ذلك لا يتناسب مع الباحث عن أمرٍ خطير كهذا، والمبادرة إلى البناء على الربوبيَّة بل البناء على أمرٍ هو دون ذلك في الخطورة لا يصدر حتى من ضعفة العقول، ولم يكن إبراهيم منهم قطعاً وإنْ كان في مقتبل العمر، فضعاف العقول لا شغل لهم بذلك، ثم انَّه لو قلنا إنَّه انبهر بالكوكب فبادر إلى الإقرار بربوبيَّته لكنَّه اكتشف سريعاً عدم

ربوبيَّته ألا يجعله ذلك يتروَّى قبل انْ يُبادر إلى البناء على ربوبيَّة القمر وهو كان قد اكتشف خطأ المسارعة إلى البناء على ربوبيَّة الكوكب، وهكذا قد تكرَّرت منه المبادرة والمسارعة إلى إسناد الربوبيَّة للشمس، إنَّ ذلك لا يُمكن تعقُّل صدوره إلا من أحمق، والشواهد التاريخية والعقائدية تُؤكد انَّ إبراهيمعليه السلام كان من أكمل الناس عقلاً. هذا مضافاً إلى انَّ سرعة اكتشافه عدم ربوبيَّة هذه الأجرام يُعبِّر عن عقلٍ راجح لا يتناسب معه سرعة البناء على ربوبيَّتها.

ثم إنَّ من غير المعقول انْ لايكون إبراهيمعليه السلام قد رأى الشمس قبل تلك الليلة، فكيف غفل عن أنَّها أكبر حتى فاجئه النهار فرآها أكبر؟! إنَّ ذلك أمرٌ لا يمكن تعقُّله، ألم تكن رؤيته لها قبل تلك الليلة بوقتٍ يسير كافية للإعراض عن الكوكب والقمر أو انَّ وجودها حين جنَّه الليل قد انمحى من ذاكرته؟!

ثم إنَّ إبراهيم حين بزغ الكوكب ألم يكن يعلم انَّه سوف يغيب؟! ألم يكن قد شاهده وقد غاب في ليالٍ سابقة؟! وهكذا القمر أيُمكن ان نتصوَّر انَّ إبراهيم قد غفل عن انَّ القمر سوف يغيب أو أنَّه نسي أنَّ الليل سوف يتعقبه نهارٌ حتماً؟!

إنَّ كلَّ ذلك يُؤكد انَّ سياق القصة لا يستقيم إلا مع البناء على انَّ ابراهيمعليه السلام كان فيما صدر عنه ساخراً من أحدٍ كان معه أو انَّه كما هو

الأرجح كان في مقام التنبيه لخصمٍ كان معه، فكان خصمه لشدة ما هو عليه من رسوخٍ في معتقده غافلاً عن لوازم معتقده الباطلة، فكان على إبراهيم أنْ يستدرجه علَّه يتنبَّه إلى سفاهة ما يعتقده.

فهو حين بزغ الكوكب قال لخصمه هذا هو الكوكب الذي تقولون انَّه ربي فلننظر هل هو حقاً ربي، فانتظرَ حتى أفل فقال لخصمه إنَّ ربي قد أفل و لا أُحبُّ الآفلين ثم توجَّه مع خصمه أو خصمائه إلى القمر فقال لهم هذا إذن ربِّي ثم إنَّه أفَلَ فقال لهم لا يمكن ان يكون هذا هو ربي، ولأنَّ أُفول القمر لا يُنهي الحجَّة عليهم قال إبراهيم عليه السلام إنَّ الوصول إلى الرب يحتاج إلى هداية الربِّ نفسه، فهو الذي يُعرِّف عن نفسه بنفسه وإلا لم يكن من سبيل إلى الوصول إليه، لذلك فلننتظر لنرى كيف انَّ الرب الحقيقي الموجود حتماً يُعرِّف عن نفسه، بعدها طلع النهار وأشرقت الشمس فعمَّت بشعاعها أُفق السماء وربوع الأرض، فقال إبراهيم عليه السلام هذا هو الأجدر من بين هذه الأجرام أنْ يكون ربَّاً فهو أكبرها وأكثرها نفعاً لكنَّها أفلت إذن لا شيء من هذه الأجرام يصلح لأنْ يكون ربَّاً، فالربُّ الحقيقي لابدَّ وأنْ يكون بارئاً لهذه الأجرام والسماوات التي تسبح فيها والأرض ومَن فيها، لذلك قال الله تعالى على لسان إبراهيم بعد أفول الشمس: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

فسياق القصَّة لا يتناسب إلا مع ما ذكرناه من انَّ إبراهيم عليه السلام لم يكن جاداً فيما قاله من إسناد الربوبيَّة لهذه الأجرام، وإذا لم يكن جاداً فلا بدَّ وأنّ يكون معه مخاطبٌ يُناظره يستدرجه أو يستنكر عليه أو يهزأ به كلُّ ذلك لغرض تحفيزه على التنبُّه إلى سفاهة ما يعتقد به.

الخلاصة:

وبذلك يتبيَّن جلياً انَّ الآيات من سورة الأنعام لا تنسب الشرك إلى إبراهيم عليه السلام كما توهَّم صاحب الشبهة، فرغم انَّه لو قبلنا جدلاً بظهورها في مساورة إبراهيم عليه السلام للشرك آناً ما لما كان ذلك ضائراً بعد انّ كان من المقطوع به انَّه مات على التوحيد الخالص وانَّ الذي لا يُغفر له إنَّما هو مَن يموت على الشرك، فرغم انَّ القبول بظهورها فيما توهَّمه صاحبُ الشبهة لا يُنافي الإعتقاد بأنَّ إبراهيم كان من أهل الرضوان الإلهي إلا انَّه رغم ذلك لا نسلِّم بظهور الآيات من سورة الأنعام بمساورة إبراهيم للشرك ولو لوقتٍ يسير بل إنَّ التأمُّل في سياقها يُحتِّم استظهار انَّ إبراهيم كان بصدد الدفاع والدعوة إلى التوحيد الخالص لله جلَّ وعلا.

والحمد لله رب العالمين

الشبهة الثالثة عشر

الجمع بين الآيات
التي بدأت بقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾

الشبهة الثالثة عشر

الجمع بين الآيات التي بدأت بقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾

ورد في القرآن في سورة البقرة قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾[1] وورد في سورة هود قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾[2] وفي سورة الكهف قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾[3] إلى غير ذلك..

فالمراد من الاستفهام في الآيات هو النفي، والمعنى لا أحد أظلم، فيكون خبراً، وإذا كان خبراً وأخذت هذه العبارات أدّى إلى التناقض.

١- سورة البقرة الآية/١١٤.

٢- سورة هود الآية/١٨.

٣- سورة الكهف الآية/٥٧.

الجواب

منشأ الدعوى:

منشأ دعوى التناقض هو انَّ مفاد الآية الأولى الإخبار عن انَّ الأظلم هو المانع لمساجد الله تعالى أنْ يُذكر فيها اسمه، ومفاد الآية الثانية انَّ الأظلم هو المفتري على الله تعالى كذباً، ومفاد الآية الثالثة انَّ الأظلم هو المُعرِض عن آيات ربِّه، فمَن هو الأظلم مِن هؤلاء؟ هل هو الذي ذكرتْه الآية الأولى أو هو الذي ذكرتْه الآية الثانية أو المذكور في الآية الثالثة؟

الرد: نفي الأعظم لا يمنع وجود المساوي:

والجواب إنَّه بأدنى تأملٍ يتبيَّن عدم التناقض أصلاً بين هذه الآيات، وذلك لأنَّ معنى مثل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾[1] هو انَّه لا أحدَ أعلى ظلماً ممَّن منع مساجد الله تعالى، فهي تنفي أنْ يكون أحدٌ أشدَّ ظلماً ممَّن منع مساجد الله

١- سورة البقرة الآية/١١٤.

ولكنَّها لا تنفي أنْ يكون أحدٌ مساوياً في الظلم لمَن منع مساجد الله أنْ يُذكر فيها اسمه.

فالظالمون إذا نسبتهم إلى بعضِهم البعض كان بعضُهم أشدَّ ظلماً من الآخرين، وكان بعضُهم أقلَّ ظلماً من الآخرين، وكان الثالث مساوياً لأعظم الناس ظلماً، وكان الرابع مساوياً لأقلِّ الناس ظلماً، ومَن بقيَ من الظالمين فهم متفاوتون في مستوى الظلم لكنَّه لا يرقى أحدُهم لمستوى أعلى الناس ظلماً ولا ينزل عن أقلِّ الناس ظلماً.

فالآيةُ المباركة حينما أفادت أنَّه لا أحدَ من الناس أظلمُ ممَّن منع مساجد الله تعالى فإنَّها إنَّما تنفي وجود الأعظم ظلماً من المانع لمساجد الله تعالى، فلا أحدَ من الظالمين مهما اشتدَّ ظلمُه يكون أعظمَ ظلماً ممَّن منع مساجد الله، فهي تنفي وجود الأعظم ظلماً ولكنَّها لا تنفي المساوي.

مثال توضيحي:

عيناً كما لو قيل: "لا شيء من المباني في العالم أطول من هذا البرج" فإنَّه لو وُجد برجٌ آخر في بلدٍ من البلدان مساوياً للبرج المذكور فإنَّ ذلك لا يُنتج كذبَ القضية المذكورة، لأنَّ القضية المذكورة إنَّما أخبرت عن عدم وجود برجٍ في العالم أطول من البرج المشار إليه ولم تنفِ وجود المساوي له، نعم تكون القضية كاذبة لو وُجد برجٌ أطول من البرج الذي قيل في

القضية إنَّه الأطول في العالم إلا انَّ ذلك لم يقع بحسب الفرض وانَّ الموجود هو المساوي وليس الأطول.

لا تكاذب بين الآيات الكريمة:

ومن هنا لا يكون بين مفاد الآيات المذكورة تكاذبٌ لو جمعت بينها، فيصحُّ انْ يُقال: لا أحدَ أظلم ممَّن منع مساجد الله حتى المفتري على الله تعالى فإنَّه ليس أعظمَ ظلماً ممَّن منع مساجد الله نعم هو مساوٍ له والمساوي ليس أعظم ظلماً.

ويصحُّ أنْ تُعكس القضيَّة فيُقال: لا أحدَ أظلم ممَّن افترى على الله تعالى حتى مَن منع مساجد الله فإنَّه ليس أعظم ظلماً منه لأنَّه مساوٍ له.

ويصحُّ أنْ يُقال: لا أحدَ أظلم ممَّن أعرض عن آيات ربِّه حتى مَن منع مساجد الله وحتى مَن افترى على الله تعالى فإنَّهما ليسا أعظمَ ظلماً منه لأنَّهما مساويان له، فهما إذن ليسا أعظم ظلماً منه، فالقضايا الثلاث صادقة ولا تكاذبَ بينها.

الجمع بين الآيات الثلاث:

وعليه يكون مقتضى الجمع العرفي بين مفاد الآيات الثلاث هو انَّه لا أحد أعظم ظلماً ممَّن منع مساجد الله وممَّن افترى على الله وممَّن أعرض عن آيات الله وممن كتم شهادةً عنده من الله جل وعلا، فهؤلاء هم أعظمُ

الناس ظلماً أي انَّهم متساوون مِن حيث وقوعهم في أعلى درجات الظالمين، فكلٌ مَن سواهم فهو دونهم في مستوى الظلم.

فيكون مساقُ هذه الآيات هو مساق ما لو قيل في موردٍ واحد: "لا أحدَ أعلمُ من زيدٍ وبكرٍ وخالد" فإنَّ أحداً لا يجد تناقضاً في الجملة المذكورة لوضوح انَّ مفادها هو انَّ هؤلاء الثلاثة هم أكثر الناس علماً وانَّ مَن سواهم فهو أدنى منهم مرتبةً في العلم.

دليل آخر:

والذي يُؤكِّد انَّ الآيات لم تكن بصدد نفي المساوي وإنَّما كانت بصدد نفي الأدنى ظلماً هو انَّ آيةً واحدة جمعت بين أصنافٍ ثلاثة من الظالمين وأفادت انَّه لا أحدَ أظلم من كلٍّ واحدٍ منهم، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾[1].

فكلٌ واحدٍ من هؤلاء الثلاثة وهم المفتري على الله كذباً، والمُنتحِل لمقام النبوة، والمدَّعي القدرةَ على الإتيان بمثل القرآن، كلٌ واحدٍ من هؤلاء الثلاثة أَخبرت الآية عن أنَّه لا أحد أظلم منه وانَّه أعظمُ الناس ظلماً.

١- سورة الانعام الآية/٩٣.

فهل يجد أحدٌ تناقضاً بين فقرات الآية المباركة؟! أو انَّ الواضح من مفادها هو انَّ كلٍّ هؤلاء الثلاثة واقعون في الرتبة الأعلى من مراتب الظالمين.

والحمد لله رب العالمين

الشبهة الرابعة عشر

الجمعُ بين المفاضلة
ونفيُ التفريق بين الأنبياء

الشبهة الرابعة عشر

الجمعُ بين المفاضلة ونفيُ التفريق بين الأنبياء

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾[1] في هذه الآية هناك رسل مفضَّلون عند الله، وقد رفع بعضهم فوق بعض درجات ولكن في آيات أخرى يقول القرآن إنَّه لا فرق بينهم، منها هذه الآية: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[2] وفي آيةٍ أخرى: ﴿لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾[3] فكيف لا يُفرِّق الله بين أنبيائه ورسله، ثم نراه يُفرِّق ويُفضِّل بعضهم على بعض ويرفع بعضهم على بعضٍ درجات...؟!

١- سورة البقرة الآية/٢٥٣.

٢- سورة آل عمران الآية/٨٤.

٣- سورة البقرة الآية/٢٨٥.

الجواب

الحيثيَّة مختلفة:

الحيثيَّة التي نفى القرآن من جهتها التفريق بين الأنبياء مختلفةٌ تماماً عن الحيثيَّة التي أثبت من جهتها التفاضل بين الأنبياء، ومتى اختلفت حيثيَّة الإثبات والنفي كان التناقض منتفياً، وذلك لأنَّ من أُصول الحكم على كلامين بالتناقض هو اتِّحادهما في الحيثيَّة وإلا لم يكن بين الكلامين تنافٍ وتناقضٌ كما أفاد ذلك المناطقة وكما هو واضح بالبداهة.

فحينما يُقال: إنَّ زيداً عالمٌ بعلوم الشريعة مثلاً، ويُقال في موضعٍ آخر: إنَّ زيداً ليس عالماً بعلوم الطبيعة فإنَّه وإنْ تمَّ إثبات العلم لزيدٍ في الكلام الأول ونفيه عنه في الكلام الثاني إلا انَّه ليس بين الكلامين تنافٍ وتناقض، وذلك للإختلاف بين الكلامين في الحيثيَّة والجهة، فإثبات العلم لزيدٍ كان من جهة علوم الشريعة، ونفيُ العلم عن زيدٍ كان من جهة علوم الطبيعة، فما تمَّ الإثبات من جهته مختلفٌ عما تمَّ النفيُ من جهته.

التفاضل في مقامات الأنبياء ولا تفريق في الإيمان بهم:

والأمرُ كذلك فيما ثبتَ من جهته التفاضل بين الأنبياء في القرآن وفيما نُفيَ من جهته التفريق بين الأنبياء، فالتفاضلُ بينهم كان من جهة المقامات والدرجات الإلهيَّة الممنوحة لهم من الله تعالى، فمفاد آية التفضيل انَّ مقامات الأنبياء والمرسلين عند الله تعالى متفاوتة، والمنحُ التي منحَهم إياها وشرَّفهم بها متفاضلة، وأما الحيثيَّة التي نفى القرآن من جهتها التفريق بين الأنبياء والمرسلين فهي الإيمان بهم والإقرار بنبوَّتهم ورسالاتهم، فهم جميعاً أنبياءُ الله ورسله، فلا يُقبل من أحدٍ التفريق بينهم في الإيمان، فيؤمن ببعضهم ويكفر أو لايؤمن بالبعض الآخر.

آيات نفي التفريق لا صلة لها بآية المفاضلة:

الآية الأولى وبيان عدم الصِّلة:

فمؤدَّى مثل قوله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ هو انَّ الإيمان لا يُقبل من أحدٍ فرَّق بين الأنبياء ومايز بينهم فآمنَ ببعضهم وكفر بآخرين، وظهور الآيات النافية للتفريق في هذا المعنى بيِّنٌ واضح بل هو في غاية الوضوح.

فقوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ

النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[١] ظاهرٌ في التصدِّي لتلقِين الناس ما يجب عليهم قوله والإقرار به كما هو مقتضى الخطاب بالأمر: ﴿قُولُوا آمَنَّا﴾ فيكون مؤدَّى الآية المباركة هو لزوم الإعتقاد بما إشتملت عليه من أُصول إعتقادية، وهي الإيمان بالله وما أُنزل على نبيِّه الكريمﷺ وما أُنزل على إبراهيم والأنبياء المذكورين في الآية بأسمائهم، وما جاء به عموم النبيِّين من ربِّهم، ثم أَمرت الآية المباركة الناس أنْ يقولوا: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ ففقرة: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ من التَّلقِين الذي أَمرتْ الآية بقوله والإقرار به، فليس هو من الكلام المُستأنَف لله تعالى بقرينة ذيلها ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

وعليه يكون محصَّل الآية المباركة هو قولوا آمنَّا بالله، وقولوا آمنَّا بما أُنزل إلينا، وقولوا آمنَّا بما أُنزل على إبرهيم والأنبياء المذكورين، وقولوا آمنَّا بما جاء به النبيُّون، وقولوا لا نفرِّق بين أحدٍ من الأنبياء ونحن لله تعالى مسلمون.

ومن ذلك يتَّضح انَّ الآية ليست متصدِّية لأكثر من بيان ما يجب الإقرار والإيمان به، فأفادت انَّ مما يجب الإقرار به هو الإيمان بعموم الأنبياء وعدم التفريق بينهم، بأنْ يتمُّ الإيمان ببعضهم دون البعض الآخر، فلا صلةَ للآية أساساً بموضوع المفاضلة عند الله تعالى بين ذوات الأنبياء.

١- سورة البقرة الآية/١٣٦.

الآية بصدد التعريض باليهود والنصارى:

وأما منشأ الأمر بقول: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ فهو التعريض بما عليه اليهود والنصارى من التفريق بين الأنبياء، فقد فرّق اليهود بين موسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وآله فآمنوا بموسى عليه السلام وكفروا بعيسى عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وآله وكذلك غيرهما من الأنبياء، وفرّق النصارى بين محمد صلى الله عليه وآله وبين عيسى وموسى صلى الله عليه وآله فآمنوا بالاثنين وكفروا بنبيٍّ الإسلام صلى الله عليه وآله فمفاد الآية انّ التفريق في ذلك بين الأنبياء ليس هو شأن المتديِّنين حقيقةً بدين الله تعالى بل إنّ مقتضى التديُّن والتسليم لله تعالى هو الإيمان بجميع أنبيائه ورسله. ولذلك ورد في ذيل الآية قوله تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[١].

الآية الثانية وبيان عدم الصلة:

ومما بيّناه من معنى الآية ومُؤدّاها يتّضح المراد من نفي التفريق بين الأنبياء في الآية الأُخرى، وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ

١- سورة البقرة الآية/١٣٧.

مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

فإنَّ هذه الآية متَّحدة في المفاد والمؤدَّى والسياق مع الآية السابقة، فكلٌ منهما متصدٍ لبيان ما يجب الإقرارُ والإيمانُ به، ومنه الإيمان بعموم الأنبياء وعدم التفريق بينهم من هذه الجهة التي هي مورد التصدِّي في الآيتين، فحيثُ انَّ هذه الجهة هي موضوع التصدِّي في الآيتين لذلك لا يصحُ إقحام أمرٍ آخر لم تكن الآيتان بصدده وإلا كان ذلك من التعسُّف والتجيير للكلام إلى غير ماهو مسوقٌ له. فأيُّ صلة بين أمر الناس بعدم التفريق بين الأنبياء في الإيمان بهم وبين موضوع المفاضلة عند الله بين ذوات الأنبياء؟!

الآية الثالثة وبيان عدم الصِّلة:

وهكذا فإنَّ الآية الثالثة والأخيرة أجنبيةٌ عن موضوع المفاضلة عند الله تعالى بين الأنبياء، قال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[1] فالآية كما هو واضحٌ من سياقها بصدد تعداد الأُصول الإعتقادية التي يُؤمن بها الرسول صلى الله عليه وآله ومَن

١- سورة البقرة الآية/٢٨٥.

آمن معه، فتذكر انَّ من ضمن ما يعتقدون به ويلتزمونه هو الإيمان بجميع الرُسل، فهم لايُفرِّقون في ذلك بين أحدٍ من رُسلِه.

ففقرة: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ تحكي عن واقع حال المؤمنين أنَّهم لا يُفرِّقون في الإيمان بالرُسل بين أحدٍ منهم كما تحكي عنهم الإيمان بالله وملائكته وكتبه، وذلك بقرينة عود الضمير في "رُسُلِه" على الغائب، ولو كانت الفقرة المذكورة كلاماً مستأنفا لله تعالى لقال: "رُسلي أو رُسلنا" ولم يقل: "رُسله" كما في الآية، وحينئذٍ فأيُّ صلةٍ للآية بموضوع المفاضلة بين الأنبياء؟!

الخلاصة:

والمتحصَّل مما ذكرناه إنَّ آية المفاضلة: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾[1] تقتضي ثبوت التفاوت بين الرُسل في الفضل، ولا يُناقضها ما أفادته آياتٌ أخرى من نفي التفريق بين الأنبياء والرسل، وذلك لاختلاف آية المفاضلة مع آيات نفي التفريق في الحيثيَّة، فآية المفاضلة متصدِّيةٌ لإثبات التفاوت بين الأنبياء في الدرجات والمقامات الإلهيَّة، وأما الآيات النافية للتفريق فهي بصدد الأمر بالإيمان بجميع الأنبياء والرسل والنهي عن الكفر ببعضهم، فمع الإختلاف

١- سورة البقرة الآية/٢٥٣.

بين حيثيتي الإثبات والنفي كيف يسوغُ التوهُّم بوجود التناقض؟! نعم يُسوِّغ ذلك القصورُ في الفهم أو الإبتلاءُ بداءِ المكابرة للحق.

والحمد لله رب العالمين

الشبهة الخامسة عشر

العموم في: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾

الشبهة الخامسة عشر

العموم في: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾

ورد في القرآن: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[1] ولكنَّ الجان كائناتٌ حيَّة فهل هي من الماء أم هي من النار كما ورد في سورة الرحمن: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مارِجٍ مِنْ نارٍ﴾[2] وفي سورة الأعراف: ﴿قالَ ما مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾[3]، وكما نعلم فالنار والماء لا يمتزجان ولا يجتمعان، وهذا تناقضٌ واضح.

١- سورة الأنبياء الآية/٣٠.

٢- سورة الرحمن الآية/١٥.

٣- سورة الأعراف الآية/١٢.

الجواب

المراد من الآية يُفهم بالسياق وليس بالإقتطاع:

المراد من "كلّ شيء" في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾[1] هو الوجودات الحيَّة المحسوسة مثل الإنسان والحيوان والحشرات والنبات، فهذه هي التي أفادت الآية المباركة انَّ الله تعالى جعل حياتها بالماء أو انَّه خلقها من الماء بأنْ كان الماء مكوِّناً أساسيًّاً في وجودها وحياتها.

وأما الوجودات الحيَّة غير المشهودة كالملائكة والجن والوجودات المجرَّدة فهي غير مشمولة لمفاد الآية المباركة، وذلك لأنَّ الآية كانت في سياق البرهنة بالمحسوسات على عظمة الخالق جلَّ وعلا فالمناسب لذلك هو الإستدلال بالوجودات الحسيَّة التي يشهدها الكافرون ليترتَّب عن ذلك إذعانهُم أو خصْمهُم وإفحامهُم، فلو انَّ القرآن في مثل المقام احتجَّ على الكافرين لإثبات عظمة الخالق جلَّ وعلا بغير المشهودات لكان جوابهم إنَّنا لا نؤمنُ بهذه الوجودات.

١- سورة الأنبياء الآية/٣٠.

والذي يوكِّد وقوع الآية في هذا السياق هو صدرها، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾[١] ثم قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾.

فصدرُ الآية صريحٌ في إنَّها كانت بصدد البرهنة للكافرين على عظمة الخالق جلَّ وعلا، ثم إنَّ ذيل الآية إشتمل على استفهامٍ استنكاري للتعبير عن الاستغراب، وهذا إنَّما يُناسب كون الشيء الذي هو مورد الحديث من الأُمور المحسوسة التي لا يسع العاقل المنصف التنكُّر لها، والجنُّ ليسوا كذلك.

ثم إنَّ الآية التي تلت هذه الآية تحدَّثت عن مظهرٍ حسيٍّ آخر من مظاهر عظمة الخالق جلَّ وعلا وهو خلق الجبال الراسيات في الأرض وشقُّ الطرق التي يتيسَّر بها التنقُّل في أرجاء الأرض، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾[٢].

ثم تصدَّت الآيات التي تلت هذه الآية للإشارة إلى مظاهرَ أُخرى من مظاهر العظمة الإلهية، فأفادت أنَّ الله تعالى جعل السماء سقفاً محفوظاً

١- سورة الأنبياء الآية/٣٠.

٢- سورة الأنبياء الآية/٣١.

وخلق الليل والنهار والشمس والقمر في نظامٍ كونيٍّ متقن، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آَيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ۞ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[1].

وكلُّ هذه الظواهر الكونيَّة محسوسةٌ لدى الإنسان لا يسعه التنكُّر لوجودها أو الارتياب في دلالتها على عظمة مَن خلقها ودبَّر نظامها.

وعليه فإنَّ وقوع آية: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ في هذا السياق يُنتج استظهار إرادة الوجودات المحسوسة من قوله: ﴿كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ فلا تكون الآية مناقِضة لمثل قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾[2] فإنَّ الجن وإنْ كانوا من الكائنات الحيَّة ولكنَّهم ليسوا من الوجودات المحسوسة.

المنشأ في توهُّم التناقض:

فتوهُّم التناقض إنَّما نشأ عن توهُّم شمول الآية لمطلق الكائنات الحيَّة حتى غير المحسوسة، وهذا الوهم يتلاشى بمجرَّد الإلتفات إلى عدم ظهور الآية في الإستيعاب للكائنات الحيَّة غير المحسوسة.

١- سورة الأنبياء الآيتان/٣٢-٣٣.

٢- سورة الرحمن الآية/١٥.

والتعبير في الآية بكلِّ شيء لا يقتضى استظهار الشمول للكائنات غير المشهودة بعد اكتناف الآية بما يقتضى انصراف المراد عن ذلك، إذ انَّ التعبير بكلِّ شيء لا يعني العموم دائماً لكلِّ ما يصدق عليه عنوان الشيء بل إنَّ المراد من عنوان الشيء تتحدَّد السعة لدائرته بحدود ما تقتضيه القرينة المكتنفة للكلام.

بحثٌ قرآني في قوله تعالى: ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾:

وقد استعمل القرآن كثيراً عبارة "كل شيء" وأراد منها العموم والاستيعاب في إطار دائرةٍ محدَّدة، فمِن ذلك قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾[1] فإنَّ المراد من انَّ الكتاب تبيانٌ لكلِّ شيء هو انَّه تبيانٌ لكلِّ ما يتَّصل بهداية الإنسان لدين الله القويم، وليس المقصود من ذلك انَّه تبيانٌ لكلِّ العلوم والمعارف ولكلِّ ما وقع في التاريخ، فإنَّ ذلك غير مرادٍ قطعاً، لوضوح انَّ القرآن كتاب هداية، فهو لم يتصدَّ للتعريف بتفاصيل العلوم ولتفاصيل كلِّ ما وقع في تاريخ الإنسان فذلك خارجٌ عن مورد غرضه، ولهذا لا يصحُّ التمسُّك بالآية للنقض على القرآن بأنَّه أغفل أكثر العلوم، وذلك للقطع بأنَّ مراد الآية مِن انَّ القرآن تبيانٌ لكلِّ شيء هو انَّه تبيانٌ لكلِّ ما يتَّصل بهداية الإنسان إلى صراط الله القويم.

١- سورة النحل الآية/٨٩.

وهكذا هو المراد من قوله تعالى في وصف التوراة: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾[1] فإنَّ من الواضح انَّ التوراة ليست مشتملة على تفاصيل كلٍّ العلوم والمعارف.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى في وصف الحرم المكي: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾[2] فإنَّ من المقطوع به عدم إرادة الجباية والجلب لكلٍّ ثمرات الأرض للحرم المكي بل وعدم الجباية والجلب لكل أنواع الثمرات، فالمقصود من كلٍّ الثمرات هي أنواع الثمرات التي كانت معروفة ومتداولة في المحيط العربي، فالحرم المكي رغم عدم صلاحية أرضه لزراعة الكثير من الزروع إلا انَّ أهله يأكلون من كلٍّ ثمرات الأشجار المتداولة في المحيط العربي، وذلك لأنَّ العرب من كلٍّ أرجاء الوطن العربي كانوا يُقدِّسون الحرم ويشدُّون الرحال إليه ويحملون معهم ممَّا يجنونه من ثمرات الأشجار التي كانت تنبت عندهم، ولذلك فأهل الحرم كانوا يأكلون من كلٍّ ثمرات الأشجار التي كانت معروفة في بلاد العرب، وتلك خصوصيَّة لم تتفق لغير الحرم المكي آنذاك، فهي ممَّا تفضَّل به الله تعالى على أهل الحرم، ولذلك استحقَّت التنويه.

١- سورة الأعراف الآية/١٤٥.

٢- سورة القصص الآية/٥٧.

ومن ذلك أيضاً ما وصف به القرآن ريح العذاب التي هبَّت على قوم عاد، قال تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾[١] فالآية استعملت فقرة "كلَّ شيء" رغم انَّ المراد منها هو انَّها دمَّرت قوم عاد دون غيرهم من البشر ودون الصالحين من قوم عاد، وكانت قد دمَّرت أموالهم ومواشيهم وزروعهم ولكنَّها لم تُدمِّر مساكنهم والجبالَ التي كانت في أرضهم، فالتعبير بكلِّ شيء لا يعني دائماً الشمول لكلِّ ما يصدق عليه عنوان الشيء.

وهكذا هو الحال في مثل قوله تعالى على لسان سليمان: ﴿وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾[٢] وقوله تعالى في وصف مملكة بلقيس ملكة سبأ: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾[٣] وقوله تعالى في وصف ما منحَه لذي القرنين من قوة: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾[٤].

والمتحصَّل مما ذكرناه انَّ التعبير بفقرة "كل شيء" تتحدَّد السعة لدائرة المراد منها بحدود ما تقتضيه القرينة المكتنفة للكلام الذي وقعت الفقرة

١- سورة الأحقاف الآية/٢٥.

٢- سورة النمل الآية/١٦.

٣- سورة النمل الآية/٢٣.

٤- سورة الكهف الآية/٨٤.

المذكورة في سياقه، وإنَّ إغفال ذلك إما أنْ يكون منشأه الجهل بأساليب الكلام عند أهل المحاورة، وإما انْ يكون منشأه إرادة التشويش والمكايدة.

والحمد لله رب العالمين

الشبهة السادسة عشر

مَن الذي يقبض الأرواح عند الموت؟

الشبهة السادسة عشر

مَن الذي يقبض الأرواح عند الموت؟

مَن الذي يقبض روح الإنسان عند الـموت؟ هل هو مَلَكُ الموت؟ كما في سورة السجدة: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾[1] أو هي الملائكة؟ كما في سورة محمد: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾[2]، أو انَّ الذي يقبض الأرواح هو الله كما في سورة الزمر: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إلى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾[3] فمن الأُولى يتَّضح وجود ملكٍ واحد للموت وعلى عكس ذلك الآية الثانية التي تنصُّ على وجود ملائكةٍ للموت؛ وقد يقول المسلمون ملك الموت هو أحد ملائكة الموت، ولكن ماذا عن الله؟!

١- سورة السجدة الآية/١١.

٢- سورة محمد الآية/٢٧.

٣- سورة الزمر الآية/٤٢.

الجواب

منشأ الإسناد لملك الموت:

معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ هو انّ المكلَّف بإماتة الإنسان وقبض روحه هو ملَكٌ من الملائكة سمَّاه القرآن ملَكُ الموت، فمنشأُ إسناد التوفِّي والإماتة إليه في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ﴾ هو انَّه المُوكَّل و المكلَّف من قِبَلِ الله عزوجل بهذه المهمَّة.

منشأ الإسناد للملائكة:

وأما منشأ إسناد التوفِّي والإماتة في آياتٍ عديدة إلى الملائكة[1] فهو لأنَّهم المباشرون لعمليَّة الإماتة والتوفِّي، وذلك بتكليفٍ وإيعازٍ من ملَك

١- ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ سورة محمد الآية/٢٧، ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ سورة الأنفال الآية/٥٠، ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ سورة الانعام الآية/٦١، ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ سورة النساء الآية/٩٧.

الموت الموكَّل بهذه المهمة من قِبَلِ الله تعالى، ثم إنَّ الأرواح تصير إليه بعد قبض ملائكة الموت لها.

فالمُصحِّح لنسبة الإماتة وقبض الأرواح لملائكة الموت هو أنَّهم المباشرون لهذا الفعل، وأما المُصحِّح لإسناد ونسبة التوفِّي والإماتة لملَك الموت فهو انَّه الآمر بذلك بإعتباره المخوَّل والمسئول عن هذه الوظيفة أمام ربِّ الكائنات ومدبِّرها جلَّ وعلا.

إسناد الفعل لأكثر من جهة أمرٌ عرفي:

فالإسناد في كلا الموردين حقيقيٌّ ومستعملٌ كثيراً في العرف، فحين يُكلِّف السلطان صاحب الشرطة بمهمَّة القبض على المجرمين فُيكلِّف صاحب الشرطة أتباعه والموظَّفين عنده بذلك فيقومون بالقبض على بعض المجرمين فإنَّه يصحُّ دون ريب إسناد القبض عليهم إلى صاحب الشرطة نفسه كما يصحُّ إسناده ونسبته إلى أتباعه وموظَّفيه[1].

١- روى الصدوق في من لا يحضره الفقيه ج١ ص١٣٦، قال: سُئل الصادق عليه السلام عن قول الله عزَّ وجل: "﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ وعن قول الله عز وجل: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ وعن قول الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ و ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾ وعن قول الله عز وجل: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ وعن قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ﴾ وقد يموت في الساعة الواحدة في جميع الآفاق ما لا يحصيه إلا الله عز وجل فكيف هذا؟ فقال:إنَّ الله=

ومن ذلك يتَّضح أيضاً منشأ إسناد التوفِّي لله سبحانه في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ فهو جلَّ وعلا مَن وكَّل وكلَّف ملَك الموت بهذه المهمَّة وهو مَن أقدره على امتثالها، فملَكُ الموت حين يمتثلُ الأمرَ الإلهيَّ بنفسه أو بواسطة الموكَّلين من قِبله فإنَّ ما يصدر عنهم مستندٌ حقيقةً للآمر، فمَلَكُ الموت وكذلك أتباعه من الملائكة لم يكونوا سوى أدواتٍ مسخَّرة لله تعالى تُنفِّذ أوامره في هذا الشأن.

قال تعالى في وصف ملائكته: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[1] وقال جل وعلا: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[2].

نماذج أخرى:

هذا وقد أسندَ اللهُ تعالى بعضَ ما يفعله ملائكتُه بأمره إلى نفسه تارةً وإلى ملائكته تارةً أخرى في مواطنَ عديدة من القرآن الكريم:

= تبارك وتعالى جعل لملك الموت أعواناً من الملائكة يقبضون الأرواح بمنزلة صاحب الشرطة له أعوان من الانس ويبعثهم في حوائجه فتتوفاهم الملائكة ويتوفاهم ملك الموت من الملائكة مع ما يقبض هو ويتوفاها الله عز وجل من ملك الموت".

١- سورة النحل الآية/٥٠.

٢- سورة التحريم الآية/٦.

أ-تعذيب قوم لوط:

منها: ما أوقعه على قوم لوطٍ من عذاب، حيثُ أمطرهم بحجارةٍ من السماء مسوَّمة، وقد أسند هذا الفعل لنفسه في بعض الآيات وأسنده لملائكته الموكَّلين بذلك في آيةٍ أخرى، فقال تعالى في سورة هود: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ * مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾(١) وقال جلَّ وعلا في سورة الحجر: ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾(٢) ففي هذين الموردين أسند اللهُ تعالى لنفسه ما وقع لقوم لوط فقال: ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾، وأما في سورة الذاريات فأسند ذلك للمرسَلين من ملائكته حيثُ قال على لسانهم: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ * مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾(٣).

ب- البشارة بإسحاق عليه السلام:

ومنها: ما حكاه القرآن عن البشارة الإلهيَّة لإبراهيم عليه السلام بإسحاق، فبعد أنْ كبرتْ سنُّه وشاخت زوجتُه جاءته البشارة بأنَّه سيُرزق بولدٍ اسمه

١- سورة هود الآيتان/٨٢-٨٣.

٢- سورة الحجر الآيتان/٧٤-٧٥.

٣- سورة الذاريات الآيتان/٣٣-٣٤.

إسحاق، وقد أسند القرآن الكريم هذه البشارة تارةً لله تعالى، وأخرى للملائكة الموكَّلين بذلك، قال تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾(١) فهنا أسند القرآن البشارة لله جل وعلا، وقال تعالى في سورة هود: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ❁ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ❁ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ❁ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾(٢) وقال تعالى في سورة الحجر: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ❁ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ❁ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ❁ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ﴾(٣) ففي هذين الموردين أسند البشرى بإسحاق للملائكة الموكَّلين بذلك.

١- سورة الصافات الآية/١١٢.

٢- سورة هود الآيات/٦٩-٧٢.

٣- سورة الحجر الآيات/٥٢-٥٥.

ج- كتابة الأعمال:

ومنها: انَّ الله تعالى أسند كتابةَ أعمال العباد وأقوالهم إلى الملائكة الموكَّلين بذلك في آياتٍ عديدة، وأسندها إلى نفسه في آياتٍ أخرى، قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾[١] وقال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾[٢] ففي هذين الموردين أسند القرآنُ كتابةً الأقوال والأعمال إلى ملائكة الله المرسَلين لهذه المهمَّة فقال: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ﴾، وأسندها في سورة مريم إلى الله تعالى: ﴿كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾[٣] وكذلك أُسندتْ الكتابة لله تعالى في سورة آل عمران: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾[٤] ففي كلا الموردين قال الله تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ﴾.

الخلاصة:

والمتحصَّل ممَّا ذكرناه أنَّ المُصحِّح لإسناد الأفعال المذكورة لله جل وعلا هو انَّه الآمر بها وهو مَن أقدَرَهم على امتثالها، وأما المُصحِّح لإسناد

١- سورة الزخرف الآية/٨٠.

٢- سورة يونس الآية/٢١.

٣- سورة مريم الآية/٧٩.

٤- سورة آل عمران الآية/١٨١.

هذه الأفعال إلى الملائكة فهو أنّهم المباشرون لفعلها، ولعمري إنّ ذلك أوضح من انّ يفتقرَ إلى بيان إلا أنّ الغلّ إذا انطوى عليه قلبٌ أعشاه عن رؤية الواضحات وبالله المستعان على ما يصفون.

والحمد لله رب العالمين

الشبهة السابعة عشر

توهُّم انتقاض آية ﴿كُلٌّ لَه قانِتُونَ﴾

الشبهة السابعة عشر

توهُّم انتقاض آية ﴿كُلٌّ لَه قانِتُون﴾

يقول القرآن في سورة الروم: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾[1] أي مطيعون فكلٌ مَن في السموات والأرض مطيعون لله بحسب هذه الآية من سورة الروم، فكيف لم يُطع إبليس ربَّه حين أمره بالسجود، وكذلك فإنَّ كلَّ بني آدم اللذين لا يؤمنون بدين الإسلام والديانات السماوية غير مطيعين لله.

١- سورة الروم الآية/٢٦.

الجواب

ما هذا التوهُّم؟!

لو أنصف صاحب الشبهة نفسه لأدرك انَّ فهمه للآية المباركة بعيدٌ غاية البُعد عن الصواب أو لاحتمل في أسوأ الأحوال أنْ لا يكون هذا الفهم مصيباً فيمنعه عن أن يُبادر إلى التخبُّط على غير هدى، ذلك لأنَّ القرآن الكريم مليءٌ بالآيات التي تصدَّت للحديث عن العصاة لله تعالى من بني آدم والمشركين به والجاحدين بربوبيته، وتحدَّثت عن تمرُّدهم على أنبيائهم، فأفادت انَّ منهم مَن كان يسخر بهم، ومنهم مَن كان يتوعَّدهم بالطرد أو الرجم، وفيهم مَن قتلوا أنبياءهم، وفيهم من حرَّضوا عليهم وعبئوا الجنود والأحزاب لحربهم وأتباعهم، ومنهم من ادَّعى الربوبيَّة لنفسه، وفيهم من صنع العجل ودعى الناس لعبادته من دون الله تعالى، وفيهم من يعبد الأوثان الشمس والقمر والحجر، وفيهم من حفروا الأخدود وأحرقوا فيها أتباع الأنبياء، وفيهم الطغاة، وفيهم البغاة، وفيهم الفساق والمُترَفون، وفيهم أصحاب الفيل وأصحاب السبت، وفيهم قوم لوط.

كلٌّ هؤلاء وغيرهم من المتمرِّدين على الله تعالى قد أكثر القرآن من الحديث عنهم وعن المصير الذي آلوا إليه، وعن العذاب الذي ينتظرهم يوم القيامة، فقد أخبر القرآن عن الطوفان الذي أودى بقوم نوح، وعن الأيام النحِسات التي أصابت قوم عاد، والصيحة التي أخذت قوم صالح، والرجفة التي دمَّرت قوم شعيب، والسماء التي أمطرت قوم لوط بحجارةٍ من سجيل، والبحر الذي صار كلُّ فِرْقٍ منه كالطود العظيم فأغرق فرعون وملئه، والخسف الذي ابتلع قارون وكنوزه، والمسخ الذي صيَّر من أصحاب السبت قِرَدة، وفي بني إسرائيل من مُسخوا قردةً وخنازير.

كلٌّ هؤلاء تحدَّث القرآن الكريم عنهم وقصَّ علينا أخبارهم وأحوالهم وحضَّ على أنْ نجعل من مصائرهم عبرةً ومتَّعظا، فهل يسوغ بعد كلِّ ذلك لمنصفٍ أنْ يتوهَّم بأنَّ المراد من قوله تعالى: ﴿ولَه مَنْ فِي السَّماواتِ والأَرْضِ كُلٌّ لَه قانِتُونَ﴾ هو انَّ كلَّ من في الأرض من الجنِّ والإنس مطيعون لأوامر الله تعالى وممتثلون لشرائعه حتى يُدَّعى انَّ هذه الآية المباركة منتقضة بمعصية إبليس وجحود الكثير من بني الإنسان وتجاوزهم لحدود الله تعالى.

هل أبصر ما خفيَ على الأوّلين و الآخرين؟!

إنَّ هذا الكم الوافر من الآيات المستوعِب لما يقرب من نصف القرآن والمتصدِّي للحديث عن العصاة والمتمرِّدين على الله تعالى كافٍ لو أنصف هذا الرجل للقطع بأنَّ مراد الآية ليس هو ما توهَّمه أو تعمَّد الإيهام به.

إذ لو كان كلٌ مَن في السماء والأرض مطيعين وممتثلين لأوامر الله تعالى وزواجره إذن فلماذا أعدَّ لهم جهنم وتوعَّدهم في الكثير من الآيات بالمصير إليها، ولماذا وصف الكثيرَ من الناس بالمشركين والكافرين والجاحدين والمنافقين والقاسطين والآثمين والضالين والمضلِّين والمفسدين والظالمين والمجرمين والفاسقين والكاذبين والخبيثين والملعونين والخائنين والبغاة والزناة والطغاة والقساة والجبابرة والأشقياء، أليست كلٌ هذه صفات المتلبِّسين بمعاصي الله تعالى والخارجين على أوامره والمتجاوزين لنواهيه، فهل نسيَ القرآن وخفيَ عن الرسولﷺ انَّ كلاً هؤلاء غير مطيعين لله تعالى حتى جاء صاحب الشبهة فتفطَّن لما غفل عنه الأوّلون والآخرون؟!

بيانٌ المراد من الآية الكريمة:

الكلٌ خاضعٌ لأرادته التكوينيّة:

وكيف كان فالمراد من الآية المباركة بعد الإلتفات إلى هذه القرينة القطعيَّة الصارفة والمانعة من إرادة المعنى المتوهَّم المذكور، المراد منها انَّ

كلٌّ مَن في السماوات والأرض فهم منقادون لله تعالى وخاضعون لسطانه وليس في وِسْعِ أحدٍ منهم التخلُّف عن إرادته التكوينيَّة، فالإنسانُ مثلاً لم يخرج من كتْم العدم إلى حيِّز الوجود بإرادته هو وإنَّما بإرادة الله جلَّ وعلا، فهو الذي اختار له الوجود واختار له الزمن الذي يخرج فيه من كتْم العدم، وحين إختار الله تعالى له الوجود لم يكن بوسعه التخلُّف ثم انَّ الله تعالى هو مَن اختار له المادة التي تخلَّق منها، ولو شاء هو أو شاء غيره ان يتخلَّق من غيرها من نحاسٍ أو حديدٍ مثلاً لما وسِعهم ذلك، ثم إنَّ الله حين شاء خلْق هذا الإنسان نقله وهو نطفة من مرحلةٍ إلى أخرى، ولو شاء هذا الإنسان أنْ يتمرَّد فيتخطَّى هذه المراحل لما وسِعه ذلك، ولو شاء الله تعالى لجعل منه إنساناً كاملاً دون انْ يتدرَّج به في خلقه، وحينئذ يكون مقسوراً على ذلك، وليس له أنْ يأبى على ربِّه إلا التدرُّج، وحين شاء الله تعالى له أنْ يخرج إلى الحياة كان هو مَن كيَّف له صورته وطبيعة نفسيَّته وسلامة أعضائه وأحشائه أوسقمها وقدَّر له مبلغ عقله ومداركه، وهو مَن قضى عليه مقدار أجله الذي يتحتَّم عليه حين بلوغه الإستسلام لحتفه، فليس له انْ يأبى على ربِّه الموت حين يشاء الله تعالى إماتته.

ثم إنَّ الله تعالى قدَّر له في الحياة أموراً لا يسعه نقضها والتمرُّد عليها فقدَّر عليه أنْ يكون طفلاً ثم شابًّاً ثم يُصبح شيخاً، فلو شاء أنْ يُولد شيخاً ثم يُصبح شابًّاً لما كان له ذلك، وقدَّر له النوم واليقظة، فلو أراد أنْ يظلَّ

مُستيقظاً أبداً لما استقام له ذلك، وقدَّر عليه الحاجة إلى الطعام والشراب والهواء، فلو شاء الاستغناء عن كلٍّ ذلك لما وسِعهُ، وهكذا فكلُّ شئونات الإنسان التكوينيَّة فإنَّه منقادٌ فيها لأوامر الله وإرادته جلَّ وعلا وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿كُلٌّ لَه قانتُونَ﴾.

لا جبرَ على الخضوع للإرادة التشريعيّة

وأمَّا انَّه يعصي الله تعالى ويتمرَّد عليه فذلك إنَّما هو في أوامره التشريعيَّة التي شاء الله تعالى فيها للإنسان أنْ يكون مختاراً، قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا﴾[1] وقال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[2] وقال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾[3].

١- سورة الكهف الآية/٢٩.

٢- سورة الإنسان الآية/٣.

٣- سورة البقرة الآية/٢٥٦.

القرائن على المعنى المُراد:

١- الآية في سياق التدبير الكوني:

والقرينة على انَّ المراد من الآية هو انَّ كل مَن في السماوات والأرض منقادون لإرادته وأوامره التكوينية، القرينة على ذلك مضافاً إلى ما تقدَّم بيانه هو انَّ الآية التي سبقت هذه الآية كانت تتحدَّث عن أمر الله تعالى للسماء والأرض والأموات، ومن الواضح انَّ الأمر لمثل هؤلاء اللذين لا عقل لهم ولا إرادة لا يكون إلا بنحو الأوامر التكوينيَّة والتي هي بمعنى التقدير عليهم قال تعالى: ﴿ومِنْ آياتِه أَنْ تَقُومَ السَّماءُ والأَرْضُ بِأَمْرِه ثُمَّ إِذا دَعاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الأَرْضِ إِذا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾[1] فقيام السماء والأرض بأمره معناه انَّ ذلك يكون بتقديره وقضائه، وكذلك فإنَّ دعوته الأموات بعد صيرورتها رميماً إنَّما يكون بمعنى قضائه عليهم أنْ يُبعثوا وحينئذٍ يتحتَّم تحقُّق الانبعاث لهم، فبعد هذه الآية المتصدية للتعريف بانقياد السماء والأرض لأمره التكويني قال الله تعالى: ﴿ولَه مَنْ فِي السَّماواتِ والأَرْضِ كُلٌّ لَه قانِتُونَ﴾ فليست الجمادات وحدها المنقادة لأمره بل إنَّ ذوي الإدراك والإرادة من سكَّان السماوات والأرض أيضاً منقادون لأمره التكويني فليس في مقدور أحدٍ منهم التخلُّف عن إرادته وتقديره والتمرُّد على القوانين الكونيَّة التي فرضها على عباده. هذا هو مفاد الآية بقرينة الآية

١- سورة الروم الآية/٢٥.

التي سبقتها، وهكذا فإنَّ الآيتين واقعتان في سياق آياتٍ متصدية لبيان تدبير الله تعالى لهذا الكون، فالآيات التي سبقت هاتين الآيتين هي قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ * يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ * وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(١) ثم قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ * وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾(٢) وبعد هاتين الآيتين قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ

١- سورة الروم الآيات/١٨-٢٤.

٢- سورة الروم الآيتان/٢٥-٢٦.

وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[١].

فالآيات التي سبقت الآية موردَ البحث والآية التي لحقتها كلُّها متصدِّية للحديث عن انَّ كلَّ ما في الكون فهو من خلق الله تعالى، وتدبيرُ الكون وتسييرُه والقوانين المنتظمة في إطاره كلُّها من أمر الله ومشيئته وإرادته، وذلك ما يُؤكِّد انَّ الآية مورد البحث إنَّما هي متصدِّية لإفادة أنَّ من في السماوات والأرض من ذوي الإدراك والإرادة منقادون لله تعالى شأنهم في ذلك شأنُ كلٍّ ما في السموات والأرض من غير ذوي الإدراك والعقل.

٢- الدعوة إلى طاعة الله في سياق الآية!

ثم إنَّ الآية مورد البحث والآيات التي وقعت في سياقها كان الغرض من سوقها بعد البرهنة على ربوبيَّة الله تعالى للكون هو الدعوة إلى الإنابة وتقوى الله تعالى وإقامة الصلاة والتوحيد لله تعالى وعدم اتباع الهوى، فلو كان المراد من الآية مورد البحث هو انَّ كلَّ إنسانٍ فهو مطيعٌ ومنقادٌ لله تعالى في أوامره التشريعيَّة فما معنى التوبيخ للإنسان في سياق الآيات نفسها على الظلم واتباع الهوى؟! وما معنى التشنيع في ذات الآيات على المشركين والتعبير عما يقتضي الفراغ عن وجودهم، وما معنى توصيفهم

١- سورة الروم الآية/٢٧.

بأنّهم فرّقوا الدين؟! وما معنى إنذار الكفار بما سوف يلقونه؟! وما معنى الدعوة في سياق نفس الآيات إلى الإنابة والتقوى؟! وهل ذلك إلا من تحصيل الحاصل لو كان المراد من الآية مورد البحث هو ما توهمه صاحب الشبهة. قال تعالى: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ * فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ * وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾[١].

الخلاصة:

والمتحصّل انّ ملاحظة الآيات التي وقعت الآية مورد البحث في سياقها، وكذلك الملاحظة للغرض من سَوْق هذه الآيات يُنتج الوثوق التام بأنّ المراد من قوله تعالى: ﴿ولَه مَنْ فِي السَّماواتِ والأرْضِ كُلٌّ لَه قانِتُونَ﴾ هو انّ كلّ مَن في السماوات والأرض بما فيهم الإنسان منقادون لإرادة الله التكوينيّة شأنُهم في ذلك شأنُ كلٍّ ما في الكون، وليس المراد من الآية

١- سورة الروم الآيات/٢٩-٣٥.

المباركة هو حتميَّة الطاعة والإنقياد لله تعالى في أوامره التشريعيَّة فإنَّ مشيئة الله جلَّ وعلا قد اقتضت أنْ يكون الإنسان مختاراً، فهذا الفهم للآية ليس مراداً جزماً بعد ملاحظة ما ذكرناه من قرينة قطعيَّة على امتناع إرادة هذا المعنى للآية المباركة.

والحمد لله رب العالمين

الشبهة الثامنة عشر

هل كان أتباعُ نوحٍ من المُغرقَين؟!

الشبهة الثامنة عشر

هل كان أتباعُ نوحٍ من المُغرقَين؟!

في سورة هود يقول القرآن على لسان قوم نوح: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾[1] ومنها نعرف أنَّ مَن آمن بنوحٍ هم الأراذل فهم اللذين أتبعوه، ولكن في سورة الصافات نرى أنَّ الرب لم ينجٍّ من الطوفان إلا نوحاً وآله: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾[2] طيب لماذا أغرق الأراذل وهم المؤمنون بنوحٍ ودعوته، أهذا هو جزاؤهم ...؟!

١- سورة هود الآية/٢٧.

٢- سورة الصافات الآية/٧٦.

الجواب

لماذا تُطرح مثل هذه الشبهة الواهنة؟!

هذه الشبهة على وهنها تُعبِّر عن أحد أمرين: إمَّا عن الاستعجال المُفرِط الذي يبتلي به الخصم فيُبادر إلى اقتناص كلِّ فرصةٍ يتوهَّم انَّها سانحة للوثوب على خصمه ثم لا يلبث حتى يندم، ذلك لأنَّ ما توهَّمه فرصةً سانحة لم تكن إلا سراباً قد سعى خلفه، فحين بلغه لم يجدْه شيئاً، فيكون قد أخفَقَ في مسعاه بعد أنْ فضح نفسه وكشف عن مبْلغِ فهمه ومخبوءِ سريرته المُنطوية على حسدٍ استحكمَ فأعشى بصره وأذهله عن رؤية ما هو في مرمى نظره.

وإمَّا ان يكون إيراد هذه الشبهة قد نشأ عن تعمُّد التضليل، وذلك برجاء انّ يكون القارئ لها ممَّن لم يقرأ سورة هود ولا غيرها من سور القرآن، ولا تستحثُه الشبهة على المراجعة والتثبُّت لقلةِ اكتراثه بذلك، فتكون مثل هذه الشبهة قد تركت أثرها في نفسه ولا يُزيل هذا الأثر إلا اتفاق الوقوف على ردِّها، ولعلَّ ذلك لا يتَّفق له، مثل هذا القارئ هو الفريسة التي يطمح هذا

المُثير للشبهة لاقتناصها في شِراكه الموهون، إذ من العسير تمريرُ مثل هذه الشبهة الواهية على مَن له أدنى اطلاع على آيات سورة هود فضلاً عمَّن يُديم التلاوة لعموم آيات القرآن.

جوابان على الشبهة:

الجواب الأول: تصريح نفس السورة!

وكيفما كان، فأتباعُ نوحٍ عليه السلام اللذين تباكى عليهم صاحب الشبهة قد صرَّحت سورةُ هودٍ نفسها أنَّهم كانوا فيمَن أنجاهم الله تعالى من الطوفان حيث حملهم نوحٌ عليه السلام معه في السفينة، قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آَمَنَ وَمَا آَمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ * وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[١] أي احمل فيها من كلٍّ ذي روحٍ زوجين، واحمل فيها أهلَك إلا من سبق القول من الله تعالى بمنعه وهي زوجته، واحمل فيها مَن آمن بك وكانوا قِلَّة، كلٌّ هؤلاء قد أُمر نوحٌ عليه السلام بحملهم في السفينة، فحين ركبوها جرت على اسم الله تعالى في ذلك الطوفان المهول.

١- سورة هود الآيتان/٤٠-٤١.

فهذا النص من سورة هود لا يفصله عن الآية التي نقلها صاحب الشبهة إلا آياتٌ محدودة لو انَّه تريَّث وتأنَّى!! لكنَّها الخصومة الجامحة تُعمي وتُصم.

آياتٌ عديدة تُصرِّح بنفس الأمر أيضاً!

على انَّ التصريح بنجاة المؤمنين بنوح من الطوفان لا يختصُّ بما ورد في سورة هود عليه السلام بل قد تصدَّت لبيان ذلك آياتٌ عديدة:

منها: قوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ * قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ * فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ﴾[١] فكان دعاء نوح عليه السلام لربِّه أنْ ينجِّيَه الله ومَن معه من المؤمنين فاستجاب الله تعالى له فأنجَّاه ومَن معه في الفلك المشحون وأغرق مَن تبقَّى من قومه ممَّن لم يكن على الإيمان معه.

ومنها: قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾[٢].

١- سورة الشعراء الآيات/١١٦-١٢٠.

٢- سورة الأعراف الآية/٦٤.

ومنها: قوله تعالى في سورة يونس: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾[1].

فالآيتان صريحتان في انّ الله تعالى قد أنجى في الفُلْك مَن كان مع نوحٍ عليه السلام وإنّ اللذين غرقوا في الطوفان هم مَن كذّب بآيات الله تعالى حيث وصف المُغرقَين في الآية الأولى بالمكذِّبين -أي الكافرين- وأنّهم كانوا قوماً عمين، وهذا الوصف لا يناسب مَن آمن بنوحٍ عليه السلام، ووصفهم في الآية الثانية بالمكذِّبين بآيات الله تعالى ثم جعل منهم عبرةً لكلٍّ من أراد الاعتبار، وذلك إنّما يُناسب في المقام اختصاص الغرق بالمكذِّبين دون المؤمنين.

فهذه آياتٌ وثمة أخرى دلّت على انّ مَن آمن بنوحٍ من قومه كان جزاؤهم مضافاً إلى نعيم الآخرة انّ الله تعالى أنجاهم من الطوفان فكانوا ممَّن حملهم نوحٌ معه في السفينة.

١- سورة يونس الآية/٧٣.

إثباتُ شيءٍ لا يستلزم نفي ما عداه:

وأما قوله تعالى في سورة الصافات: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ * وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾[1] فإنَّ أقصى ما يدلُّ عليه هو انَّ الله تعالى قد أنجى نوحاً وأهله من الغرق وأمَّا انَّه لم ينجُ من الطوفان غير نوحٍ وأهله من المؤمنين فذلك ما لم تتصدَّ الآيةُ لإثباته أو نفيه، ولهذا لا تكون الآية من سورة الصافات منافية لما دلَّ من الآيات على انَّ المؤمنين بنوح كانوا ممَّن نجَّاهم أيضاً من الغرق، وذلك لوضوح انَّ المتكلِّم لو أخبر عن واقعةٍ في مجلسين فكان ما أخبَر به في أحد المجلسين مشتملاً على زيادةٍ لم يذكرها في المجلس الآخر لا يكون ذلك مقتضياً للحكم بتناقض الخبرين، إذ لا تكاذب بينهما بعد أنْ لم تكن الزيادة منفيَّة في الخبر الآخر وإنَّما هي مسكوتٌ عن ذكرها لغايةٍ يُقدِّرُها المتصدِّي لبيان الخبر خصوصاً وانَّه لم يأتِ بما يدلُّ على انَّه في مقام الإخبار لكلِّ ما وقع أو شاهد.

مثالٌ توضيحي:

فلو قال رجلٌ لأبنائه: اشتريتُ اليوم من السوق خبزاً وعسلاً، وكان قد اشترى مضافاً إلى ذلك ثوباً إلا انَّه سكت عن الإخبار بشرائها لكنَّه في مجلسٍ آخر قال لأبنائه أو لغيرهم: اشتريتُ في هذا اليوم خبزاً وعسلاً

١- سورة الصافات الآيتان/٧٥-٧٦.

وثوباً فإنَّ أحداً لا يجدُ بين خبريه تناقضاً بعد انْ لم تكن الزيادةُ الواردةُ في الخبر الثاني منافية لشيء مما ورد في الخبر الأول، وبعد انْ لم يكن الخبر الأول مشتملاً على ما يُعبِّر عن انَّه كان بصدد الإخبار عن كلٍّ ما كان قد اشتراه من السوق.

وكذلك هو الشأن في الآية المباركة من سورة الصافَّات فإنَّها أخبرتْ عن نجاة نوحٍ وأهله لكنَّها لم تنفِ النجاة عن غيرهم من المؤمنين، ولم تشتمل على ما يُعبِّر عن انَّها كانت بصدد الإخبار عن كلٍّ مَن نجا من الغرق، فهي لم تُخبر أيضاً عن نجاة زوجين من كلٍّ صنفٍ من أصناف الحيوانات كما أخبرت بذلك آياتٌ أخرى، لذلك فهذه الآيةُ لا تُنافي الآيات المتعدِّدة التي أخبرت عن نجاة مَن آمن بنوحٍ من قومه.

وهل كان نوحٌ عليه السلام وحده في السفينة؟!

ثم انَّ في القرآن الكريم آيةً أخبرتْ عن نجاة نوحٍ من الغرق ولم تُخبر عن نجاة أهله ولا غيرهم، وهي التي وردت في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ * فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ * فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ * وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾[1] فآية:

١- سورة القمر الآيات/٩-١٣.

﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾ أخبرت عن نجاة نوح عليه السلام ولم تُخبر عن نجاة غيره، فهل يتوهَّم أحدٌ انَّ الآية تقتضي نفي النجاة عن غير نوح وانَّه وحده الذي نجا من الغرق؟!! إنَّ ما يُجاب به عن هذه الآية من سورة القمر يصلح جواباً عن الآية من سورة الصافَّات.

الجواب الثاني: حمل كلمة (الأهل) على جميع المؤمنين:

هذا هو الجواب الأول، وثمة جوابٌ آخر مبْتنٍ على التسليم جدلاً بأنَّ الآيةَ من سورة الصافَّات كانت بصدد الإخبار عن كلٍّ مَن تمَّ إنجاؤه من الغرق، وحاصل هذا الجواب إنَّه ونظراً لتصدِّي آياتٍ كثيرة للإخبار عن نجاة كلٍّ مَن آمن بنوح عليه السلام لذلك يتعيَّن حمل كلمة الأهل فى الآية من سورة الصافَّات على إرادة عموم المؤمنين بنوح عليه السلام أي إنَّ الآيات الأخرى الدالَّة على نجاة عموم المؤمنين بنوح تكون قرينةً على انَّ المراد من كلمة الأهل في سورة الصافَّات هو عموم المؤمنين بنوح عليه السلام.

فكلمةُ الأهل وإنّ كانت بحسب مدلولها الأولي ظاهرةٌ في إرادة الأقارب من ذوي النسب إلا انَّ استعمال اللفظ في غير مدلوله الأولي ليس عزيزاً بل هو شائعٌ جداً في كلام العرب بشرط قيام القرينة على إرادة المعنى الآخر دون المعنى الأولي للفظ أي انَّ حدود المعنى الآخر يتحدَّد بالقرينة المكتنفة بالكلام. وحيثُ انَّ في المقام قرينةً على انَّ المراد من كلمة الأهل هم الأتباع لنوح عليه السلام لذلك يتعيَّن حمل لفظ الأهل في الآية

على إرادتهم، فيكون معنى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ هو فنجّيناه وأتباعه المنتسبين إلى دعوته كما هو معنى ما ورد في القرآن من عنوان أهل الكتاب وأهل الإنجيل وأهل التوراة أي أتباع الكتاب وأتباع الإنجيل وأتباع التوراة.

والمقصود من القرينة القائمة في المقام هي الآيات الكثيرة التي دلَّت صريحاً على انَّ مَن آمن بنوحٍ كانوا في ضمن مَن نجا مع نوحٍ من الغرق، فإذا فرضنا انَّ الآية من سورة الصافَّات كانت بصدد الإخبار عن كلٍّ الناجين من الغرق وذكرتْ انَّ مَن نجا من الغرق هم نوح وأهله، فذلك يقتضي حمل كلمة الأهل على إرادة عموم المنتسبين لنوح التابعين لدعوته، إذ انَّه بعد انْ كانت الواقعة واحدة والمتكلِّم واحدٌ والمُفترَض انه عاقلٌ صادقٌ متثبِّت، فإذا كان عاقلاً فالعاقل لا يُناقض نفسه متعمِّداً إلا انْ يكون كاذباً ونحن فرضناه صادقاً ومَن كذَّبه فذلك شأنُه.

على انَّ الكاذب العاقل خصوصاً إذا كان صاحب دعوى تقتضي المصداقيَّة لا يُخبر بما ينتهي إلى فضح كذبه، ولا يخفى على عاقلٍ ان الإخبار بنجاة المؤمنين بنوح، والإخبار بغرقهم يكون من التناقض البيِّن الذي لا يُقدم عليه مَن يخشى على نفسه الفضيحة، فلم يبقَ إلا احتمال نسيانه لخبره الأول أي نسيانه لما كان قد أخبر به من نجاة كلٍّ مَن آمن من

قوم نوح، فحيثُ انَّه قد نسي ما كان قد أخبر به لذلك جاء خبرُه الثاني مناقضاً لخبره الأول.

وهذا الاحتمال في غاية السقوط بعد افتراض انَّ المتكلِّم من الأثبات وانَّ خبره الأول كان قد تقدَّم على الخبر الثاني وتأخَّر عنه أيضاً، فالإخبار بنجاة عموم المؤمنين بنوح قد صدر في سورٍ عديدة نزلت قبل سورة الصافات، وصدَرَ في سورٍ عديدة نزلت بعد سورة الصافَّات، فكيف يَحتمِل منصفٌ حينئذ نسيان الوحي والنبيﷺ لخبره الأول؟!!

هذا مضافاً إلى انَّ هذه الآيات لم تكن مسطورة في قرطاسٍ مهمَل فيكون مَن كتبها قد نسيَ مضمونها، فالآيات الدالَّة على نجاة مَن آمن بنوح وكذلك آية الصافَّات كانت تُتلى ليلَ نهار في محافل المسلمين وفي صلواتهم اليوميَّة، وكان النبيُّﷺ يحضُّ المسلمين على تلاوتها وتدوينها وحفظها ويَعدُهم على ذلك بالثواب الجزيل، فكيف يُتعقَّل انَّه قد نسيَ ما أخبر به أولاً؟!!.

إذن فلا النسيان متعقَّل ولا الإخبار بالنقيضين رغم الالتفات وعدم النسيان والحرص على المصداقيَّة متعقَّل فيتعيَّن البناء على انَّ الآية من سورة الصافَّات متَّحدةُ المفاد مع الآيات الأخرى والكثيرة الدالَّة على نجاة عموم المؤمنين بنوح، وهذا يقتضي حمل كلمة الأهل على إرادة عموم

الأتباع لنوحٍ عليه السلام إذا تمَّ الإصرار على انَّ الآية من سورة الصافَّات كانت بصدد الإخبار عن كلٍّ مَن تمَّ إنجاؤه مع نوح من الغرق.

إبن نوح عليه السلام ليس من أهله!

ويمكن تأييد إرادة الأتباع المنتسبين لدعوة نوح من كلمة الأهل في سورة الصافَّات -مضافاً إلى شيوع هذا الاستعمال- بما ورد في سورة هود حين سأل نوحٌ ربَّه عن ابنه الذي كان كافراً فقال تعالى: ﴿يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾[1] فنفى عن ابن نوح انَّه من أهله رغم انَّه من أقاربه وهو ما يُعبِّر عن انَّ القرآن أراد من نفي ابن نوح عن أهله هو نفيه من أتباعه المنتسبين لدعوته، فيكون قد استعمل الأهل في الأتباع وليس في الأقارب، ولذلك علَّل النفي بما يُناسب استعمال الأهل في الأتباع المنتسبين لدعوة نوح فقال: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾، فكأنَّ الآية أرادت الإشارة إلى انَّ أهلك يا نوح هم الصالحون المؤمنون بدعوتك وإنَّ مَن كفر بدعوتك فهو ليس من أهلك وإنّ كان من ذوي قرابتك.

الخلاصة:

والمتحصَّل مما ذكرناه انَّ القرآن صريحٌ في انَّ الله تعالى قد كافأ اللذين آمنوا بنوح بأنّ أنجاهم من الغرق، هذا مضافاً إلى ما ينتظرهم من نعيم

١- سورة هود الآية/٤٦.

الآخرة. وأما الآية التي وردت في سورة الصافّات فهي ليست منافية للآيات الكثيرة الدالة على نجاة عموم المؤمنين بنوح، وذلك لأنّ أقصى ما تدلُّ عليه هو انّ الله تعالى قد أنجى نوحاً وأهله وأما انّه قد أغرق أتباع نوحٍ أو أنجاهم فذلك مسكوتٌ عنه في الآية المباركة، فهي لا تنفيه ولا تثبته وبذلك لا تكون منافية للآيات المُثبِتة لنجاتهم.

ومع البناء على انّ الآية من سورة الصافّات كانت بصدد الإخبار عن كلٍّ من تمّ إنجاؤهم من الغرق فحينئذٍ يتعيَّن حمل لفظ الأهل الوارد في الآية على عموم أتباع نوح عليه السلام وذلك بمقتضى الجمع العرفي بين الآية من سورة الصافّات والآيات الأخرى الكثيرة المُثبِتة لنجاة كلٍّ مَن آمن بنوحٍ عليه السلام فيكون معنى قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ انّه قد نجّيناه وأتباعه المنتسبين لدعوته، وبذلك تكون الآية متّحدةَ المفاد مع الآيات الأخرى المُثبِتة لنجاة كلٍّ مَن آمن بنوح عليه السلام.

والحمد لله رب العالمين

الشبهة التاسعة عشر

﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾

الشبهة التاسعة عشر

﴿وَإِنْ مِنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾

ذكر القرآن في سورة مريم إنّ الجميع سيدخلون النّار دون استثناء: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾[1] ألا يناقضُ ذلك ما يدّعيه المسلمون من انّ الله أعدّ للشهداء والملتزمين منهم بدين محمد صلى الله عليه وآله جناتٍ عرضها السماوات والأرض؟!!

١- سورة مريم الآيتان/٧١-٧٢.

الجواب

المُراد من الورود:

الورود في قوله تعالى: ﴿وإن مِنْكُم إلا وارِدُها﴾ ليس بمعنى الدخول في جهنم والإبتلاء بشيءٍ من حرِّها، فإنَّ كلمة الورود ليست مرادفة لغةً ولا عرفاً لمعنى الدخول وإنَّما هي بمعنى البلوغ والوصول للمقصد، والأصل فيها بلوغ الماء أي بلوغ المناهل والمشارع للشرب والتزوُّد، ومعنى بلوغها هو الإنتهاء إليها والإقتراب منها بحيثُ تكون في متناول مَن بلغها، وليس بلوغها بمعنى الخوض فيها، فإنَّ ذلك ليس دخيلاً في صدق الورود، فإنَّ مَن بلغ الماء وصار في متناوله يصدق عليه لغةً وعرفاً انَّه ورد الماء وإنْ لم يكن قد خاض فيه بل غالباً لا يخوض الوارد في الماء حتى لا يُفسده، ولهذا قال ابن منظور في كتابه لسان العرب نقلاً عن أبي إسحاق: "وفي اللغة: ورد بلد كذا وماء كذا إذا أَشرف عليه، دخله أَو لم يدخله، قال: فالوُرودُ، بالإِجماع، ليس بدخول"[1].

١- لسان العرب –ابن منظور- ج٣ ص٤٥٧.

فالورود يعني البلوغ والإشراف على المورود وإن لم يتحقّق معه الدخول كما أفاد ذلك علماء اللغة، قال ابن منظور في كتابه لسان العرب: "ووَرَدَ عليه: أَشرَفَ عليه، دخله أَو لم يدخله؛ قال زهير:

فَلَمَّا وَرَدْنَ الماءَ زُرْقاً جِمامُه وضَعْنَ عِصِيَّ الحاضِرِ المُتَخَيِّمِ

معناه لمَّا بلغن الماء أَقَمْنَ عليه"[1]. وذكر أيضاً انَّ: "العرب تقول ورَدْنا ماء كذا ولم يَدْخُلوه"[2].

الورود في الاستعمال القرآني

ويُؤيِّد ذلك مضافاً لما تقدَّم انَّ القرآن الكريم استعمل كلمة الورود في موضعين، وفي كلٍّ منهما كان الواضح من معنى الورود هو الدنو والإشراف على المورود، وليس الدخول فيه:

الموضع الأول: في سورة القصص: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾[3].

١- لسان العرب -ابن منظور- ج٣ ص٤٥٧.

٢- لسان العرب -ابن منظور- ج٣ ص٤٥٧.

٣- سورة القصص الآية/٢٣.

فإنَّ الواضح من الآية المباركة انَّ معنى وُرود موسى عليه السلام لماء مَدْيَن هو بلوغه موضع الماء من أرض مدْيَن، وليس معناه دخول ماء مدين والخوض فيه، فهو قد ورده والناس مجتمعون حول الماء ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ ووجد امرأتين تحبسان الشياه التي يرعَيانها عن الشرب من الماء، ومعنى ذلك أنَّهما كانتا بعيدتين شيئاً ما عن مجرى الماء أو منبعه ﴿وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ فهما دون الأمَّة المجتمعين حول الماء، فحين وجدهما موسى عليه السلام على هذه الحال أخذ الشياه وسار بها إلى مجرى الماء أو منبعه أو انَّه ذهب فحمل إلى شياه المرأتين الماء.

فالآية أخبرت عن ورود موسى عليه السلام الماء في ظرفٍ لم يكن بعدُ قد أصبح مجرى الماء أو منبعه في متناول يده فضلاً عن خوضه فيه، على انَّ سقيه بعد ذلك للمرأتين لا يعني خوضه في الماء، فإنَّ ذلك خلاف المتعارف، فهو إمَّا أنْ يكون قد وضع دلواً في الماء وملئه ثم سقى به الشياه، وإمَّا أنْ يكون قد قرَّب الشياه من مجرى الماء بحيثُ صار بوسعهم أن يشربوا منه، وفي كلا الفرضين كان وروده الماء بمعنى الدنو والإشراف على مجرى الماء أو منبعه، ويتأكَّد ذلك من قوله تعالى: ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾[1] فكانوا من الماء في موضع المُشرف عليه أي كانوا على ضفَّته أو أسواره، ولو كانوا في وسطه لقال: ووجد فيه أمةً من الناس

١- سورة القصص الآية/٢٣.

يسقون ولم يقل: ﴿عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ﴾[١] فالآية واضحة جداً في انَّ المراد من الورود هو البلوغ والوصول وليس الدخول.

الموضع الثاني: في سورة يوسف عليه السلام: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُون﴾[٢]

فالآية وصفت الساقي الذي أدلى دلوه في البئر وصفته بالوارد، ومن الواضح انَّ الإستسقاء من البئر لا يكون بنحو الخوض فيه وإنَّما يكون بنحو الإقتراب منه والإشراف عليه من أعلى، فالآية إذنْ أفادت انَّ الساقي قد ورد البئر والحال انَّه لم يكن قد دخله، ولهذا فالورود لا يعني الدخول ولا يستلزمه.

الورود بمعنى الدخول لا يُستعمل إلا بقرينة

وبذلك يتأكَّد انَّ الورود ليس بمعنى الدخول، نعم قد يُستعمل لفظ الورود ويُراد منه الدخول ولكنَّ ذلك لا يتمُّ إلا إذا نصب المتكلِّم قرينةً على إرادته أو كان الكلام مكتنفاً بقرينةٍ يصحُّ الإتِّكال عليها لإفادة معنى الدخول، وهذا معناه انَّ استفادة معنى الدخول لم يكن من حاقِّ لفظ الورود

١- سورة القصص الآية/٢٣.

٢- سورة يوسف الآية/١٩.

بل كان ذلك بواسطة القرينة، فيكون الورود متمحِّضاً لإفادة معنى البلوغ والوصول وتكون القرينة مقتضية لإفادة معنى الدخول على سبيل تعدُّد الدالِّ والمدلول، فلو قيل مثلاً: "وردْنا منزل زيد وقضينا الليل كلَّه فيه"، فإنَّ المستفاد من هذه الجملة الخبرية انَّهم دخلوا منزل زيد إلا انَّ استفادة ذلك لم يتم من لفظ "وردنا" وإنَّما استُفيد ذلك بواسطة ما اشتملت عليه الجملة من الإخبار عن انَّهم قضوا ليلتهم فيه، وذلك لا يكون إلا مع الدخول، فهذه هي القرينة التي نشأت عنها استفادة الدخول وإلا لو قال المتكلِّم: "وردنا منزل زيد" وسكت فإنَّ الدخول لا يُستفاد منها، ولذلك لا نعدُّ المتكلِّم متناقضاً في كلامه لو قال: "وردنا منزل زيد" ثم قال: "ولكننا لم ندخل"، فلو كان الورود بمعنى الدخول لكان المحصَّل من كلاميه انَّهم دخلوا منزل زيد ولم يدخلوه، والحال انَّ الأمر ليس كذلك في الوجدان العربي.

معنى الورود في الآية

وبمجموع ما ذكرناه يتَّضح انَّ الآية، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾[١] ليست ظاهرة في أكثر من انَّ عموم الناس يتمُّ استحضارهم إلى جهنم فيكونون منها في موضع المطَّلع عليها وأما دخولهم إلى وسطها فذلك ما لايمكن استفادته من الآية المباركة لعدم

١- سورة مريم الآية/٧١.

دلالة الورود على الدخول وانَّ أقصى ما يدلُّ عليه لفظ الورود هو الوصول الذي قد يتعقَّبه دخول وقد لا يتعقَّبه دخول.

هل الإنجاء يستلزم الدخول؟

وأمَّا قوله تعالى بعد الآية: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾[1] فلا يدلُّ على انَّ عموم المؤمنين والكافرين يدخلون ثم يُنجِّي الله اللذين اتقوا فيُخرجهم من جهنم بعد ان كان قد أدخلهم فيها، فإنَّ النجاة من جهنم يصدق بصرفهم أساساً عن دخولها بعد أنْ بلغوها فكانوا منها في موضع المشرف عليها والمطِّلع على أهوالها، فهم حينما يكونون على شفير جهنم أو حول أسوارها أو على الصراط الممتد من فوقها فإنَّهم جميعاً يكونون في معرَض الدخول أو السقوط فيها، فعندما لا يتحقَّق ذلك للمؤمنين ويكون نصيب غيرهم القسر على دخولها فإنَّ ذلك يُعدُّ بنظر العرف من النجاة، عيناً كما لو كان جمعٌ من الناس يعبرون جسرا يُطلُّ على نهرٍ عميق فتصدَّع الجسر فسقط في النهر بعضُ من كان يعبره فغرقوا وتمكَّن آخرون من عبوره، فإنَّ هؤلاء اللذين تمكَّنوا من عبور الجسر رغم تصدُّعه بهم يصحُّ أنْ يُقال عنهم انَّهم نجوا من الغرق مع انَّهم لم يسقطوا أساساً في النهر.

١- سورة مريم الآية/٧٢.

فقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَواْ﴾ لا يدلُّ على أنَّهم قد أُدخلوا في جهنم ثم تمَّ إخراجهم منها، وذلك لأنَّ الإنجاء يصدق عرفاً بكفايتهم ووقايتهم من دخولها بعد أنْ كانوا لقربهم على وشك أنْ يتهاووا فيها.

النجاة قد لا تصدق بدخولهم جهنم

بل قد يُقال إنَّ النجاة لا تصدق عرفاً بعد إخراجهم لو كانوا قد دخلوا فيها وأصابهم لهبُها واكتوت أجسادهم من سعيرها، لأنَّهم حينئذٍ يكونون قد عُذِّبوا في جهنم ولو آناً ما، فلا يصدق عليهم انَّهم قد نجوا من عذاب جهنم عيناً كما لو جِيء بجماعة فزُجَّ بهم في السجن ثم بعد مدةٍ من الزمن أُخرج بعضهم، فإنَّه لا يُقال لهؤلاء اللذين أُخرجوا من السجن لعفوٍ أو غيره انَّهم قد نجوا من السجن لأنَّهم قد سُجنوا فيه، غايته انَّ مدة مكثهم كانت دون المدة التي مكث فيها مَن كان معهم، فإذا كانوا قد نجوا فهو من طول المدة وليس من السجن نفسه، فالنجاة من الشيء المكروه لا تصدق إلا في فرض عدم الوقوع فيه أساساً وإلا كانت نجاة من الاستمرار في ذلك الشيء المكروه أو نجاة من مرتبةٍ من مراتب ذلك المكروه، واما النجاة من أصل ذلك المكروه فلم تتحقَّق.

نتيجة:

وكيف كان فسواءً قبلنا بعدم صدق النجاة على مَن دخل جهنم ثم أُخرج منها أو لم نقبل وقلنا بأنَّه يصدق على من أُخرج من جهنم انَّه قد

نجى منها فإنَّ الذي لا يقبل التردُّد هو صدق النجاة على مَن كان عند شفير جهنم أو على الصراط الممتد فوقها ثم لم يُقدَّر له أنْ يتهاوى فيها، فإنَّ مثله يكون ممَّن نجا دون ريب، فقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَواْ﴾[١] لا يصلح قرينةً على انَّ المراد من الورود في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾[٢] هو الدخول.

دخول الظالمين لا يستلزم دخول المؤمنين

وأمَّا قوله تعالى: ﴿وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾[٣] فمعناه اننَّا نُدخلهم ثم نتركهم يمكثون فيها، فمفاد الآية انَّ عامة الناس من المتَّقين والظالمين يردون إلى جهنم ويُستحضرون حولها، فأمَّا المتَّقون فيكون نصيبهم النجاة من الدخول في جهنم، وأما الظالمون فنصيبهم دخولُها والمكثُ فيها، فهو لم يقل نُدخلهم ثم نذَرهم ونتركهم فيها لأنَّ قوله نذَرهم يُعبِّر عن المعنيين، ذلك لأنَّه عندما يقول نذرهم فيها فهذا يستلزم انَّه أدخلهم فيها، فيكون محصَّل الآية المباركة هو ما ذكرناه من انَّ الله تعالى بعد إحضار عامة الناس إلى جهنم يُنجِّي المتَّقين ويُدخل الظالمين في جهنم ويتركهم فيها، فقوله تعالى: ﴿وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ﴾ لا يستلزم دخول الجميع ثم ترك الظالمين

١- سورة مريم الآية/٧٢.

٢- سورة مريم الآية/٧١.

٣- سورة مريم الآية/٧٢.

وإخراج المتَّقين، ولذلك لا موجب لصرف لفظ الورود في الآية عن مدلوله اللغوي والعرفي وهو البلوغ والحضور والإشراف على المورود.

إشكال: هناك آيات استعملت الورود بمعنى الدخول

وقد يُستدلُ لدعوى انَّ الورود يعني الدخول بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾[١] وكذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[٢] فإنَّ الورود في الآيتين استُعمل في الدخول.

جواب عام:

الجواب عن ذلك قد اتَّضح ممَّا تقدم حيث ذكرنا انَّ الورود قد يُستعمل ويُراد منه الدخول لكنَّ ذلك لا يتمُّ إلا عند نصب المتكلِّم قرينةً على إرادته معنى الدخول من لفظ الورود أو كان الكلام مُكتنفاً بقرينةٍ يصحُّ الإتِّكال عليها في مقام الإفادة لمعنى الدخول من استعمال لفظ الورود، فإذا لم يكن الكلام مشتملاً على قرينةٍ مقتضية لاستظهار معنى الدخول من استعمال

١- سورة هود الآيتان/٩٧-٩٨.

٢- سورة الأنبياء الآيتان/٩٨-٩٩.

لفظ الورود فإنَّ لفظ الورود حينئذٍ يكون ظاهراً في مدلوله اللغوي والعرفي وهو البلوغ والدنو والحضور وماهو قريبٌ من هذه المعاني.

الجواب بالنسبة للآية الأولى:

فلأنَّ المعلوم من شأن فرعون وقومه انَّ مآلهم لا ينتهي إلى مجرَّد الحضور و الدنو من جهنم بل إنَّهم سوف يُعذَّبون فيها لذلك تمَّ استظهار معنى الدخول من قوله تعالى: ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ وكذلك فلأنَّ الإخبار في الآية الثانية عن انَّ المشركين وما يعبدون حصبُ جهنم ووقودها وانَّهم في جهنم خالدون لذلك ومن هاتين القرينتين تمَّ استظهار إرادة الدخول من كلمة: ﴿وَارِدُونَ﴾ وكلمة: ﴿وَرَدُوهَا﴾ في الآية.

فاستفادة الدخول في الآيتين لم يكن من حاقٍّ لفظ الورود وإنَّما بواسطة القرينة، على انَّ من غير الواضح إرادة الدخول من كلمة الورود في كلا الآيتين:

أما قوله تعالى: ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ فالظاهر من كلمة "أوردهم" هو انَّ فرعون هداهم إلى النار وذلك بتضليله لهم كما قال تعالى: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾(١) فهو بتضليله لهم كأنَّه قادهم حتى بلغ بهم النار، فمعنى أوردهم النار هو انَّه أضلَّهم حتى أوصلهم إلى النار،

١- سورة الزخرف الآية/٥٤.

فكلمة الورود في الآية استُعملت في مدلولها اللغوي وهو البلوغ والوصول وليس الدخول، إذ انّ الإدخال لجهنم ليس من شأن فرعون، فليس هو مَن يأمر بإدخال قومه النار ولا هو مَن يُباشر ذلك، فالمناسب لشأن فرعون نظراً لكونه من أئمة الضلال هو انَّه يقود بضلالاته قومَه حتى يُوصلهم إلى النار.

الجواب بالنسبة للآية الثانية:

وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آَلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(١) فلا يبعد أنّ يكون المراد من كلمة الورود هو الحضور، فقوله: ﴿أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ أي مُحضَرون إلى جنهم، وقوله: ﴿مَّا وَرَدُوهَا﴾ أي ما أُحضروا إليها، فلو كانوا آلهة حقاً لما أمكن إحضارهم قسراً وإيقافهم عند جهنم، فمفاد هذه الآية هو مفاد قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾(٢) فالآية تتوعَّد المشركين بإحضارهم وآلهتهم وعرضهم على جهنم إمعاناً في استصغارهم والنكايةِ بهم وحتى يشهدوا بأمٍّ أعينهم ويشهدَ المحشرُ انّ هذه الآلهة المزعومة لم تُغنِ عنهم شيئاً، وبعدئذٍ يُقذفون في جهنم ويُخلَّدون فيها، واستفادة دخولهم إلى جهنم لم يكن من استعمال

١- سورة الأنبياء الآيتان/٩٨-٩٩.

٢- سورة مريم الآية/٦٨.

الآية لكلمة الورود وإنَّما كان ذلك من قوله: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ وقوله: ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

نتيجة:

فالورود في كلٍّ من الآيتين لم يكن ظاهراً في إرادة الدخول، فهو إنْ لم يكن ظاهراً في الحضور والوصول فهو ليس ظاهراً في الدخول أيضاً، لذلك فلا تصلح الآيتان للاستدلال بهما على انَّ الورود في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ كان بمعنى الدخول.

جواب تنزُّلي على الشبهة:

على انَّه لو سلَّمنا جدلاً إفادة الآية، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾[١] لدخول عامة الناس إلى جهنم ثم نجاة المتقين منهم فإنَّ ذلك مما لا محذور فيه بعد أنْ لم تكن الغاية من دخولهم هي إيقاعهم في العذاب، إذ انَّ ذلك لن يتَّفق جزماً ولو لوقتٍ يسير، ولن ينال المتقين من العذاب شيء ولو كان بمستوى اليسير من الخوف أوالحزن كما صرَّحت بذلك الكثير من الآيات كقوله تعالى: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٢]

١- سورة مريم الآية/٧١.

٢- سورة الزمّر الآية/٦١.

وقوله تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾(١) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾(٢) وقوله تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(٣).

فالأتقياء والصالحون ليسوا من أصحاب النار كما أفادت هذه الآيات وغيرها كثير، وأصحاب النار إنَّما هم المستكبرون والظالمون، فدخول المتَّقين والصالحين للنار لو سلَّمنا بوقوعه فهو ليس لغرض إصابتهم ولو باليسير من السوء، فإنَّ الآية التي أفادت أنَّهم واردونها ليس فيها ما يدلُّ على وقوعهم في شيء من عذابها، وذلك لأنَّ الدخول لا يستلزم الوقوع في العذاب، فإنَّ جهنم مؤتَمِرةٌ تكويناً بأمر الله تعالى، فدخولها لا يُساوق الإبتلاء بسعيرها، فإنَّ ملائكة العذاب وزبانية جهنم يدخلون جهنم ولا ينتابهم من عذابها شيء.

١- سورة الزخرف الآيتان/٦٧-٦٨.

٢- سورة فصلت الآيات/٣٠-٣٢.

٣- سورة الأعراف الآيتان/٣٥-٣٦.

الغايات المتصورة لدخول المتقين إلى النار

فإذا دلَّت الآيات الكثيرة على انَّ الله تعالى قطع على نفسه عهداً أنْ لا يُعذِّب المتَّقين ولو بأيسر العذاب وكان قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾(١) مفيداً بحسب الفرض لدخول المتَّقين إلى النار فإنَّ ذلك موجبٌ لاستظهار انَّ دخولهم يكون لغايةٍ هي غير الإيقاع في العذاب، وذلك بأنْ تكون الغاية من إدخالهم هو إطلاعهم على أهوال جهنم وما تشتمل عليه من صنوف العذاب فيزدادون لذلك شعوراً بالابتهاج والغبطة حيثُ انَّ الله تعالى قد وقاهم من عذابها، فإنَّ الإنسان بمقتضى طبعه عندما يستحضر الإبتلاءات ويجد نفسه في عافيةٍ منها فإنَّه يبتهج لذلك، ويزداد ابتهاجاً عندما يُعاين أسبابها وهو يعلم انَّه في منئىً منها وانَّه لن يُصيبه منها شيء خصوصاً وانَّه ينتظر نعيماً مقيماً لا زوال له ولا نفاذ، فدخول المتَّقين للنار يكون جزءً ممَّا سيحظون به من نعيم الله تعالى.

وقد تكون الغاية من إدخال المتَّقين للنار هو مُعاينتهم للظالمين وهم يُعذَّبون فيكون في ذلك تسكينٌ لغيظهم الذي طالما تجرَّعوه من هؤلاء الظلمة، ويكون ذلك في ذات الوقت وقوفاً منهم على إنجاز الله تعالى لوعده لهم بالانتقام لهم من الظالمين.

١- سورة مريم الآية/٧١.

الأدلة على أن المتّقين لا يُعذّبون:

١- الآيات التي لا حصر لها:

فدخول المتّقين للنار لا يعني انّهم سيُعذّبون فيها ولو آناًما بعد أنْ دلّت الآيات التي تفوق حدّ الإحصاء على انّ الله تعالى قد قطع على نفسه عهداً أنْ لا يَمسّهم بعذابٍ ولو كان يسيراً.

٢- مدلول النجاة

على انّ قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ قد تعقّبه مباشرةً قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾[١] وقد قلنا إنّ النجاة لا تتحقّق إلا بالكفاية من أصل العذاب في جهنم، ذلك لأنّ النجاة بحسب مدلولها العرفي تعني الخلاص من المكروه في ظرفٍ يكون معه الإنسان معرَضاً للوقوع فيه.

فلو فُرض انّ المتقين يُعذّبون في جهنم ثم يتمُّ إخراجهم منها فإنّ معنى ذلك انّهم لم ينجوا من عذاب جهنم، غايته انّه قد تمّ استنقاذهم وانتشالهم من عذابها بعد أنْ وقعوا فيه، فهم قد نجوا من مرتبةٍ من مراتب العذاب في جهنم لا انّهم نجوا من عذاب جهنم، وهذا خلاف ظاهر الآية التي أفادت انّ الله تعالى يُنجّي المتقين.

١- سورة مريم الآية/٧٢.

٣- امتداح المتّقين في نفس الآية

هذا مضافاً إلى انَّ الآية ظاهرةٌ في امتداح المتَّقين، وذلك بتوصيفهم فيها بالتقوى، وهي من أعلى الأوسمة التي يمتدح اللهُ تعالى بها المؤمنين من عباده، والإخبار بتعذيبهم لا يناسبه امتداهم بأنَّهم خيرُ عباده، فلا يصدر من السيد الحكيم القول بأنه سيُعذب من أطاعوه وامتثلوا أوامره والتزموا بتقواه وخشيته، فهو إذا أراد تعذيبهم فالمناسب لذلك ان يُنوّه ولو بنحو الإشارة إلى منشأ تعذيبه لهم لا انَّه يؤكِّد على طاعتهم في سياق الإخبار عن تعذيبهم، فإنَّ ذلك لا يصدر عن متكلِّمٍ حكيم، ولذلك حين اخبر في الآية عن تعذيب الفريق الآخر نوَّه على ذلك بتوصيفهم بأسوأ ما هم عليه من صفةٍ وهي الظلم فقال تعالى: ﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾[١].

٤- القرينة القطعية

ثم إنَّ الآية أفادت انَّ عامة الناس سيردون إلى جهنم دون استثناء، ومعنى ذلك انَّ الأنبياء والأوصياء والأولياء وكذلك غيرهم ممَّن لم يجترحوا ما يوجب العقوبة سيكونون ضمن مَن سيردُ إلى جهنم، فلو كانت الغاية من إدخالهم هي تعذيبهم لكان مؤدَّى ذلك هو انتفاء العدل الإلهي والذي هو أصلٌ من أصول الدين، وقد قام البرهان العقلي القطعي على ثبوته لله

١- سورة مريم الآية/٧٢.

جلَّ وعلا مضافاً إلى النصوص الدينيَّة من الآيات والروايات المتواترة عن الرسول صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام والتي أفادت انَّ الله تعالى عدلٌ مطلق وانَّه منزَّهٌ عن كلِّ ظلم، ولذلك يتحتَّم بمقتضى هذه القرينة القطعيَّة البناء على انَّ دخول المتَّقين للنار لو تمَّ التسليم به يكون لغايةٍ هي غير إيقاع العذاب عليهم.

والحمد لله رب العالمين

الشبهة العشرون

هلاكُ قوم عادٍ في يومٍ أو ثمانية؟

الشبهة العشرون

هلاكُ قومٍ عادٍ في يومٍ أو ثمانية؟

اختلفت آياتُ القرآن في مقدار الوقت الذي استغرقه العذاب الواقع من الله على قوم عاد، فسورةُ القمر ذكرت انَّه يومٌ واحد، وأما سورةُ فصِّلت فذكرت انَّه امتدَّ لأيام، ومعنى ذلك انَّها تزيد على اليوم واليومين ولا تقلُّ عن ثلاثة، وأما سورةُ الحاقَّة فذكرتْ أنَّه وقع في سبعِ ليالٍ وثمانيةِ أيام، أليس ذلك من التناقض؟!

وأخيراً هل كان قومُ عادٍ صرعى (واقعون على الارض) أم مثل أعجازِ نخلٍ خاوية (واقفة)؟؟؟

الجواب

لا تناقض بين التفصيل والإجمال

ليس بين الآيات المشار إليها تناقض، وذلك واضحٌ لمَن له حظٌ من فهمٍ بالكلام العربي، فالآية من سورة الحاقَّة، وهي قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً﴾[1] متصدِّية لتحديد مقدار الوقت الذي استغرقه العذاب الواقع من الله تعالى على قومٍ عاد، وقد أفادت انَّه استغرق ثمانيةَ أيامٍ وسبع ليال، واليوم في استعمال العرب يُطلق ويُراد منه النهار، فعليه يكون العذاب قد بدأ وقوعه على قوم عاد نهاراً واستمرَّ إلى ثمانية أيام، فلو كان قد بدأ في

١- سورة الحاقة الآيتان/٦-٧.

يوم الأربعاء -كما أفادت ذلك بعض الروايات[١]- فنهايته تكون في نهاية يوم الأربعاء الثانية أي انَّه انقطع قبل دخول ليلة الخميس.

فتكون ليلة الخميس الأولى داخلة والثانية خارجة، وهذا هو معنى انَّ العذاب امتدَّ سبع ليالٍ وثمانية أيام أي نهارات.

وأما الآية من سورة فُصِّلت وهي قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾[٢] إلى قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ﴾[٣] فهي لم تتصدَ لتحديد مقدار الوقت -الذي استغرقه العذاب الواقع على قوم عاد - تفصيلاً إنَّما أفادت انَّه وقع في أيامٍ وأجملتْ مقدار هذه الأيام، والأيام تصدق على ما لا يقلُّ عن الثلاثة ولا يزيد على العشرة أي انَّ كلمة أيام تقع تمييزاً للعدد ثلاثة إلى العدد عشرة، فيصحُّ أنْ يُقال ثلاثة أيام، وخمسة أيام، وثمانية أيام، وعشرة أيام، ولا يصحُّ تمييز المفرد والمثنى بالأيام، ولا تمييز ما زاد على العشرة.

---

١ - كما في مرفوعة عثمان بن عيسى عن أبي عبدالله عليه السلام في علل الشرائع -الشيخ الصدوق- ج٢ ص٣٨١، تفسير نور الثقلين -الشيخ الحويزي- ج٥ ص١٨١، تفسير جوامع الجامع -الشيخ الطبرسي- قال: روي ذلك عن الباقر عليه السلام ج٣ ص٤٦٦.

٢- سورة فصلت الآية/١٥.

٣- سورة فصلت الآية/١٦.

وعليه فعدم التنافي بين الآية من سورة فُصِّلت والآية من سورة الحاقَّة واضح، لأنَّ الآية من سورة فُصِّلت أفادت انَّ العذاب الذي وقع على قوم عاد استغرق أياماً ولم تتصدَّ لبيان المقدار التفصيلي لهذه الأيام، وأما الآية من سورة الحاقَّة فتصدَّت لتفصيل ما أجملته الآية من سورة فُصِّلت فأفادت انَّ تلك الأيام كانت ثمانية.

وهذا الأسلوب متعارفٌ في المحاورات العرفيَّة، فقد يتعلَّق غرض المتكلِّم ببيان التفصيل وقد يتعلَّق غرضه بالإجمال، فيُخبر الرجل عن نفسه انَّه سافر أياماً فيقول: سافرتُ إلى بغداد أياماً، ثم يُخبر في مجلسٍ آخر فيقول انَّه سافر إلى بغداد ثمانية أيام مثلاً، ولا يجد العرف المتلقِّي للخبرين تنافياً بينهما بل يرون الخبر الثاني مفسِّراً للخبر الأول.

بيان المُراد من الـ(يوم) في سورة القمر

وأما الآية من سورة القمر وهي قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾[١] فهي ليست متصدِّية لبيان مقدار الوقت الذي إستغرقه العذاب الواقع على قوم عاد لا تفصيلاً ولا إجمالاً، بل هي بصدد الإخبار عن انَّ العذاب قد وقع عليهم في وقتٍ مَّا دون انْ تتصدَّى لتحديد مقداره، فليس المراد من

١- سورة القمر الآيتان/١٨-١٩.

اليوم في الآية المباركة هو تلك القطعة الزمنية المتخلِّلة ما بين طلوع الشمس إلى غروبها بل المراد من اليوم هو الظرف الزماني الذي قد يطول وقد يقصر كما هو معنى قوله تعالى: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾(١)

فإنَّ المراد من اليوم في هذه الآية ليس هو الزمن المستغرِق ما بين الشروق والغروب بل المراد منه وقتَ وُلد، ووقت يموت، ووقت يُبعث حيًّا، ووقت الولادة لا يستغرق تمام ما بين الشروق والغروب بل هو لا يمتدُّ لأكثر من بضع ساعةٍ أو أكثر بقليل، وكذلك هو وقت الموت.

وكذلك هو معنى اليوم في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إلى حِينٍ﴾(٢).

فمعنى الآية انَّ الله تعالى جعل من جلود الأنعام مثل الإبل والبقر والغنم ما يصلح للانتفاع به لصناعة بيوت متنقلة يُمكن حملها بيُسر ونصبها وقت النزول في طريق السفر، وكذلك يمكن الانتفاع بها وذلك بنصبها على هيئة بيوت في وقت الإقامة بعد الوصول إلى المقصد.

١- سورة مريم الآية/٣٣.

٢- سورة النحل الآية/٨٠.

فالآية المباركة أطلقت كلمة اليوم على وقت السفر الذى قد يطول فيمتدُّ لشهرٍ أو أكثر، فمجموع هذا الوقت سمَّته الآيةُ يوم الظعن "السفر"، وكذلك أطلقت كلمة اليوم على وقت الإقامة الذي يمتدُّ غالباً زمناً طويلاً قد يتجاوز الشهور. فكلمة اليوم في الآية استُعملت وأُريد منها الوقت محضاً بقطع النظر عن أمده الذي قد يطول وقد يقصر، فهي ليست بصدد تحديده.

نماذج من استعمال الـ(يوم) بمعنى الوقت

هذا وقد استَعمل القرآنُ الكريم كلمة اليوم بهذا المعنى في مواضعَ كثيرة بحيث لو أردنا استقصاءَها لخشينا السأمَ على القارئ، ولذلك سنذكر نماذج قليلة استئناساً:

النموذج الأول:

قوله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾[1].

١- سورة غافر الآية/٢٩.

ففي هذه الآية استُعملت كلمة اليوم في غير القطعة الزمنيَّة الممتدَّة من شروق الشمس إلى غروبها بل استُعملتْ بمعنى الوقت الفعلي الممتدُّ ولكنَّه مبهمٌ من حيثُ المنتهى.

فمفاد الآية المباركة انَّ مؤمن آل فرعون يُحذِّر قومه فيقول لهم إنَّ لكم الملك والهيمنة على الأرض في هذا الوقت ولكن مَن ينصرنا من بأس الله وعذابه لو قُدِّر فوقع علينا، فاستَعملت الآية كلمة اليوم في القطعة الزمنية الممتدة ما بين كلام مؤمن آل فرعون إلى حين وقوع العذاب الذي لايعلم المتكلِّم متى يحين، فهو قد استَعملَ كلمة اليوم في مجموع هذا الوقت الذي سيتجاوز حتماً ما بين الشروق والغروب إلى أمدٍ مبهم.

النموذج الثاني:

قوله تعالى: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾[1] فاليوم في هذه الآية المباركة أيضاً ليس بمعنى الوقت ما بين الشروق والغروب بل هو الوقت الممتدُّ للأبد أو إلى المقدار الذي قُدِّر لهم انّ يمكثوه في جهنم، وذلك أمرٌ بيِّنٌ مفروغٌ عنه، على انَّه لو كان اليوم بمعنى الوقت ما بين الشروق والغروب لكان من الميسور الصبر عليه -لا أقل في ظنِّهم- ولما صلح للتحذير والإنذار.

١- سورة يس الآية/٦٣-٦٤.

وهكذا هو المراد من اليوم في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[١] وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾[٢] فإنّ الظاهر من الآيتين انّ المراد من العذاب العظيم والكبير هو عذاب جهنم الذي يقع بعد الحساب يوم القيامة، فيكون المراد من اليوم هو مدةُ المكث في جهنم.

النموذج الثالث:

قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾[٤] وقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾[٥] وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾[٦].

١- سورة الأنعام الآية/١٥.

٢- سورة هود الآية/٣.

٣- سورة المائدة الآية/٣.

٤- سورة المائدة الآية/٥.

٥- سورة المائدة الآية/٣.

٦- سورة يوسف الآية/٥٤.

فكلمة اليوم في هذه الآيات الأربع -ولها نظائر- استُعملت وأُريد منها هذا الوقت، ففي هذا الوقت يئس اللذين كفروا من دينكم، وفي هذا الوقت أُحلَّ لكم الطيبات، وفي هذا الوقت أكمل الله لكم دينكم ورضي لكم الإسلام ديناً، وفي هذا الوقت أعلن ملكُ مصر عن قراره بتمكين يوسف عليه السلام وجعله أميناً على شئون دولته، فغرضُ الآيات هو بيان انَّ هذه الشئونات المذكورة قد تمَّ وقوعها فعلاً، وأما انَّه هل لهذه الشئونات امتدادٌ في عمود الزمن فذلك يُعرف من ملاحظة طبيعة كلِّ شأنٍ من هذه الشئونات، وعلى كلٍّ تقدير فكلمةُ اليوم لم تُستعمل في الوقت المتخلِّل ما بين الشروق والغروب.

النموذج الرابع:

قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾[1] إلى قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُود﴾[2] ففي هذه الآية استعملت كلمة اليوم في الوقت الممتد إلى الأبد، حيث انَّ ذلك هو معنى الخلود الذي وقع نعتاً لكلمة اليوم، فيكون اليوم قد استعمل في الوقت الذي له مبدأ وليس لأمده غاية ومنتهى.

١- سورة ق الآية/٣١.

٢- سورة ق الآية/٣٤.

النموذج الخامس:

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ * مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾[١].

ففي هذه الآية استُعملتْ كلمة اليوم وأُريد منها مجموع القطع الزمنية المتفرِّقة التي وقع فيها عذابٌ مشهودٌ من الله عز وجل على عددٍ من أقوام الأنبياء مثل قوم نوح وقوم عاد وقوم ثمود واللذين من بعدهم، فأطلقت الآية على مجموع الأوقات المتفرِّقة-التي كانت ظرفاً للعذاب الواقع من الله- كلمة يوم الأحزاب، وهذا استعمال متعارف في كلام العرب حيثُ تُطلِق على مجموع الوقت الذي يكون ظرفاً لحدثٍ عظيم كلمة يوم وإنّ امتدّ ذلك الوقت طويلاً، ولذلك اشتهر في كلمات المؤرخين والأدباء عنوان أيام العرب، ويُؤرخ تحت هذا العنوان الأحداث المشهودة والملاحم والحروب التي وقعت في الجاهلية ويُعبَّر عن كلِّ حدثٍ بيوم كذا رغم امتداده لوقت ليس بالقصير بل إنّ بعض هذه الأيام امتدّ لأكثر من حول، فمن أيام العرب مثلا يوم النسار، ويوم الفجار، ويوم بُعاث، ويوم ذي قار، وكذلك تعارف إطلاق لفظ اليوم على الحروب التي وقعت في الإسلام، فيُقال مثلاً يوم صفين رغم انّ حرب صفين قد امتدّت لسنة وشهور، ويوم

١- سورة غافر الآيتان/٣٠-٣١.

القادسية للمعركة التي وقعت بين المسلمين والفرس، ويوم اليرموك للمعركة التي وقعت بين المسلمين والروم في الشام.

وقد استعمل القرآن ذلك أيضاً حيث قال: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُدْبِرِينَ ۞ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾[1] فحنين منطقة تقع بين مكة الشريفة والطائف، وكانت موضعاً لحربٍ وقعت بين المسلمين وقبيلة هوزان والقبائل المتحالفة معها. وقد أطلق القرآن كلمة يوم حنين على مجموع الوقت الذي استغرقته غزوة حنين، والذي بدأ من حين تعبئة الرسول صلى الله عليه وآله للمسلمين اللذين كان عددهم يربو على العشرة آلاف إلى حين وقوع الهزيمة عليهم ثم التعبئة لهم من جديد ومعاودتهم للحرب حتى وقوع النصر لهم وتمكُّنهم من أسر وسبي ما يزيد على الألف من المشركين مضافاً إلى الغنائم التي قُدِّرت بأربعة آلاف من الماشية ثم تحصُّن من تبقَّى من المشركين في الجبال، كلُّ هذا الوقت الذي امتدَّ لأيام أُطلق عليه القرآن كلمة يوم حنين.

هذا وقد عبَّر القرآن عن الأزمنة التي كانت ظرفاً لعقوبات الله تعالى على أقوام الأنبياء عبَّر عنها بأيام الله، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا

١- سورة التوبة الآيتان/٢٥-٢٦.

أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[1].

فأيام الله التي أُمر موسى عليه السلام في الآية بأنْ يُذكِّر بها قومه ويُحذِّرهم من أن يُعاقبوا بمثلها هي مثل يوم الطوفان الذي وقع لقوم نوح والعذاب الذي أصاب قوم عاد والعذاب الذي أتى على قوم ثمود ويوم الظلَّة الذي أهلك قوم شعيب وكذلك ما وقع لقوم لوط وغيرهم من أقوام الأنبياء عليهم السلام.

فكلٌ عقوبة إلهيَّة وقعت على هؤلاء الأقوام اللذين سبقوا موسى عليه السلام عبَّر القرآن عن ظرف وقوعها الزماني بيوم الله رغم انَّ بعض هذه العقوبات امتدَّ وقتها لأكثر ممَّا بين الشروق والغروب، فيوم الطوفان لم ينته إلا بعد وقتٍ مديد، وكذلك يوم الظلَّة.

خلاصة:

والمتحصَّل إنَّ لفظ اليوم يُستعمَل كثيراً ويُراد منه غير اليوم الذي يحدُّ مبدأه الشروق ويحدُّ نهايته الغروب، وذلك يُعرف من ملاحظة سياق الكلام الذي استُعمل فيه لفظ اليوم أو ملاحظة القرائن المُتصلة بالكلام أو المنفصلة عنه، فلا يصحُّ البناء على إرادة الوقت المتخلِّل ما بين الشروق

١- سورة ابراهيم الآية/٥.

والغروب من لفظ اليوم قبل ملاحظة ما يقتضيه السياق أو تقتضيه القرائن المكتنفة بالكلام.

ولهذا قلنا بأنَّ الآية من سورة القمر لم تَستَعمِل لفظ اليوم في الوقت الذي يحدُّ طرفيه الشروق والغروب وإنَّما استعملته في إفادة معنى الوقت محضاً أي بقطع النظر عن حدِّه من حيثُ المبدأ والمنتهى، إذ انَّ ملاحظة مساقها يقتضي ذلك، فهي لم تكن بصدد التحديد للمقدار الذي استغرقه العذاب الواقع على قوم عاد، وإنَّما كانت بصدد بيان نوع وكيفية العذاب الذي وقع على قوم عاد لمَّا كذَّبوا نبيَّهم، إذ انَّ الآية المذكورة جاءت جواباً للآية التي سبقتها وهي قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾[1] فأفادت في مقام جواب السؤال عن كيفية العذاب الواقع عليهم: انَّ الله تعالى سلَّط عليهم ريحاً صرصراً في زمانٍ صار شديد النحوسة عليهم لعظم ما وقع فيه من البلاء.

فليس للآية غرضٌ في تحديد مقدار ذلك الزمان بل كان غرضها متعلِّقاً ببيان نوع العذاب بعد الإشارة إلى منشأ وقوعه، فمنشأ وقوعه هو تكذيبهم لنبيِّهم، وأما نوعه فهو انَّه تعالى سلَّط عليهم ريحاً شديدة البرودة شديدة الهبوب في ظرفِ وقتٍ مشؤومٍ عليهم لفرط قساوته ولاستمراره، قال

١- سورة القمر الآية/١٨.

تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾[1].

وعليه فحيثُ انَّ مُراد الآية من لفظ اليوم هو الوقت الذي وقع ظرفاً للعذاب بقطع النظر عن مداه لذلك لا تكون الآية منافية لما ورد في سورة الحاقَّة، لأنَّ الآية من سورة الحاقَّة كانت قد تصدَّت لبيان مقدار الوقت الذي استغرقه العذاب وانَّه كان سبع ليالٍ وثمانية أيام، وأما الآية من سورة القمر فلم يكن ذلك مورداً لغرضها، لذلك لم تتصدَّ إلا للإشارة إلى انَّ وقتاًمّا وقع ظرفاً للعذاب الذي أصابهم.

فليس بين الآيتين تنافٍ أصلاً، نظراً لكون إحداهما متصدِّية لبيان مقدار الوقت الذي كان ظرفاً للعذاب الواقع عليهم، وأما الأخرى فهي ساكتة عن ذلك.

فنظير العلاقة بين الآيتين هو ما لو قال القاضي: لقد حبسنا زيداً في طامورةٍ مظلمة عشر سنين، وقال في مجلسٍ آخر: لقد حبسنا زيداً في طامورةٍ مظلمةٍ ردحاً من الزمن، فإنَّ العرف لا يجد تنافياً بين الخبرين، ذلك لأنَّ الخبر الثاني لم يكن غرضه متعلِّقاً ببيان مقدار الوقت الذي تمَّ فيه الحبس لزيد، وكان غرضه متمحِّضاً في بيان نوع العقوبة التي تمَّ إيقاعها

١- سورة القمر الآيتان/١٨-١٩.

على زيد وهي الحبس في طامورةٍ مظلمة، ولذلك ذكر الوقت مهمَلاً دون بيان حدِّه، وهو معنى سكوته عمَّا تصدَّى الخبرُ الأول لبيانه، والعُرف في مثل هذا الفرض مضافاً إلى انَّه لا يجد تنافياً بين الخبرين يرى انَّ الخبر المتصدِّي للبيان مفسِّراً للخبر الآخر الذي إقتضى غرضه الإهمال للبيان.

أخيراً.. مَن قال أنَّهم ماتوا وقوفا؟!

وأما انَّ قوم عاد هل كانوا بعد موتهم صرعى متوسِّدينَ الأرض أم انَّهم ماتوا وقوفاً؟

فالجواب انَّهم كانوا بعد موتهم صرعى على صعيد الأرض كما قال تعالى: ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى﴾[١] وليس في الآيات ما يُوهم انَّهم ماتوا قياماً على أرجلهم، نعم توهَّمَ صاحب الشبهة انَّ مفاد قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾[٢] هو انَّهم كانوا على هيئة القيام حال موتهم إلا انَّ ذلك محض توهُّم.

ومنشؤه انَّ النخلة قد يسقط سعفها فتبقى جذعاً قائماً لا رأس له، فهو قد توهَّم انَّ الآيه تُشبه قوم عاد بعد موتهم بجذوع النخل القائمة بعد سقوط السعف عنها، فيكون ذلك مقتضياً أنَّهم ماتوا قياماً على أرجلهم إلا

١- سورة الحاقة الآية/٧.

٢- سورة الحاقة الآية/٧.

انَّ الأمر ليس كذلك، فالآية أولاً بيَّنت الحالة التي كان عليها قوم عاد حين موتهم فقالت: ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى﴾ بعدئذٍ شبَّهتهم بأعجاز النخل الخاوية فقالت: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ وهذا يقتضي انْ يكون المُشبَّه به هو جذوع النخل البالية التي هي واقعة على الأرض، لأنَّ ذلك هو المناسب لحال المشبَّه "صرعى".

على انَّ الآية لم تصف أعجاز النخل بالواقفة حتى يُدَّعى منافاتها لتوصيف قوم عادٍ بالصرعى وإنَّما وصفت أعجاز النخل بالخاوية، ومعنى الخاوية هو النخِرة البالية، فالجذع الخاوي وإنْ كان قد يظلُّ قائماً بعد تساقط السعف عن رأسه ولكنَّ الجذع قد يُصبح خاوياً بعد اقتلاعه ورميه على الأرض فكلا الحالتين تتفقان للجذع، فما هو المعيِّن لاستظهار انَّ الجذوع المُشبَّه بها في الآية هي الجذوع القائمة رغم انَّ كلا الحالتين تتفقان للجذع البالي، على انَّ الحالة الثانية وهي انْ يُصبح الجذع بالياً بعد قلعه وسقوطه على الأرض أكثر وقوعاً، هذا مضافاً إلى انَّ في الآية ما يقتضي تعيُّن المراد في الحالة الثانية، فهي قد شبَّهت قوم عاد وهم صرعى بأعجاز النخل، وذلك معناه انَّ المشبَّه به هو جذوع النخل المقتلَعة والمطروحة على الأرض، لأنَّ ذلك هو مقتضى التناسب بين المُشبَّه أعني قوله: "صرعى" وحال المشبَّه به وهي أعجاز النخل الخاوية.

تفسير الخاوية

وأما تفسيره الخاوية بالواقفة فهو من الجهل باللغة أو هو من تعمُّد التضليل لمَن لا فهم له باللغة، فإنَّ ذلك ليس من معاني الخاوية ولا هو من موارد استعمالها، فكلمة الخاوية في المدلول اللغوي تعني الفارغة، فالمعدةُ الخاوية هي المعدة الفارغة من الطعام، والنخلة الخاوية هي المجوَّفة التي انتخر وتآكل ما بداخلها من طلعٍ وعروقٍ ولُباب فأصبحت كالمجوَّفة، وهذا لا يتَّفق إلا بعد مضي زمنٍ على موتها، لذلك يُطلق وصف الخاوية على النخلة بعد ان تُصبح بالية نَخِرة.

ويُمكن أنّ يكون المراد من أعجاز النخل الخاوية هي أصول النخل المقتلَعة، ومنشأ التعبير عنها بالخاوية هو انَّ مكانها يُصبح بعد اقتلاعها خاوياً خالياً منها.

وعلى كلا المعنيين يكون المشبَّه به في الآية المباركة هو النخل المقتلَع والمطروح أرضاً، أما بناءً على الثاني فواضح، إذ انَّ وصف الخاوية إنَّما يُطلق على النخل المقتلَع المطروح أرضاً، وأما بناءً على المعنى الثاني فلأنَّ تشبيه الصرعى بأعجاز النخل البالية يقتضي انّ يكون المراد منها خصوص المطروحة أرضاً، فحال المشبَّه وهو كلمة صرعى يكون قرينةً بيِّنة على ما هو المراد من حال المشبَّه به، وهذا أمرٌ متعارفٌ مأنوسٌ عند العقلاء وأهل المحاورة، فحينما يقال: هندٌ نضِرةٌ كالدرهم الفضِّي، ومن المعلوم انَّ

للدرهم الفضِّي حالتين، الحالة الأولى يكون فيها الدرهم ناصعاً وضيئاً، والحالة الثانية يكون فيها الدرهم كَدِراً مُعتِماً لكثرة استعماله وتداوله في الأسواق، فأيُّ الحالين يقصد المتكلم تشبيه هندٍ به؟

إنَّ الوقوف على معرفة مراد المتكلم يتمُّ بملاحظة حال المشبَّه، فلأنَّ المتكلِّم وصف المشبَّه وهي هند بالنَضِرة فهذا يقتضي حتماً انَّ مراده من المشبَّه به هو خصوص الدرهم الناصع الوضيءِ وليس الدرهم الكدِر.

وهكذا هو الشأن في الآية المباركة، فإنَّها وصفت المشبَّه وهم قوم عاد بالصرعى، وهذا يقتضي انَّ المراد من المشبَّه به هو خصوص أعجاز النخل البالية المطروحة أرضاً، لأنَّ ذلك هو المناسب لحال المشبَّه وهم قوم عاد الموصوفون بالصرعى.

ختام:

ويُؤكِّد ذلك رغم وضوحه ما ورد في سورة القمر، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ * تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾[1] فوصفت المشبَّه به وهي أعجاز النخل بالمنقعر أي المقتلَع من الأرض.

والحمد لله رب العالمين

١- سورة القمر الآيات/١٨-٢٠.

الشبهة الحادية والعشرون

اختلافُ جوابِ قومِ لوطٍ لنبيِّهم

الشبهة الحادية والعشرون

اختلافُ جوابِ قومِ لوطٍ لنبيِّهم

في جواب قوم لوطٍ لنبيِّهم حين كان يُجادلهم ويُحذِّرهم من الكفر والفسق أورد القرآن جوابين لقومه متناقضين، ففي سورة الأعراف قال: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾[1]. أما في سورة العنكبوت فقال: ﴿وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ ما سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾[2]. فما الصحيح يا تُرى؟ هل هو ما ورد في سورة الأعراف أو الذي ورد في سورة العنكبوت ...؟

١- سورة الأعراف الآية/٨٢.

٢- سورة العنكبوت الآيات/٢٨-٣٠.

الجواب

اختلافٌ وليس تناقضاً:

ليس بين الجوابين تناقضٌ وإنّما كان بينهما اختلاف، فجوابُ قوم لوط لنبيِّهم في سورة الأعراف هو: ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ وجوابهم له في سورة العنكبوت هو: ﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فليس بين هذين الجوابين تناقضٌ كما هو أوضح من أنْ يحتاج إلى بيان، نعم ثمة اختلافٌ في مضمون الجوابين، وذلك لا محذور فيه إلا أنْ يتوهَّم صاحب الشبهة انَّ القرآن في السورتين يحكي عن واقعةٍ واحدة وحوارٍ واحدٍ وقع بين قوم لوط ونبيِّهم، ولذلك ادَّعى التنافي بين الجوابين، لأنَّهم إمَّا أنْ يكونوا قد أجابوه بالجواب الوارد في سورة الأعراف أو يكونوا قد أجابوه بالجواب الوارد في سورة العنكبوت لكنَّه ليس في الآيتين ما يدلُّ على انَّهما بصدد الإخبار عن واقعةٍ واحدة وحوارٍ واحد.

محاورتان و جوابان:

وعليه فإذا كانت الواقعة المحكيَّة في سورة الأعراف مختلفة عمَّا يُخبر عنه القرآن في سورة العنكبوت فما المحذور في أنْ يختلف الجواب من قوم لوط لنبيِّهم بأنْ يكون جوابهم له في إحدى محاوراته لهم هو التهديد له بالطرد والإخراج له من قريتهم، ويكون جوابهم في موردٍ آخر بنبرة التحدِّي له بأنْ يأتيهم بالعذاب الذي يُخوِّفهم به خصوصاً وانَّ لوطاً عليه السلام كان قد مكث في قومه ردحاً طويلاً من الزمن، فمن الطبيعي أنْ تكون بينه وبينهم مخاطباتٌ ومحاورات، فما المحذور في أنْ يُجيبوه في بعض محاوراته لهم بجواب ثم يُجيبونه في موردٍ آخر بجوابٍ آخر يرمون من وراء كلٍ من الجوابين صرف نبيهم عليه السلام عمَّا يدعوهم إليه ويزجرهم عنه، فهم تارةً يتحدَّونه لإظهار عجزه، وأُخرى يتوعَّدونه بالطرد من قريتهم، وكلٌ ذلك لغرض ثنْيه عن دعوته.

فدعوى التنافي بين الجوابين لو صحَّت فهي مع افتراض اتِّحاد الواقعة وانَّ سورتي الأعراف والعنكبوت تُخبران عن حدثٍ واحدٍ وقع بين قوم لوط ونبيِّهم، وأمَّا لو كان ما تُخبر عنه سورة الأعراف مغايراً لما تُخبر عنه سورة العنكبوت فحينئذٍ يكون الاختلاف بين الجوابين هو المناسب لطبيعة الحال في مثل هذا الشأن، فلأنهم كانوا مصرِّين على العناد وقد ضاقوا ذرعاً بمواعظ لوط عليه السلام لذلك فإنَّ المناسب لمثلهم أنْ يعمدوا في كلٍّ مرةٍ إلى

جوابٍ أشد وأبلغ في التعبير عن إصرارهم على العناد، إذ لعلّ نبيَّهم بذلك ينتابه اليأس من استجابتهم فينصرف عنهم ويُريحهم من مواعظه.

مضمون الحوار يدلُّ على واقعتين:

والذي يؤكِّد انّ السورتين تُخبر كلٌّ منهما عن واقعةٍ منفصلةٍ عن الأخرى هو انّ الحديث الذي خاطب لوطٌ عليه السلام به قومه في سورة العنكبوت مختلفٌ في أكثر مضامينه للحديث الذي خاطبهم به في سورة الأعراف، فهو في سورة العنكبوت نسب إليهم -مضافاً إلى ارتكاب فاحشة اللواط- قطع السبيل وتعاطي المنكرات في أنديتهم، قال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ ما سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾.

وقطعُ السبيل معناه التعرُّض للمسافرين وإيذاؤهم، إما لمنعهم من استطراق الطرق التي تمرُّ من بلدهم أو لسرقة أمتعتهم وأموالهم، ومعنى انَّهم يأتون في ناديهم المنكر هو انَّهم يتعاطون المنكر في أنديتهم ومواطن إجتماعهم، وقد ذُكر انّ المنكر الذي كانوا يتعاطونه في مجالسهم كان " يشتمل على أنواع من المناكير والقبائح، مثل الشتم، والسخف، والصفع، وحذف الأحجار على مَن مرَّ بهم، وضرب المعازف والمزامير ولعب القمار، وكشف العورات، وروي عن ابن عباس: "أنَّهم كانوا يتضارطون في

مجالسهم من غير حشمة ولا حياء، وروي: إنّهم كانوا يأتون الرجال في مجالسهم، يرى بعضُهم بعضا"[١].

فذلك كلُّه قد نسبه لوطٌ عليه السلام إلى قومه في سورة العنكبوت، وأما الذي نسبه إليهم في سورة الأعراف فهو اقترافهم لفاحشة اللواط فحسب إلا انَّه وصف فعلهم بغير المسبوق في الأمم الغابرة ولم يذكر لهم ذلك في سورة العنكبوت ووصفهم في سورة الأعراف بالمسرفين ولم يصفهم بذلك في سورة العنكبوت، قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ * وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾[٢] فهذا الاختلاف البيِّن بين مضامين الخطابين الصادرين من لوط عليه السلام لقومه يؤكِّد ما ذكرناه من انَّ سورة الأعراف تحكي عن واقعةٍ منفصلةٍ عن الواقعة المحكيَّة في سورة العنكبوت.

---

١ - بحار الأنوار -العلامة المجلسي- ج١٢ ص١٤٦، تفسير مجمع البيان -الشيخ الطبرسي- ج٨ ص٢٢، الجامع لأحكام القرآن -القرطبي- ج١٣ ص٣٤٢، جامع البيان عن تأويل آي القرآن -محمد بن جرير الطبري- ج٢٠ ص١٧٧.

٢- سورة الأعراف الآيات ٨٠-٨٢.

يكفي الإحتمال في منع التنافي:

على انَّه يكفي احتمال تعدُّد الواقعة للمنع من صحة إسناد التكاذب والتنافي بين الآيتين، فإنَّ أحداً لا يصحُّ له بنظر العقلاء نسبة الكذب إلى متكلِّمٍ جاء بخبرين مختلفين إذا كان ثمة احتمالٌ بأنَّ كلَّ خبرٍ يحكي عن واقعةٍ مغايرة للأُخرى خصوصاً إذا كانت شخصيات الخبرين من اللذين يكثر التقاؤهم وتخاطبهم، وخصوصاً إذا كان المُخبِر قد جاء بالخبرين في موردين مختلفين.

فلو انَّ أحدهم أخبر انَّ زيداً قال لجاره اليهودي: لقد آذيتني بأبنائك المشاكسين فأجابه اليهودي: لستَ مجبراً على البقاء، يُمكنك بيع دارك والرحيل إلى موضعٍ آخر. ثم إنَّ هذا الرجل أخبر في مجلسٍ آخر انَّ زيداً شكى لجاره اليهودي أذى أبنائه له، فأجابه اليهودي إذا ذكرتَ أبنائي بسوء فسوف أُحرق دارك، فجواب اليهودي لجاره في الخبر الأول مختلفٌ عن جوابه لجاره في الخبر الثاني، فهل إنَّ هذا الاختلاف بين الجوابين مصحِّحٌ لرمي المُخبِر بالكذب رغم احتمال تعدُّد المُخبَر عنه؟! خصوصاً وانَّ تعدُّد مثل هذه الوقائع أمرٌ تقتضية طبيعة القضية موردَ الخصام وتقتضيه طبيعة العلاقة بين شخصيات الخبرين حيثُ كانت بينهما جيريَّة.

فالأمر كذلك فيما تُخبر عنه الآيات من سورتي الأعراف والعنكبوت فإنَّه لو سلَّمنا جدلاً بعدم الجزم انَّ السورتين تُخبران عن واقعتين

منفصلتين إلا انَّه من غير الممكن نفي احتمال التعدُّد خصوصاً بعد ملاحظة انَّ طبيعة الوظيفة المُناطة بلوط عليه السلام تقتضي كثرة الإلتقاء بقومه وكثرة مخاطبتهم وزجرهم عما يقترفونه من قبائح، وإنَّ إصرارهم على العناد كما هو المعلوم من شأنهم يقتضي التفاوت في اختيارهم في كلٍّ مرة لجوابٍ يرجون به صرف نبيِّهم عن دعوته لهم.

والحمد لله رب العالمين

الشبهة الثانية والعشرون

عصا موسى في الطور وعند فرعون

الشبهة الثانية والعشرون

عصا موسى في الطور وعند فرعون

ورد في القرآن في سورة الأعراف وفي سورة الشعراء عن موسى: ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِين﴾[1] مع انَّه ورد في سورة النمل: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾[2] وكذلك ورد مثلها في سورة القصص. ففي الأولى أصبحت العصا ثعباناً، وفي الثانية هي مجرَّد عصا تهتزُّ كأنَّها جان.. والعصا المهتزة بالطبع ليست ثعباناً أليس كذلك..؟

١- سورة الأعراف الآية/١٠٧.

٢- سورة النمل الآية/١٠.

الجواب

الجواب الأول: إختلاف المورد:

يتبيَّن الوهن في هذه الشبهة بمجرَّد الالتفات إلى انَّ مورد الآيتين من سورة الأعراف والشعراء مختلفٌ عن مورد الآيتين من سورة النمل والقصص.

المورد الأول: عند فرعون:

فمورد الآية من سورة الأعراف هو حين طالب فرعون موسى عليه السلام ببرهانٍ على دعواه النبوَّة، فحينذاك ألقى موسى عصاه فإذا هي ثعبانٌ مبين، قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾[1].

١- سورة الأعراف الآيات/١٠٤-١٠٧.

وكذلك هو مورد الآية من سورة الشعراء، قال تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[١] إلى ان قال: ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ * قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ * قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾[٢].

المورد الآخر: في جانب الطور:

وأما المورد الذي وُصفت فيه الحيَّة المنقلبة عن العصا بأنَّها تهتزُّ كأنَّها جانٌّ فهو حين كان موسى في طريقه إلى مصر مع أهله فوجد ناراً فقال لأهله إنِّي آنستُ ناراً، وكان ذلك في جانب الطور الأيمن قُبيل تكليفه بالرسالة، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آَنَسْتُ نَارًا سَآَتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آَتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآَهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾[٣].

١- سورة الشعراء الآية/١٦.

٢- سورة الشعراء الآيات/٢٨-٣٢.

٣- سورة النمل الآيات/٧-١٠.

وكذلك هو مورد الآية من سورة القصص، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾[1].

ما المانع في إختلاف العصا في الموردين؟!

فإذا كان مورد الآيتين الأوليين مختلفاً عن مورد الآيتين الأُخريين من سورتي النمل والقصص فأيُّ محذورٍ في اختلاف الحال الذي صارت إليه عصا موسى عليه السلام، نعم لو كانت الآيات تُنبئ عن حدثٍ واحد ورغم ذلك اختلفت الحال الذي صارت إليه عصا موسى عليه السلام لكان الإشكال متَّجهاً إلا انَّ الأمر لم يكن كذلك، فالآيتان من سورتي الأعراف والشعراء تتحدثان عمَّا وقع للعصا في محضر فرعون حينما كان موسى عليه السلام بصدد البرهنة على صدق دعواه.

ففي تلك الواقعة أخبر القرآن عن صيرورة العصا ثعباناً مبيناً، وأما وصف القرآن للحيَّة المنقلبة عن العصا بأنَّها تهتزُّ كأنَّها جانٌّ كان في ظرفٍ

١- سورة القصص الآيات/٢٩-٣١.

آخر وواقعةٍ أُخرى حينما كان موسى في جانب الطور الأيمن وقد آنس ثمةَ ناراً فقال لأهله امكثوا إنِّي آنستُ ناراً، في ذلك الموضع نادى الجليل جلَّ وعلا موسى بقوله: ﴿يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآَهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾[١].

وليس بمستغربٍ على الله تعالى أنْ يجعل من العصا في ظرفٍ ثعباناً مبيناً عظيماً وأنْ يجعل منها في ظرفٍ آخر حيَّةً تهتزُّ كأنَّها جان.

العصا كان لها أكثر من أثر:

بل إنَّ القرآن قد أخبر عن الله تعالى أنَّه جعل للعصا أكثر من أثرٍ إعجازي، فبها قد انفلق البحرُ فكان كلُّ فرق كالطود العظيم كما ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إلى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾[٢].

وكذلك فإنَّ الله تعالى قد أمر موسى عليه السلام حين استسقاه قومه أنْ يضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه إثنتى عشرة عيناً، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إلى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا

١- سورة النمل الآيتان/٩-١٠.

٢- سورة الشعراء الآية/٦٣.

عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾[1] فأيُّ محذورٍ في انْ تكون لعصا موسى عليه السلام آثارٌ وحالاتٌ إعجازية مختلفة. هذا أولاً.

الجواب الثاني: الحذف والإيجاز:

وثانياً: إنّ قول مُورِد الشبهة أنّ العصا التي تهتزّ ليست ثعباناً فيه تشويشٌ على ما هو المراد من الآية المباركة، فالموصوف بالإهتزاز ليس هو العصا وإنَّما هي الحيَّة المنقلبة عن العصا بقرينة ماورد في آيات أُخرى تصف ذات الواقعة قال تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى * فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾[2] إلى انْ قال تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى * قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى * قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾[3].

١- سورة الأعراف الآية/١٦٠.

٢- سورة طه الآيات/٩-١٣.

٣- سورة طه الآيات/١٧-٢١.

فقوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾[١] فيه إيجاز وحذف يقتضيه الحال وتقديره -كما أفاد الطبري وغيره[٢]- "وألقِ عصاك فألقاها فصارت حيَّةً تهتز كأنَّها جانٌ" و الحذف و الإيجاز إذا كان مناسباً لمقتضى الحال بأنْ كان معلوماً لمتلقِّي الخطاب أو أقام المتكلِّم قرينة على إرادته كان ذلك من أوجُهِ البلاغة التي قد لا يُدركها مُوردِ الشبهة لقصوره عن إدراك تصاريف الكلام العربي.

مثالٌ آخر على أسلوب الحذف والإيجاز:

هذا وقد استعمل القرآن الكريم أسلوب الحذف والإيجاز في موارد كثيرة لا تخفى على مَن له حظٌ من فهمٍ للأُسلوب القرآني، ولنذكر مثالاً على ذلك، وهو قوله تعالى مخاطباً موسى وهارون: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[٣] ثم قال تعالى مباشرة: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾[٤] أي قال فرعون لموسى ألم نربِّك فينا وليداً، فهنا القرآن لم يذكر لنا أنَّ موسى عليه السلام بعد التكليف الإلهي ذهب إلى فرعون وكلَّمه وأخبره بأنَّه رسولٌ من ربٍّ

١- سورة النمل الآية/١٠.

٢ - جامع البيان عن تأويل آي القرآن -محمد بن جرير الطبري- ج١٩ ص١٦٥.

٣- سورة الشعراء الآيتان/١٦-١٧.

٤- سورة الشعراء الآية/١٨.

العالمين بل تصدّى مباشرةً لبيان جواب فرعون لموسى، وما ذلك إلا لكون الكلام المحذوف مفهوماً بمقتضى السياق، فكان الحذف والإيجاز في مثل المقام هو الأنسب بأوجُه البلاغة من الإطناب.

وهكذا هو الحال بالنسبة لقوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾.

وجه تشبيه العصا بالجانّ:

على انَّ الآية المباركة اشتملت على قرينةٍ يُعرف منها قصد صيرورة العصا حيَّةً تسعى، وذلك لأنَّه تعالى قد شبَّهها بالجان، والجانُّ هي الحيَّة السريعة في حركتها، فكانت الحيَّة المنقلبة عن العصا كبيرةً في حجمها إلا انَّها مثل الجان في سرعة حركتها.

فطبيعة الحيَّة ذات الحجم الكبير هو البطئ في الحركة إلا انَّ الحيَّة المنقلبة عن عصا موسى عليه السلام كانت بقدرة الله تعالى سريعة الحركة لذلك تمَّ تشبيهها بالجان للتعبير عن سرعة اهتزازها وحركتها ولتكون أكثر ظهوراً في انَّ ذلك شأنٌ إعجازيٌّ مدبَّرٌ مباشرةً عن الله تعالى، ولأنَّها كانت كذلك فأنَّ موسى لما رآها ولَّى تلقائياً مدبْراً ولم يعقِّب.

والحمد لله رب العالمين

الفهرس الإجمالي

الفهرس الإجمالي

المُقَدِّمَة ٥

الشبهة الأولى

العموم في آية: ﴿ما فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ ١١

الشبهة الثانية

الوحيُ للنبيِّ ﷺ كان مشافهةً أم بواسطة مَن؟ ٢٩

الشبهة الثالثة

المتشابهات لا تنفي عن القرآن وصف المُبين ٦٣

الشبهة الرابعة

الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ ونوح تزوج من خبيثة؟ ٨٥

الشبهة الخامسة

الحروف المقطعة لا تنفي عن القرآن وصف المبين ١٠٧

الشبهة السادسة

الإسلام دينٌ لعموم الأنبياء **١٢٥**

الشبهة السابعة

النسخ ونفي التبديل لِكَلِمَاتِ اللَّهِ **١٣٧**

الشبهة الثامنة

التشبيه في آية النور **١٧١**

الشبهة التاسعة

خطيئة الشرك مغفورة بالتوبة **١٨٣**

الشبهة العاشرة

توهُّم التنافي بين المُساءلة يوم القيامة ونفيها **١٩٧**

الشبهة الحادية عشر

بصرُه حديد أو يُحشرْ أعمى؟ **٢١٩**

الشبهة الثانية عشر

إبراهيم لم يتَّخذ الشمس والقمر والنجوم أرباباً **٢٤١**

الشبهة الثالثة عشر

الجمع بين الآيات التي بدأت بقوله: وَمَنْ أَظْلَمُ **٢٦٧**

الشبهة الرابعة عشر

الجمع بين المفاضلة ونفي التفريق بين الأنبياء **٢٧٧**

الشبهة الخامسة عشر

العموم في: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ **٢٨٩**

الشبهة السادسة عشر

مَن الذي يقبض الأرواح عند الموت؟ **٣٠١**

الشبهة السابعة عشر

توهُّم إنتقاض آية ﴿كُلٌّ لَه قانِتُونَ﴾ **٣١٣**

الشبهة الثامنة عشر

هل كان أتباع نوح من المغرقين؟! **٣٢٧**

الشبهة التاسعة عشر

وإِن مِنْكُم إِلا وارِدَها **٣٤١**

الشبهة العشرون

هلاك قوم عاد في يومٍ أو ثمانية؟ **٣٦٥**

الشبهة الحادية والعشرون

إختلافُ جوابِ قومِ لوطٍ لنبيِّهم **٣٨٧**

الشبهة الثانية والعشرون

عصا موسى في الطور وعند فرعون.. **٣٩٧**

الفهرس الاجمالي **٤٠٩**

الفهرس التفصيلي **٤١٥**

الفهرس التفصيلي

الفهرس التفصيلي

المقدمة ٥

الشبهة الاولى

العموم في آية: ﴿ما فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ ١١

الجواب ١٣

الكلام في محورين ١٣

المحور الأول: في قوله تعالى: ﴿ما فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ ١٣

يبدو أن المُستشكل لا يدري عن أيٍّ كتاب يتحدث! ١٣

هذا الكتاب كتابُ هداية وليس رياضيات وطب..! ١٥

القرآنُ فيه كلُّ شيء ممَّا يرتبط بالهداية ١٦

المحور الثاني: في قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ ٢١

المقصود من الكتاب هنا ليس هو القرآن ٢١

حقيقة الكتاب المبين ٢٢

الحوادث اليوميَّة وأحوال الأمم موجودة في الكتاب وليس القرآن ٢٤

الشبهة الثانية

الوحيُ للنبيِّ ﷺ كان مشافهةً أم بواسطة مَن؟ ٢٩

الجواب ٣١

الدعوى لا تتمُّ إلّا بأحد أمرين ٣١

الأمر الأول ٣١

الأمر الثاني ٣٢

الكلام في الأمر الأول: (التضارب بناءً على فرضيّة إمتناع تعدُّد طرق الوحي) ٣٣

١- هل يُوجد مانعٌ من تعدُّد ملائكة الوحي؟! ٣٣

أدلُّ دليل على الإمكان هو الوقوع! ٣٤

٢- هل يُوجد مانعٌ من اجتماع الوحي مباشرةً مع الوحي بواسطة؟! ٣٧

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ ٣٧

النتيجة ٣٩

الكلام في الأمر الثاني: (التضارب بناءً على فرضيّة إنحصار مَن نزل بالوحي و النبوة) ٣٩

أولاً: هل الذي نزل بالوحي والنبوة هو عديد من الملائكة؟............ ٣٩

الأمر الثاني ٣٩
الآيةُ لا صلةَ لها بالموضوع! ٤١
ثانياً: هل الذي نزل بالوحي هو روح القدس أم جبريل؟..................... ٤٢
كلُها صفاتٌ لجبريل بتسالم المسلمين ٤٤
إحتمال الإتِّحاد يكفي لنفي التضارب ٤٥
مثالٌ توضيحي ٤٥
الأوصاف قابلةٌ للإنطباق على ذات واحدة.. فأين التضارب؟! ٤٧
لو استُعمل روح القدس في غير جبريل فلا يضرّ ٤٨
شواهد على استعمال الوصف لأكثر من ذات............................... ٤٩
خلاصةٌ ومزيدُ بيان ٥٠
زعْمٌ لا يعنينا ٥٣
ثالثاً: هل الوحي كان بالمباشرة أم بواسطة؟ ٥٤
الآيةُ لا تدلُ على الانحصار.. ٥٤
أمثلةٌ توضيحية ٥٥
وجهٌ آخر للشبهة: القرآن والإنحصار بالملَك............................ ٥٦
الردّ: ليس كلُ الوحي قرآناً ٥٧
الآيةُ أساساً لا تتحدث عن القرآن! ٥٨

الشبهة الثالثة

المتشابهات لا تنفي عن القرآن وصف المُبين ٦٣

الجواب ٦٥

المحور الأول: المتشابهات لا تنفي صفة المبين ٦٥

مثالٌ للتوضيح ٦٧

مثالٌ آخر ٦٨

القرآن اعتمد وسائل التفهيم العقلائية ٦٩

خلاصة ٧٠

المحور الثاني: فهم القرآن و تفسيره و تأويله ٧١

هل فهم القرآن متاح؟ ٧١

ضابطةُ فهم القرآن ٧٤

الاختلاف في تفسير القرآن ٧٤

المراد من نفي العلم بالتأويل ٧٥

مثالٌ للتوضيح: ٧٦

نماذج قرآنية لبيان المراد من التأويل ٧٧

أولاً: موسى عليه السلام وتأويل الخضر عليه السلام ٧٧

ثانياً: يوسف عليه السلام و تأويل الأحاديث ٧٩

الجهل بالتأويل لا يُساوق الجهل بالقرآن ٨١

خلاصة ٨١

الشبهة الرابعة

الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ ونوح تزوج من خبيثة؟ ٨٥

الجواب ٨٧

منشأ التوهُّم ٨٧

المعاني المحتملة ٨٨

المعنى الأول ٨٨

مناقشة الشبهة بناءً على الإحتمال الأول ٨٨

المعنى الثاني: وهذا المعنى له تقريبان ٨٩

١- التقريب الأول ٨٩

٢- التقريب الثاني ٩١

المعنى الثالث ٩٢

مناقشة الشبهة بناءً على المعنيين (الثاني و الثالث) ٩٢

مناقشة عامة للشبهة ٩٣

أولاً: المعاني المحتمَلة تمنع من الأخذ بالمعنى المناقض ٩٣

أمثلةٌ توضيحيَّة ٩٤

١- مثالٌ عرفي ٩٤

٢- مثالٌ علمي ٩٤

٣- مثال قانوني.................................... ٩٥
٤- مثال قضائي ٩٥
ثانيا: المعنى الوارد في الشبهة لا يستلزم التنافي بين الآيات! ٩٧
الآية ليست بصدد النهي عن الزواج ٩٨
خطابٌ لا يتفوّه به عاقل! ٩٨
الآية ليست بصدد الإخبار عن واقعٍ خارجي ٩٩
بيان مراد الآية بناءً على المعنى الوارد في الشبهة ١٠٠
١- التقريب الأول.................................. ١٠٠
٢- التقريب الثاني ١٠٢

الشبهة الخامسة

الحروف المقطعة لا تنفي عن القرآن وصف المبين ١٠٧

الجواب ١٠٩

تمهيد ١٠٩
ما هو الموصوف بـ(المبين)؟ ١١٠
الحروف المقطّعة لا هي متشابهة و لا موضوعة لمعنى ١١١
وصف القرآن بالمبين لا يُنقض عليه بالحروف المقطّعة ١١٢
مزيدُ توضيح.. ١١٣
إشكالٌ جانبي.. ١١٤

الجواب ١١٤
الغاية من ذكر الحروف المقطّعة في القرآن ١١٦
هذا الإسلوب مُتّبع في القرآن الكريم ١١٨
ما يُؤيِّد الغاية المزبورة ١٢٠

الشبهة السادسة

الإسلام دينٌ لعموم الأنبياء ١٢٥
الجواب ١٢٧
دين الله واحد غير متعدِّد ١٢٧
ليس إبراهيم وحده بل جميع الأنبياء مسلمون ١٢٨
﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ ١٣٢
النبيُّ محمد صلى الله عليه وآله مكمِّلٌ للدِّين وليس ناسخاً للرسالات ١٣٢
المراد من ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ ١٣٣

الشبهة السابعة

النسخ ونفي التبديل لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ١٣٧
الجواب ١٣٩
تحرير موضوع الشبهة ١٣٩
نفى القرآن التبديل عن كلمات الله تعالى في آيات أربع ١٣٩

الآية الأولى ١٣٩
الآية الثانية ١٣٩
الآية الثالثة ١٣٩
الآية الرابعة ١٤٠
والإشكال عند صاحب الشبهة ١٤٠
الردّ ١٤١
بحثٌ حول المراد من الكلمات ١٤١
مقدمتان ١٤١
المقدمة الأولى ١٤١
المقدمة الثانية ١٤٤
النموذج الأول ١٤٤
النموذج الثاني ١٤٥
النموذج الثالث ١٤٦
النموذج الرابع ١٤٦
النموذج الخامس ١٥٠
النموذج السادس ١٥٠
النموذج السابع ١٥١
النموذج الثامن ١٥٢
خلاصة النماذج ١٥٢

المراد من ﴿الكلمات﴾ في الآيات الأربع ١٥٣
وقد أشار القرآن إلى هذا الوعد الإلهي في آيات عديدة ١٦٤
الخلاصة ١٦٧
تنويه ١٦٧

الشبهة الثامنة

التشبيه في آية النور ١٧١
الجواب ١٧٣
بيانُ المراد من آية النور ١٧٣
الوجه في إسناد النور إلى الله تعالى.............................. ١٧٤
بحث في المراد من النور ١٧٤
١- النور بمعنى الضياء ١٧٤
٢-النور بمعنى الهداية ١٧٥
خلاصة ١٧٧
بيانُ الوجه البلاغي في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ..﴾........................ ١٧٨
أمثلةٌ من كلام العرب... ١٧٨
١-(أنَا نورُ قوِمٍ) يعني ذوو نور ١٧٨
٢- (أنتِ طلاق) يعني أنتِ طالق ١٧٩
وقال الشاعر العربي.. ١٧٩

٣-(هي إقبالٌ وإدبار) يعني ذاتُ إقبالٍ وإدبار ١٧٩
الخلاصة ١٨٠

الشبهة التاسعة

خطيئة الشرك مغفورة بالتوبة ١٨٣
الجواب ١٨٥
المراد من الآيتين ١٨٥
فرضيتان وموضوعان ١٨٥
الدليل ١٨٦
الخلاصة ١٩٢

الشبهة العاشرة

توهُّم التنافي بين المُساءلة يوم القيامة ونفيها ١٩٧
الجواب ١٩٩
قليلٌ من التأمُّل ١٩٩
(السؤال) و مدلولاته اللغويَّة ١٩٩
الأول: السؤال لطلب المعرفة ١٩٩
شواهد قرآنيَّة على المدلول الأول ٢٠٠

الثاني: السؤال للتوبيخ ٢٠٢
شواهد قرآنيَّة على المدلول الثاني ٢٠٤
الثالث: السؤال للتقرير ٢٠٥
شواهد قرآنيَّة على المدلول الثالث ٢٠٦
كيف يتم تحديد المراد من السؤال؟ ٢٠٧
معالجة الشبهة ٢٠٨
الآية الأولى: وقرائنُ المعنى المراد ٢٠٨
القرائن الدالَّة على المعنى المُراد ٢٠٩
١- التعليل في الآية التالية ٢٠٩
٢- آيات التمايز يوم القيامة ٢١٠
الآية الثانية: وقرائنُ المعنى المُراد ٢١٢
الآية الثالثة: وقرائنُ المعنى المراد ٢١٣
الخلاصة ٢١٥

الشبهة الحادية عشر

بصرُه حديد أو يُحشر أعمى؟ ٢١٩

الجواب ٢٢١

الكلام في ثلاثة محاور ٢٢١
المحورالأول: في قوله تعالى: ﴿ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ ٢٢١

معنى العمى في الآية الكريمة ٢٢١
العمى هو الحيرة وضلال الطريق........................ ٢٢٣
الدليل على معنى العمى ٢٢٣
أ- العطف التفسيري........................ ٢٢٣
ب- التعليل بالنسيان ٢٢٤
ج- الإستفهام التذلُّلي ٢٢٥
الدليل على انَّ العمى هنا ليس بمعنى فقد البصر ٢٢٥
المنشأ في توهُّم التناقض........................ ٢٢٩
المحور الثاني: في قوله تعالى: ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾........................ ٢٢٩
أ- الحدَّة بكلا المعنيين لا تُنافي العمى........................ ٢٢٩
ب- الحدَّة بكلا المعنيين لا تُنافي النظر من طرفٍ خفي ٢٣٠
المحور الثالث: ﴿... زُرْقًا﴾ ٢٣٢
الوجوه المحتملة في تفسير الآية الكريمة ٢٣٢
١- زُرقة الإعياء والهلع ٢٣٢
٢-زُرقة الظمأ........................ ٢٣٢
٣- زُرقةٌ للتقبيح والإذلال وعلامةٌ لأجل الفضيحة ٢٣٣
لا منافاة على جميع الوجوه!........................ ٢٣٤
مثالٌ توضيحي........................ ٢٣٤
لا تناقض إلَّا مع الإنحصار في المعنى المناقض ٢٣٦

وجوابٌ أخير ٢٣٦

الشبهة الثانية عشر

إبراهيم لم يتّخذ الشمس والقمر والنجوم أرباباً ٢٤١

الجواب ٢٤٣

يُمكن الإجابة بثلاث إجابات ٢٤٣

أولاً: جواب جدلي ٢٤٣

تمهيد: تفسير الشرك الذي لا يُغفر ٢٤٣

لو سلّمنا جدلاً.. فما المحذور؟! ٢٤٥

ملخّص الجواب الأول ٢٤٧

ثانياً: جوابٌ آخر ٢٤٨

إبراهيم عليه السلام كان باحثاً ٢٤٨

بيان المنهجيّة التوحيديّة في بحث ابراهيم عليه السلام ٢٥٠

١- إعتماد الإدراك الفطري لوجود الربّ ووحدانيته ٢٥٠

٢- إعتماد مُدرَكات العقل الفطري لصفات الربّ ٢٥١

ملخّص الجواب الثاني ٢٥٣

ثالثاً: الجواب الحلّي ٢٥٤

إبراهيم عليه السلام كان في مناظرةٍ مع قومه ٢٥٤

مثالٌ توضيحي ٢٥٤
﴿هَذَا رَبِّي﴾ هي مجاراة للخصم في المناظرة ٢٥٥
النتيجة: إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يُجاري خصومه في المناظرة ٢٥٧
القرائن الدالَّة على النتيجة ٢٥٧
والذي يُؤيِّد ذلك عددٌ من القرائن.. ٢٥٧
القرينة الأولى: القضيَّة جرت في سياق مخاطبته لقومه ٢٥٧
القرينة الثانية: القضية جرت بعد رؤية ابراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ للملكوت! ٢٥٩
القرينة الثالثة: تصريح خاتمة الآيات ٢٦٠
القرينة الرابعة: السياق لا يستقيم إلّا مع المناظرة ٢٦١
الخلاصة ٢٦٤

الشبهة الثالثة عشر

الجمع بين الآيات التي بدأت بقوله: وَمَنْ أَظْلَمُ ٢٦٧
الجواب ٢٦٩
منشأ الدعوى ٢٦٩
الرد: نفي الأعظم لا يمنع وجود المساوي ٢٦٩
مثال توضيحي ٢٧٠
لا تكاذب بين الآيات الكريمة ٢٧١
الجمع بين الآيات الثلاث ٢٧١

دليل آخر ٢٧٢

الشبهة الرابعة عشر

الجمع بين المفاضلة ونفي التفريق بين الأنبياء ٢٧٧

الجواب ٢٧٩

الحيثيَّة مختلفة ٢٧٩

التفاضل في مقامات الأنبياء ولا تفريق في الإيمان بهم ٢٨٠

آيات نفي التفريق لا صلة لها بآية المفاضلة ٢٨٠

الآية الأولى وبيان عدم الصِّلة ٢٨٠

الآية بصدد التعريض باليهود والنصارى ٢٨٢

الآية الثانية وبيان عدم الصِّلة ٢٨٢

الآية الثالثة وبيان عدم الصِّلة ٢٨٣

الخلاصة ٢٨٤

الشبهة الخامسة عشر

العموم في: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ ٢٨٩

الجواب ٢٩١

المراد من الآية يُفهم بالسياق وليس بالإقتطاع ٢٩١

المنشأ في توهُّم التناقض ٢٩٣
بحثٌ قرآني في قوله تعالى: ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ ٢٩٤

الشبهة السادسة عشر

مَن الذي يقبض الأرواح عند الموت؟ ٣٠١
الجواب ٣٠٣
منشأ الإسناد لملك الموت ٣٠٣
منشأ الإسناد للملائكة ٣٠٣
إسناد الفعل لأكثر من جهة أمرٌ عرفي ٣٠٤
نماذج أخرى ٣٠٥
أ–تعذيب قوم لوط ٣٠٦
ب– البشارة بإسحاق عليه السلام ٣٠٦
ج– كتابة الأعمال ٣٠٨
الخلاصة ٣٠٨

الشبهة السابعة عشر

توهُّم إنتقاض آية ﴿كُلٌّ لَه قانِتُونَ﴾ ٣١٣
الجواب ٣١٥
ما هذا التوهُّم؟! ٣١٥

هل أبصر ما خفيَ على الأوَّلين و الآخرين؟! ٣١٧
بيانُ المراد من الآية الكريمة ٣١٧
الكلُّ خاضعٌ لأرادته التكوينيَّة ٣١٧
لا جبرَ على الخضوع للإرادة التشريعيَّة ٣١٩
القرائن على المعنى المُراد ٣٢٠
١- الآية في سياق التدبير الكوني ٣٢٠
٢- الدعوة إلى طاعة الله في سياق الآية! ٣٢٢
الخلاصة ٣٢٣

الشبهة الثامنة عشر

هل كان أتباع نوح من المغرقين؟! ٣٢٧

الجواب ٣٢٩

لماذا تُطرح مثل هذه الشبهة الواهنة؟! ٣٢٩
جوابان على الشبهة ٣٣٠
الجواب الأول: تصريح نفس السورة! ٣٣٠
آياتٌ عديدة تُصرِّح بنفس الأمر أيضاً! ٣٣١
إثباتُ شيءٍ لا يستلزم نفي ما عداه ٣٣٣
مثالٌ توضيحي ٣٣٣
وهل كان نوحٌ عليه السلام وحده في السفينة؟! ٣٣٤

الجواب الثاني: حمل كلمة(الأهل) على جميع المؤمنين ٣٣٥
إبن نوح عليه السلام ليس من أهله! ٣٣٨
الخلاصة ٣٣٨

الشبهة التاسعة عشر

وإن مِنكُم إلا وارِدَها ٣٤٣

الجواب ٣٤٥

المُراد من الورود ٣٤٥
الورود في الإستعمال القرآني ٣٤٦
الورود بمعنى الدخول لا يُستعمل إلا بقرينة ٣٤٨
معنى الورود في الآية ٣٤٩
هل الإنجاء يستلزم الدخول؟ ٣٥٠
النجاة قد لا تصدق بدخولهم جهنم ٣٥١
نتيجة ٣٥١
دخول الظالمين لا يستلزم دخول المؤمنين ٣٥٢
إشكال: هناك آيات استعملت الورود بمعنى الدخول ٣٥٣
جواب عام ٣٥٣
الجواب بالنسبة للآية الأولى ٣٥٤

الجواب بالنسبة للآية الثانية ٣٥٥
نتيجة ٣٥٦
جواب تنزُلي على الشبهة........................ ٣٥٦
الغايات المتصورة لدخول المتقين إلى النار ٣٥٨
الأدلة على أن المتّقين لا يُعذّبون ٣٥٩
١- الآيات التي لا حصر لها ٣٥٩
٢- مدلول النجاة ٣٥٩
٣- امتداح المتّقين في نفس الآية ٣٦٠
٤- القرينة القطعية ٣٦٠

الشبهة العشرون

هلاك قوم عاد في يومٍ أو ثمانية؟ ٣٦٥
الجواب ٣٦٧
لا تناقض بين التفصيل والإجمال ٣٦٧
بيان المُراد من الـ(يوم) في سورة القمر ٣٦٩
نماذج من استعمال الـ(يوم) بمعنى الوقت ٣٧١
النموذج الأول ٣٧١
النموذج الثاني ٣٧٢
النموذج الثالث ٣٧٣

النموذج الرابع ٣٧٤

النموذج الخامس ٣٧٥

خلاصة ٣٧٧

أخيراً.. من قال أنهم ماتوا وقوفا؟! ٣٨٠

تفسير الخاوية ٣٨٢

ختام ٣٨٣

الشبهة الحادية والعشرون

اختلافُ جوابِ قومِ لوطٍ لنبيِّهم ٣٨٧

الجواب ٣٨٩

اختلافٌ وليس تناقضاً ٣٨٩

محاورتان و جوابان ٣٩٠

مضمون الحوار يدلُّ على واقعتين ٣٩١

يكفي الاحتمال في منع التنافي ٣٩٣

الشبهة الثانية والعشرون

عصا موسى في الطور وعند فرعون ٣٩٧

الجواب ٣٩٩

الجواب الأول: اختلاف المورد ٣٩٩

المورد الأول: عند فرعون ٣٩٩
المورد الآخر: في جانب الطور ٤٠٠
ما المانع في اختلاف العصا في الموردين؟!.. ٤٠١
العصا كان لها أكثر من أثر ٤٠٢
الجواب الثاني: الحذف والإيجاز.. ٤٠٣
مثالٌ آخر على أسلوب الحذف والإيجاز ٤٠٤
وجه تشبيه العصا بالجانّ: ٤٠٥
الفهرس الإجمالي ٤٠٩
الفهرس التفصيلي ٤١٥